

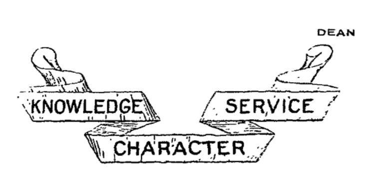
PRIZE



Awarded to

For excellence in

DEAN





أبحاث

في أصول النقد وأسرار البيان

بقلم



دكتور في الآداب

ومُعِيد بالجامعة المصرية

الطبعة الأولى

الثمن ١٥ ص

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

الاهداء

تذكرة ولاء واخلاص لحضرة صاحب العزة الاستاذ
الفيلسوف احمد لطفى السيد بك مدير الجامعة المصريه

من أصغر ابنائه
زكي مبارك

غرة رمضان سنة ١٣٤٤ — ١٥ مارس سنة ١٩٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة وجيزة

هذه طائفة من الابحاث ، انفقت فيها حين كتبتها ما كنت أملك من جهد ووقت ، وقرأت شيئاً منها على استاذي الدكتور طه حسين ، ونشرها المقطم في صيف سنة ١٩٢٥ ، أقدمها للقراء راجياً أن تقع من المنصفين منهم موقع القبول ، والسلام

محمد زكي عبد السلام مبارك

البحث الاول

أهواء النقاد

— ١ —

فطِرَ الناس على حُبّ المفاضَلَةِ بين الأشياء التي ترمي إلى غرض واحد، والموازنة بين الأنواع التى ترجع الى اصل واحد. وقد ظهرت هذه الفطرة واضحةً جليّةً حين ظهر الشعر، وتبارَى فى قرضه الشعراء

وليست الموازنة إلا ضرباً من ضروب النقد، يتميّز بها الردىء من من الجيِّد، وتظهر بها وجوه القوة والضعف فى أساليب البيان: فهي تتطلب قوة فى الادب، وبصراً بمناحي العرب فى التعبير، ومن هنا كان القدماء يتحاكمون الى النابغة تحت قبته الحمراء، فى سوق عكاظ، إذ كان فى نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام

وقد كَلِفَ الادباء فى مختلف العصور بالموازنه بين من ينبغون من الشعراء في عصر واحد، فوازنوا بين امرىء القيس والنابغة وزهير والاعشي، في الجاهلية، وبين جَرير والفرزدق والاخطل، في الدولة الأَموية، وبين أبي نوَاس ومُسلم بن الوليد وأبي العتاهية، وبين ابن المعتز وابن الرومي، وبين أبي تمام والبُحْتُري، في الدولة العباسية. وكذلك عُقِدَت الموازنات بين من نبغوا بعد أولئك الفحول الى

العصر الذي نعيش فيه ، والعهد قريب بما كُتب في الموازنة بين شوقي وحافظ ومطران في الجرائد المصرية والسورية . ولا يزال الأدباء مختلفين في حكمهم على من تقدمهم أو عاصرهم من الشعراء

***

ونريد أن نبيّن في هذه الفصول أغلاط النقّاد الذين تصدّروا قديماً أو حديثاً للموازنة بين شاعرين : جمع بينهما عصرٌ واحد ، أو اشتركا في الإبانة عن غرضٍ واحد ، وأن نضع ميزاناً يُعتمد عليه في وزن ما للشعراء من الحسنات والسيئات ، ليستطيع المتأدب الفصلَ بين شاعرين اُختلفَ من أجلهما الناس وسبيلنا الى ذلك أن نُحدد شخصية الناقد الذى يُرشّح نفسه للموازنة وأن نميز الوحدة الادبية التي يرجع اليها الناقد فيما يُعنى به الشعراء من تحرير المعاني ، واختيار الألفاظ

***

— ٢ —

يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء الى درجة عُليا في فهم الادب ، وان يُصبح وله في النقد حاسة فنية تَصرفه عند الحكم عن كل ما يُفسده من الأهواء والاغراض ، التي تحمل القاصرين من طلاّب الأدب على البعد عن جادّة الصواب ، حين يوازنون بين الشعراء والكتاب والخطباء . فقد نجد من الناس من يطرب للشعر ، لا لأنه شعر ، بل لانه طرق موضوعاً يحبه ، وكشف عن معنى تَميلُ نفسه اليه ، وقد لا يكون ما سمعه أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية ،

أفيُعتبر هذا الإعجابُ دليلاً على حُسن ما استَحْسَنَهُ هذا الذي تشبَّعت نفسهُ بغرضٍ خاص ؟

— ٣ —

ومن هنا نستطيع غض النظر عن أحكام المتأدبين الذين يُفضِّلون القديم مطلقاً على الجديد ، بحيث يرون الجديد نوعاً من الهُراء ، أو يفضلون الجديد مطلقاً على القديم ، بحيث يرون القديم صورة من صُوَر الجمود . وإنما نغض النظر عن أحكام هؤلاء لأن التشيُّع للقديم أو الجديد صَرَفهم عن الاستعداد للحاسة الفنية ، التي تَطرْب للجيد المُمتع من ثروة القدماء أو المحدثين

وقد تنبه لهذا عبد العزيز الجرجاني حين قال : وما أكثر ما نرى ونسمع عن حُفّاظ اللغة وجلّة الرُّواة ممن يَلْهَجُ بعيب المتأخرين ، أن أحدهم ينشَد البيت فيستحسنه ويَستجيدُه ويعجب منه ويختاره ، فاذا نُسب لبعض اهل عصره وشعراء زمانه ، كذب نفسه ، ونقض قوله ، ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً ، وأقل مَرْزَأً ، من التسليم بفضيلة لُمحْدَث ، والإقرار بالاحسان لمُوَلَّد . وحكي عن إسحاق الموصلي أنه قال : أنشدت الأصمعي :

هل إلى نظرةٍ اليك سبيلُ   فيُبلُّ الصدَى ويُشْفَى الغليلُ
إن ما قلَّ منكَ يكثر عندي   وكثيرٌ ممن تحبُّ القليلُ

فقال : هذا والله الديباج الخسرَواني ! ولمن تنشدني ؟ فقلت إنهما لليلتهما . فقال : لا جرَم ، والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر !!

ومن هذا الباب جاز ما ابتدعه خَلَفٌ الأحمر من الشعر باسم شعراء الجاهلية ، لأن غرام النقاد إذ ذاك بالقديم جعلهم يسيغون كلّ ما يضاف الى القدماء من ألوان الكلام !!

— ٤ —

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي تَتَّسِم بسمةَ الغيرة على الجنس، والدفاع عن النَّوع . كالموازنة التي كانت تعقدها السيدة سُكَينة بين الشعراء . وليس بصحيح ماذكره استاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي بك في محاضراته بالجامعة المصرية ، من أن السيدة سُكينة كانت ترى فضل الشعر في الصدق ، والرفق ، وجميل الأحدوثة . استناداً الى الحديث الذي نقله صاحب الاغانى . فسيرى القارىء أن نقد السيدة سكينة متأثر بالعطف على المرأة ، بلا نظر الى قيمة الشعر من الوجهة الفنية . وقد يخرج الشعر على التقاليد الاجتماعية والدينية ، ولكنه يظل قيّماً في نظر الأديب الفنّان

وأنا أُشرِك القارىء في الحكم على ذلك الحديث : ذكر صاحب الأغانى انه اجتمع فى ضيافة السيدة سُكَينةَ جَرِير والفَرَزْدَق وجميل وكُثَيّر ونُصَيْب، فمكثوا أياماً ، ثم أذِنَت لهم فدخلوا عليها، فقعدت حيث تَراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم . ثم أخرجت وَصيفةً لها وَضيئةً؟ قد رَوَت الأشعار والأحاديث ، فقالت : أيكم الفَرَزْدَق ؟ فقال : هأنذا . فقالت : أنت القائل

هما دلتاني من ثمانين قامة * كما انحط بازٌ أقتم الرِّيش كاسرُهْ (١)
فلما استوتْ رجلاي بالارض قالتا * أحيٌّ يُرَجَّى أم قتيلٌ نحاذِرُهْ
فقلتُ ارفعوا الأمْراس لا يشعروا بنا * وأقبلتُ في أعجازِ ليلٍ أبادِرُهْ (٢)
أبادر بوّابَيْنِ قد وُكِّلا بنا * وأحمرَ من ساجٍ تبصُّ مسامِرُهْ (٣)

قال : نعم ؛ قالت : فما دعاك الى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت عليك وعليها ؟ خُذْ هذه الألف والْحَقْ بأهلك ؛

ثم دخلت على مَوْلاتها وخرجتْ ، فقالت أيكم جرير ؟ قال : هأنذا . قالت : أنت القائل

طرَقتْكَ صائدةُ القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعي بسلامِ
تجري السّواك على أغرَّ كأنهُ * بَرَدٌ تحدَّرَ من مُتُونِ غمامِ

قال : نعم ؛ قالت أوَلا أخذت بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ انت عفيفٌ وفيك ضعف ! ! خذ هذه الألف والْحق بأهلك ؟

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت أيكم كُثَيِّر ؟ فقال : هأنذا . فقالت : أنت القائل :

وأعجبني يا عزُّ منكِ خلائقٌ * كرامٌ إذا عُدَّ الخلائق أربعُ
دُنوّك حتى يدفع الجاهلَ الصبَا * ودفعُكَ أسبابَ المنى حين يَطْمعُ
فوالله ما يدري كريمٌ مماطل * أينساك إذ باعدتِ أو يتصدَّعُ

قال : نعم ؛ قالت . مَلحتَ وشَكلت ؛ خذ هذه الألف والْحَق بأهلك

(١) البازي : ضرب من الصقور (٢) الامراس : الحبال (٣) تبص : تلمع

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: أيكم نُصَيب؟ قال: ها أنذا. قالت: أنت القائل

ولولا أن يُقال صبا نُصَيْبٌ لقلت بنفسىَ النشأُ الصغارُ
بنفسى كلُّ مهضومٍ حَشاها اذا ظُلِمَتْ فليس لها انتصارُ

قال: نعم؛ فقالت: ربيّتنا صغاراً ومدحتنا كباراً؛ خذ هذه الألف والحق بأهلك

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: ياجميل! مولاتي تُقرِئُكَ السلام؛ وتقول لك: والله ما زلتُ مشتاقةً لرُؤيتك منذ سمعت قولك

ألا ليت شِعرى هل أبيتنّ ليلةً بوادى القُرَى إنى اذاً لسعيدُ (١)
يقولون جاهِدْ ياجميلُ بغزوةٍ وأىّ جهاد غيرهنّ أُرِيدُ
لكل حديث بينهنّ بشاشةٌ وكل قتيلٍ عندهنّ شهيدُ

جمَلْتَ حديثنا بشاشةً وقتلانا شهداءَ؛ خذ هذه الألف والحقْ بأهلك.

ـ وليس فى هذا الحديث ما يدل على أن السيدة سكينة لم تهتمّ ولم تحرِصْ إلا على أخلاق الأدباء، وأنها ألقت عليهم درساً ما كان أحوجهم اليه — كما ذكر أستاذنا المهدى — وانما هو حديثٌ صريحٌ في الإبانة عن حِرص السيدة سكينة على نعيم المرأة بوجه خاص.

ألا ترى كيف عقبت على قول جرير:

طرقتك صائدةُ القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

(١) وادي القرى: هو واد بين المدينة والشام اكثر من ذكره الشعراء

إنها قالت له : أو لا أخذت بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيف ، وفيك ضعف !

فالسيدة ترى أنه كان يجمُل بجرير أن يأخذ بيدها ، وأن يقول لها ما يقال لمثلها . فكان يقول بالطبع « ادخلي بسلام » ونحن نعلم إلى أين يُؤخَذ بيد المرأة حين تطرق عاشقها بليل !

ثم ما معنى هذه الجملة « أنت عفيف ، وفيك ضعف » أما والله إني لأحب أن يُعفيني القارىء من شرح ما في هـذه الجملة من ألوان الفتُون !

وقد رضيت السيدة سكينة عن تلك الفتاة اللَّعُوب ،التي تَدنو حتى يركب الجاهلُ رأسه ، ويُسَخَّر لصباه ، وتنفر حتى تتقطع بالغويّ أسباب المُنى والمطامع ، والتي لا تزال تلعب حتى يُغْلَب المحب على أمره ، فما يدري أَيصْدِفُ وينسى ، أم يُمسى وهو مُتَيَّم مجروح الفؤاد

وفى هذا الحكم خضعت السيدة لحاستها الفنية ، فلم تذكر الا أنه ملُحَ وشَكِل[1] وأنه بلغ بذلك غاية البيان

وما الذي اعجبها في شعر نُصَيْب ؟ أعجبها أنه ربَّاهُنّ صغاراً ، ومدحهنّ كباراً ! وهذا ما أردتهُ من الغيرة على الجنس ، والدفاع عن النوع . ولهذا أَعجبها من جميل أنهُ جعل حديثهنّ بشاشة وقتلاهن شُهداء !

ويؤيد هذا الرأي ما ذُكر من أنها قالت مرة لراوية جميل : أليس صاحبك الذي يقول

(١) شكل على وزن فرح : من الشكل بالكسر وهو رقة الغزل

ألا ليتني أعمى أصمُّ تقودُني بثينةُ لا يخفى عليّ كلامُها

قال : نعم ! قالت : رحم الله صاحبك إن كان صادقاً في شعره

ألا تراها رضيَتْ بما رضيَ الشاعرُ لنفسهِ من العمى والصمم مع سلامة محبوبتهِ ، وهي التي أنكرت على الفرزدق أن يفزَع ويُروّع حين فزعت ورُوّعت من اجله صاحبتاه ؟

— ٥ —

ونستطيعُ ايضاً ان لا نبالى بأحكام المتأدبين الذين يخضعون لغير الفكرة الادبية : كالفقهاء والمتصوفة ، ومن إليهم ممن يقيسون بمقياس العُرف ، والمألوف ، والمستحسَن من خصال الناس . فقد قيل لعمْرو ابن عبيد . ما البلاغة ؟ فقال ما بلغ بك الجنة ، وعدل بكَ عن النار ، وما بصّرك مواقع رشدك ، وعواقب غيك » فهو يقيس جودة الكلام بمقياس الدعوة الى الرشد ، والنهي عن الغي ، والتنفير من طاعة الهوى . مع ان من الكلام مايهوي بصاحبهِ الى اعماق الجحيم وهو في الوقت نفسه يسمو بهِ الى اعلى مراتب البيان

ولقد أذكر أن بعض العلماء قرأ كتاب (حب ابن أبى ربيعة وشعره) ثم قال بلهجة جِدّية : لاعيب فى هذا الكتاب إلا أنهُ لم يختَم بفصلٍ فى النهى عن العبث بالنساء (١)

— ٦ —

وليس معنى هذا أن الشعر يَفسُد بالأمر بالمعروف والنهى عن لمنكر ، ولكن معناه أن للشعر نزعة أخرى غير النزعة الدينية . وأُريد

النزعة الدينية الصِّرفة التي تخلو من النفحة الشعرية ، ومن ذلك ما تحدثوا به من أن بعض الشعراء أنشد المأمون في مدحه

أضحى إمام الهدى المأمونُ مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغيلُ

فغضب لذلك ولوَى وجهَهُ ، مع ان هذا البيت يُصور مطامع كثير من النفوس التي يحسب اصحابها ان الانسان لا يقرُب من ربه إلا إذا شغله دينه عن دنياه . ولكن نفس المأمون الوثّابة الطمّاحة لم ترض عن هذه المنزلة ، ولم تشأ الزهد في طيبات الحياة

قلت لك إن الشعر قد يُساير الأغراض الدينية ، وتبقى له حين تغلب فيه تلك النزعة قيمتهُ الفنية ، وعندى لهـذا شاهدٌ بديع ، وهو قول بعض الحجازيين في ذم جماعة من عَبيد الراح

لو كنت أحمل خمراً يوم زُرتكمو لم ينكر الكلبُ أنى صاحب الدارِ
لكنْ اتيتُ وروح المسك يفغمنى وعنبرُ الهند أُذكيهِ على النارِ
فأنكر الكلبُ ريحى حين أبصرنى وكان يعرف ريح الزّق والقارِ

فهذا نهيٌ عن الخمر ، ولكنك لا تستطيع أن تضع في صفه قول ابن الوردي

ودَعِ الخمرة إن كنت فتى كيف يسعى في جنونٍ من عقلْ

لان هذا ينقصه ما يبنى عليه الشعر من رائع الخيال

***

وأحب أن لا ينسى القارىء أننا نتكلم في الادب لا في الاخلاق فلا يبتئس بما نقول . على أنى قد أعود اليه بعد قليل لأحدد معه أغراض الشعر والنثر البليغ ولأدرس معهُ نظرية « الفن للفن » لنعرف إن كانت غاية الادب تهذيب الأخلاق ، أم تربية الأذواق

البحث الثانى

عود الى أهواء النقاد

بينت للقارىء في الكلمة الماضية أنه يجب ان لا يخضع الناقد عند الموازنة لغير الحاسة الفنية ، وذكرت له بعض الآفات التي تذهب بقيمة النقد : كالتعصب للقديم أو الجديد ، والتشبُّع بالأفكار الدينية أو الصوفية ، والدفاع عن الجنس في حكم بعض النساء بين الشعراء

والآن أسير مع القارىء في هذه السبيل لنعرف بقية الموانع التي تحول بين الناقد وبين الصواب حين يوازن بين الشعراء

— ١ —

لا ينكر أحد ان ابن الرومي كان من الشعراء الفحول ، والشاعر أبصر بالشعر من سواه ، فلحكمهِ قيمة خاصة ، تفوق أحكام المتأدبين من رجال اللغة والرواية ، ومع هذا فأنا أستطيع ان احكم بأن ابن الرومي حكم مرة بالجمال لقطعة من الشعر ، وكان في حكمهِ من الخاطئين واليك البيان :

كان ابن الرومي مُسرفاً في التطير ، وكاد اسرافه فيهِ يصل بهِ الى الجنون ، فقد كان يلبس أثوابه كل يوم ويتعوّذ ، ثم يصير الى الباب والمفتاح معهُ ، فيضع عينهُ على ثقب في خشب فتقع عينه على جار له كان نازلا بازائه ، وكان أحدب ، يقعد كل يوم على بابهِ ، فاذا نظر اليهِ رجع ، وخلع ثيابهُ ، وقال : لا يُفتح الباب ، فكان بيته يظل مغلق

الابواب إلى ان يُشرف من فيهِ على الهلاك ! وعلم معاصروه بافراطهِ في التطير فأقبل عليهِ أحدهم وانشده :

ولما رأيت الدهر يُؤْذن صرفهُ　　بتفريق ما بيني وبين الحبائبِ
رجعت إلى نفسي فوطّنتها على　　ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جوْر حكمها　　فأيامهُ محفوفةٌ بالمصائب
فخذ خِلسة من كل يوم تعيشهُ　　وكن حذراً من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطرح　　تطيُّر جار أو تفاؤل صاحب

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر إِليهِ ، ثم تبين الحاضرون انهُ شغل قلبه بحفظ هذه الابيات

أفيحسب القارىء أن مثل هذه القطعة — وهي وَسَط في الفاظها ومعانيها — كانت تشغل مثل ابن الرومي ، وتظفر باحتلال قلبه ، لولا بغضهُ للتطير ، ومَلَله من تلك الوسوسة التي كدَّرت عليهِ موارد الحياة ؟

إن الناقد مفروضٌ فيه البرْء من جميع الأغراض، لان النقد نوع من القضاء ، فاذا سيطرت عليه فكرة خاصة صيرت حكمهُ طُعمة للظنون ، وسواء ذلك في الافكار الدينيـة ، والنزعات الجنسية ، والاتجاهات العقلية ، التي تصبغ التفكير بلون خاص

— ٢ —

ان الشعر الوَسَط قد يؤثر تأثير الشعر البديع حين تستعدُّ له النفس ولكن هذا التأثير لا يسمو بالشعر الوَسط الى منزلة الشعر الجيّد ، ومن أمثلة ذلك ما رُوي من أن بعض الأعراب تزوج جارية من رهطهِ

وطمع في أن تلد له غلاماً ، فولدت له جارية ، فهجرها وهجر منزلها ، وصار يأوى الى غير بيتها ، فمر بخبائها بعد حول واذا هى تُرقص بنتها وهى تقول :

ما لأبى حمزةَ لا يأتينا   يظلُّ فى البيت الذى يلينا
غضبانَ أن لا نلدَ البنينا   تالله ما ذلك فى أيدينا
وانما نأخذ ما أُعطينا   ونحن كالزرع لزارعينا

ننبتُ ما قد زرعوه فينا

فلما سمع الأبيات أقبل يعدو نحوها حتى ولج عليها الخباء ، فقبلها وقبّلَ ابنتها ، وقال : ظلمتكما ورب الكعبة !

فأنت ترى أن هذه أبياتٌ عادية فى ألفاظها ومعانيها ، ولكن لا تنس أن الرجل الذى نالت من نفسه ، وراضَتْهُ بعد جُمُوحه ، رجلٌ ينزع قلبه بالرغم منه الى زوجه وابنته ، والشرارة الضئيلة كافيةٌ لاحراق الهشيم ! فليست تدل هذه الحادثة على قيمة أدبيه لهذه الأبيات ، وانما هى شاهدٌ « على ضرب من المعاملات ، وعلى أحوال الاجتماع ، وعلى ما للمرأة من لين الجانب ورقة الأخلاق » (١)

وكذلك يجب درس حالة الناقد النفسية قبل الاعتداد بما أصدر من الأحكام لان الحكم يتبع ما للنقاد من ألوان النفوس ، وصُوَر العقول

— ٣ —

ونستطيع كذلك غضّ النظر عن الأحكام التى يخضع أصحابها لفكرة قومية أو حزبية ، فقد أسرف النقاد فى الظلم حين تصدّروا

---

(١) كذلك قال الاستاذ الدكتور ضيف فى مقدمته ص ٦٦

للفصل بين شعراء الأحزاب ، وانك لتجد أمثلة ذلك منثورة هنا وهناك : حين ترجع للعصور التى اصطدمت فيها الدولة العباسية بالدولة الأموية، وحين تراجع التنافس الذى كان بين أدباء قرطبة وأدباء بغداد

وهذا عبد الملك بن مروان كان من أبصر أهل عصره بنقد الشعر. فلما دخل عليه الأخطل وأنشده

نفسى فداء أمير المؤمنين اذا ... أبدى النواجذ يوماً عارمٌ ذكَرُ(١)
الخائضُ الغمرة الميمونُ طائرُهُ ... خليفة الله يستسقى بهِ المطرُ
فى نَبْعَةٍ من قريش يعصمون بها ... ما ان يُوازَى بأعلى نبتها الشّجرُ
حُشدٌ على الحق عيّافو الخَنا أُنُفٌ ... اذا ألمّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
لا يستقلُّ ذوو الاضغان حربَهُمو ... ولا يُبَيّنُ فى عِيدانِهِمْ خَوَرُ
شُمْسُ العداوةِ حتى يُستقاد لهم ... وأوسع الناس احلاماً اذا قدَرُوا(٢)
هم الذين يبارون الرياح إذا ... قلّ الطعام على العافين أو قتروا
بَنِي أميّةَ نُعماكم مجلّلةٌ ... تمت فلا منّةٌ فيها ولا كَدَرُ

أقول لما أنشد الأخطل هذه القصيدة طرب عبد الملك وقال : أأُنادي فى الناس انك أشعر العرب ؟ فقال الاخطل : حسبي شهادتك يا أمير المؤمنين !

ولم يكن الأخطل أشعر العرب إذ ذاك ، فقد كان جَرير والفرزدق فى الميدان ، ولكن عبد الملك خضع فى حكمه للمصلحة الذاتية ، لا الحاسه الفنية ، فقد كان الأخطل سليط اللسان ، خبيث الهجاء ، وكان عبد الملك قد استعان به على لَذْع من يُناوئه من رجال السياسة

(١) العارم : الشديد (٢) شمس : جمع شموس وهو الصعب المراس

وشُعراء الأحزاب ، ومن هنا كانت دالّة الأخطل عليه ، وكان ما رَوَوا من أنه كان يجيئه وعليه جبة خزّ ، وفى عنقه صليب ذهب ، وفي ملامحه نشوة الصهباء ، مع ان عبد الملك خليفة المسلمين ، والدين فى عنفوانه ، والناس على نصره حِراص ، ولكن السياسة ، وحاجة الملك الى الدعاة من كتّاب وخطباء وشعراء ، والحرص على تحقير المعارضين ، كل أولئك أغرى عبد الملك بحب الأخطل ، والحكم بأنه أشعر الناس ؛

ولو أن ابن رشيق تنبّه لهذا الغرض لَما ظن أن المسلمين سكتوا عن الأخطل لجمال شعره ، ولما عجب من جهره بتحقير الفرائض الاسلامية حين قال

ولست بصائمٍ رمضان طوعاً ... ولست بآكلٍ لحمَ الاضاحى
ولست بزاجرٍ عَنساً بُكوراً ... الى بطحاء مكّةَ للنجاح (١)
ولستُ منادياً أبداً بليلٍ ... كمثل العَيْرِ حيَّ على الفلاح
ولكننى سأشربُها شَمولاً ... وأسجد قبل مُنبَلَجِ الصباح (٢)

ولكن ابن رشيق حسب عبد الملك سكت عن هذا الشاعر لحسن شعره، وتقدمه على معاصريه، ولذلك قال « ومن الفحول المتأخرين الأخطل ، واسمهُ غياث ابن غوث ، وكان نصرانياً من تغْلب بلغت به الحال في الشعر إلى أن نادَمَ عبد الملك بن مروان ، وأركبه ظهر جرير ابن عطية بن الخطَفَى وهو تقىٌّ مسلم » ثم قال « وهجا الأنصار ليزيد بن معاوية لما شبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بعمته فاطمة بنت أبى

---

(١) العنس : الناقة الصلبة (٢) الشمول هي الخمر التي تعصف بالعقل كما تعصف بالنبات ريح الشمال

سفيان ، وقيل بل بأخته هند بنت معاوية ، ولولا شعره لقتل دون اقل من ذلك ، وقد ردّ على جرير أقبح رد وتناول من أعراض المسلمين وأشرافهم ما لا ينجو مع مثله علويٌ فضلاً عن نصرانيّ »

وقد بينت لك أن الشعر وحده لم يكن كافياً لنجاة الأخطل من أن يؤخذ بجرائره ، ولكنّ دفاعَه عن بني أمية ، وهجاءَه لخصومهم ، كانا سبباً في تعصب الأَمويين له،حتى حكم عبد الملك بتقدمه على الشعراء

— ٤ —

وكما كان عبد الملك يؤثر شعر الأخطل كان الرشـيد يؤثر شعر منصور النمري ، ولـكن لا تنس ان رجال السـياسة لا يحبون الشعر للشعر ولا العلم للعلم ، وإنما يتخذون الشعراء والعلماءَ مطايا لأغراضهم السياسية. فمن البَلَه أن نظن ان جودة الشعر هي التى أدنت النمرى من الرشيد ، او أن اتصال النسب كان سبب تلك الحظوة كما توهم بعض مؤرخي الآداب العربية ، وإنما أدنى الرشيد هذا الشاعر لميله الى إمامة العباس وأهله ، ومنافرته لآل علي بن ابي طالب ، فقد ذكروا انه قال في تسفيههم هذه الأبيات

بنى حَسَنٍ وَقل لبنى حُسَينٍ   عليكم بالسـواءِ من الأُمورِ
أميطوا عنكمو كذب الأَمانىّ   وأحلاماً يعدْن عِداة زُورِ
تُسمُّونَ النبيّ أباً ويأبى   من الأَحزاب سطرٌ فى سُطورِ

يريد قوله تعالى فى سورة الأَحزاب « ما كان محمد أبا أحـد من رجالـكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ويذكرون ان الرشيد قال له: ما عَدَوْتَ مافى نفسي ! ثم امره ان يدخل بيت المـال فيأخذ ما أحب،

كما قال صاحب زهر الآداب ، مع أن الآية وجهاً غير هذا الوجه ، وتأويلاً غير هذا التأويل

ويؤيد ما اسلفناه ان الرشيد لما بلغه قوله

آل النبيّ ومن يحبهمو يتطامنون مخافةَ القتل [١]
أمِنَ النصارى واليهودُ ومَنْ من أمةِ التوحيد فى أزْل [٢]
إلا مَصالِت ينصرونهمو بظُبا الصوارم والقنا الذُّبل [٣]

لما بلغ الرشيد هذا القول امر بقتله ، فمضى الرسول فوجده قد مات . فقال الرشيد لقد هَمَمْتُ ان أنبش عظامه فأحرقها !

وانا اكتفى بهذين المثالين فى تعرض من يوازن بين الشعراء للظّنة حين تسيطر عليه فكرة حزبية ، او قومية ، ولولا انى اعرف فى شعراء العصر ضِيقَ الصدر ، لذكرت لك نماذج من شعرهم فى مُسايرة الأحزاب ، خوفاً من النقد والموازنة تحت وَحْى الأغراض ، ولهم العذر فى هذا الدهاء ، فان الأمة التى تكاد تصدق اكثر ما يقال ، إنما تحمل الشعراء على ان يحسبوا حساباً لما يكتب عنهم فى الصحف التى لا تعرف الفرق بين الشخصية الأدبية ، والشخصية السياسية ، فقد اكون عدوّك لأنك تناصر حزباً غير الحزب الذى أناصره ، واكون فى الوقت نفسه نصيرك كعالم ، او اديب ، او فنّان

---

(١) يتطامنون : يسكنون (٢) الازل : الشدة (٣) المصالت : جمع مصلت ، وهو المقدام ، والقنا الذبل هى الظماء الى الدم ، والمفرد ذابل ، ويجمع أيضاً على ذوابل

البحث الثالث

« أنفُس الشعراء »

— ١ —

قد رأيتَ ان الموازنة نوعٌ من النقد، وهي كذلك نوع من الوصف، فالذي يُوازن بين شاعرين إنما يصف ما لكل منهما وما عليه بأدق ما يمكن من التحديد، فمن واجب الناقد إذاً أن يتعمق في دراسة حياة الشاعر الذي يضع شعره فى الميزان، وأن يجتهد فى أن يرى الأشياء بعينه، ويدركها بشعوره، ليستطيع وزن مايقول. فان الشاعر إنما يؤدي «رسالته» الى جيل خاص، في قُطر خاص. ومن التحكم أن تطالبه بأن يرى الأشياء بعينك، ويدركها ببصيرتك، ويتذوقها بوجدانك، مع أن بينك وبينه مئات الفروق، وهو لم يعش معك، ولا لك، وإنما خضع في شعوره لغير ما تخضع له من ظروف الزمان والمكان

وقد رأيت من الادباء من يستنكر قول زهير فى دار محبوبته وقد نال منها العفاء:

وقفتُ بها من بعد عشرين حِجةً ... فلأياً عرفتُ الدار بعد توهُّمِ (١)

وهو يرى أن هذا وصفٌ ضئيل للدُّرُوس والعفاء. وتلك غفلةٌ ظاهرة، فان منازل الأعراب تعفو وتَدْرُس فى أقلَّ من عشرين سنة، فكيف يطلب لدروسها عشرات العقود ؟

(١) لأياً عرفتها، وعرفتها بعد لأي : أي بعد مشقة

ورأيت من يستهجن ابتداء كعب بن زهير بقوله :

بانت سُعاد فقلبي اليوم مَتبُولُ متيم إثرَها لم يُفْدَ مكبولُ
وما سعادُ غداةَ البين إذ رحلوا الاأغنّ غضيضُ الطرف مكحولُ

وذلك ان هذه القصيدة أُنشدَت فى حضرة النبي عليه السلام، فمن الأدب أن لاتبدأ بالنسيب. وهذا أيضاً خطأ لأن بدأ الشعر بالغزل كان من العادات العربية المستملحة، ولم يكن أحد ينكرها إذ ذاك، حتى يُنسب كعبٌ الى ما هو منه بَراء

— ٢ —

وكان الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً يَفضُل قول أبى نواس

ودار نَدامى عطّلوها وأدلجوا بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مَساحبُ من جرّ الزقاق على الثرى وأضغاثُ ريحانٍ جَنِيٌّ ويابسُ
حبست بها صحبي فجدّدتُ عهدهم وانى على أمثال تلك لحابسُ
تُدارُ علينا الراح فى عَسْجدية حبَتها بأنواع التصاوير فارسُ
قَرارتُها كسرى وفى جَنباتها مهاً تدّريها بالقِسيّ الفوارسُ
فللخمر ما زُرَّتْ عليه جُيوبها وللماء ما دارت عليه القلانسُ

ثم جاء صاحب المثل السائر فقال « فصاحة هذا الشعر عندى هي الموصوفة لا هذا المعنى ، فانه لا كبير كُلفة فيه ، لأن أبا نواس رأى كأساً من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره ، والذى عندى فى هذا أنهُ من المعانى المشاهدة، فان هذه الخمر لم تحمل الاماء يسيراً، وكانت تستغرق صُور هذا الكأس الى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلاً بقدر القلانس التي على رءوسها ، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر » .

فانظر كيف صغُرت قيمة الشعر في عين هذا الناقد حين كان «حكاية حال مشاهدة بالبصر» مع انه انما عظُم لذلك في عين الجاحظ

ورأيت من ينكر قول ابن الدمينة

ولو أنني أستغفر الله كلما ذكرتك لم تكتب عليّ ذنوبُ

واستند في إنكاره الى أن هذه (عبارة فقهية) وكان عليه أن يذكر أن روح الشاعر مصبوغ بصبغة دينية ، وانه قال هذه الكلمة العذبة ، قبل ان يوجد التكلف في الفقة ، وقبل ان تثقل أرواح الفقهاء!

ومن النقاد من فضل قول مسلم بن الوليد :

تظلّم المال والأعداء من يدهِ لازال للمال والأعداء ظَلاَّما

واستقبح قول ابي نواس :

بُحّ صوت المال مّما منك يشكو ويصيحُ

استناداً الى أن المال لا صوت له . وهذا أيضاً خطأ . لان أبا نواس قريب العهد بمال الاعراب ، ومال الاعراب ، ناطق ، وطالما اضطربت الإبل لسكّين الجزار عند قدوم الضيفان

— ٣ —

فعلى الناقد أن يتبين العهد الذي عاش فيه الشاعر ، وأن يُعنى فوق ذلك بمعرفة ما درسه من الأَدب القديم ، لما لذلك من الاثر في اذواق الشعراء

فقد أنكروا على شوقي قوله

ارفعي الستر وحيي بالجبينْ وأرينا فَلَق الصبح المبينْ

وقِفي الهودَجَ فينا ساعةً تقتبسْ من نور أم المحسنينْ

واتركي فضل زِمامَيْهِ لنا نتناوبْ نحنُ والرُّوح الامين

مع ان أم المحسنين انما ركبت يومئذٍ سيارة تنهب الارض، ولكن هكذا بقى الهودج فى ذهن شوقى ، لإمعانه فى دراسة الشعر القديم...

وأنكروا عليه قوله فى سيارة الدكتور محجوب

لكم فى الخُطّ سيّاره   حديث الجار والجاره

واستخفوا كلمة « حديث الجار والجارة » وفاتهم أن الدكتور محجوب يسكن فى حيّ قد لا يعرف أهله غير الخيل والبغال والحمير !

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم

أمشى يُرَنّحنى الأسى   والبؤس ترنيح الشرابْ

لأن اليتيم البائس قد لا يعرف كيف يترنح السكران . ولكن حافظ يرى هذه المناظر فى الصباح والمساء

واستضعفوا قول مطران فى رثاء اسماعيل صبرى

شُهبٌ تَبين فما تؤوبُ   فكأنها حَبَبٌ يذوبُ

أرأيت في كأس الطلا   دُرَراً وقد صعدت تَصُوبُ

هو ذاك في لجّ الدجى   طَفو الدّراري والرُّسوب

لا فرق بين كبيرها   وصغيرها فيما ينوب

لأن مقام الرثاء يجل عن ذكر الحبَبِ والكأس ، وليس لك أن تشبه الشهاب حين يغيب، بالحبَبِ حين يذوب. ولكن يجب أن نعرف كيف يعيش مطران ، لنعرف قيمة هذا التشبيه في نفسهِ المِرْاح

وكذلك تقول في توجيه كلمة شوقي في رثاء محمد تيمور

ضربوا القباب على الشبابْ   وثوَوْا الى يوم الحساب

هَمَدُوا وكل محرّك   يوماً سيسكن في التراب

نزلوا على ذئب البلى   فتضيفوا شر الذئاب
وكأنهم صرعى كرى   بالقاع أو صرعى شراب
فاذا صَحَوْا وتنبهوا   فالله أعلم بالمآب

فان تشبيه الموتى بصرعى الشراب لا يدل على غفلة الشاعر عن رعاية مقتضى الحال، وانما يشير بطرف خفي الى ما لحياته من شتى الالوان، كما أفصح شعره عن ألوان حياته في قوله من كلمة ثانية

ما أنتِ يا دنيا ؟ أرؤيا نائم ؟   أم ليل عرس ؟ أم بِساط سُلافِ
نعماؤك الريحان إلا أنهُ   مسّت حواشيه نقيع زعاف

وقال أحد أنصار ابن الرومى يلومه : لم لا تشبّه كتشبيهات ابن المعتز ؟ فقال أنشدني من قوله الذى استعجزتني عن مثله . فأنشده قوله فى الهلال .

انظر اليهِ كزورقٍ من فضةٍ   قد أثقلتهُ حمولة من عنبرِ

فقال له زدني فأنشده :

كأن آزريونها   غِبَّ سماءٍ هاميهْ
مَدَاهنٌ من ذهبٍ   فيها بقايا غاليهْ

فصاح : وا غوثاه ! لا يكلفُ اللهُ نفساً إلا وُسعها . ذلك إنما يصف ماعون بيته، لانه ابن خليفة . وأنا أى شيءٍ أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت أين يقع قولى من الناس . فهل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً   من الجوّ دُكْناً والحواشي على الارضِ
يطرزها قوس السحاب باخضر   على أحمر فى أصفر إثْر مُبيضّ

كأذيال خَود أقبلت فى غلائل مُصبَّغة والبعض أقصر من بعضِ

وقولى فى صانع الرقاق

ما أنسَ لا أنسَ خبازاً مررتُ بهِ يدحو الرقاقةَ مثل اللمح للبصرِ
ما بين رؤيتها فى كفّه كرةً وبين رؤيتها قَوْراءَ كالقمر
إلا بمقدار ما تنداحُ دائرةٌ فى لجة الماء يُلقَى فيهِ بالحجر

فليس لك ان تقدم ابن المعتز على ابن الرومى لأنه استطاع تشبيه الآزريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية ، وليس لك أن تقدم ابن الرومي على ابن المعتز لانه أجاد وصف الخباز وهو يدحو الرقاق فان السبق هنا وهناك يرجع الى الظروف التى أُتيحت لكل من الشاعرين ومهدت السبيل الى الوصف الدقيق . وانما يجب عليك أن تعمد الى الشاعر وتَسبُر أغوار نفسه لترى مبلغ شعوره بما وصفه من الاشياء ، فقد يكون ابن الرومى فى وصف الرقاق أشعر من ابن المعتز فى وصف الهلال

— ٤ —

وكذلك ليس لك ان تقدم الاوصاف الحضرية على الاوصاف البدوية ، لان الحضارة في ذوقك أنضر من البداوة ، فقد يكون البدوي فى بداوتهِ أشعر من الحضري فى حضارته ، كما قال استاذنا المهدي ، ومعنى ذلك أن البدوى قد يكون شعوره بالريح السَّموم فى مجاهل البيداء ، أقوى من شعور الحضرى بالنسيم العليل فى الروضة الغناء

فليس قول خزيمة بن نهد فى ريق محبوبته

فتاةٌ كأن رُضاب العبير بفيها يُعلُّ به الزنجبيلُ

بأقل من قول الشريف الرضي

يبسمن عن بَرَد الغمام وبَرْده ريّان يُغْبَق بالمدام ويُصبحُ

ولا يفضلهما من قال « كأنى ألتقط من فيها حَبَّ الرمان » لأن الامر فى ذلك يرجع الى قوة ادراك الشاعر، بغضّ النظر عن تفاوت الاوصاف ، فقد يكون الزنجبيل أجمل ما تُعطِّر بهِ الأفواه في البادية كما تكون الخمر أو حب الرمان أحلى ما تُعطر به الثنايا فى الحاضرة . ولكل شعب وجهة فى تناول الاشياء

ألم تر الى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم فى مدحه

أنت كالكلب فى حفاظك للود وكالتيس فى قِراع الخطوبِ

لقد طرب المتوكل لهذا الشعر ، وان كان جاسيَ اللفظ ، بادِيَ الخيال ، لانه أُعجب بما له من قوة الشاعرية ، وهي رُوح البيان ، ثم اسكنهُ قصرا من قصور بغداد ، واستدعاه بعد ذلك وقد صقلته الحضارة فأنشده تلك الرائية البديعة التى يقول فى أولها

عيون المها بين الرصافة والجسرِ
جلبن الهوى من حيث ادرى ولا أدري

أعدْنَ لِيَ الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدنَ جمراً على جمرِ
سَلِمْنَ وأسْلَمْنَ القلوب كأنما تُشَكُّ بأطراف المثقفة السّمر
خليليّ ما أحلى الهوى وأمرّهُ وأعرفني بالحلو منهُ و بالمرّ
بما بيننا من حُرمةٍ هل علمتما أرق من الشكوى وأقسى من الهجر

والخلاصة ان الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية . ويفاضل بين بصيرة وبصيرة . ويقارن بين إدراك وإدراك . بغض النظر عن الفروق الموضعية التى يقضي بها اختلاف الاقاليم . والفوارق الزمنية التي يوجبها

اختلاف العصور . وهـذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة . ولكنها ضرورية . يتطلب هذا أن ينسي الناقد شخصيته . وان يفنى فى شخصية الشاعر الذي يدرسه . بحيث يبصر بعينه . ويسمع بأذنه . ويفقه بقلبه. ليَسْبُر كما قلت أغوار نفسهِ . وليرى مبلغ شعوره بما وصفه من الاشياء

البحث الرابع

« شعراء الأحزاب »

— ١ —

ويجب على الناقد حين يُوازن بين شاعرين أن يعرف حياتهما بالتفصيل،وان يتثبت مما أحاط بهما من مختلف الظروف.وعلى الاخص اذا مَرّت حياتهما فى غمرة من الغمرات الدينية.أو فتنة من الفتن السياسية. فقد يكون أحد الشاعرين من الحزب الغالب . وثانيهما من الحزب المغلوب. ثم تعصف الفتن بما ترك شاعر الأقلية من الشعر الرائع . وتُبقى العصبية الحزبية على ما ترك شاعر الأكثرية من الغثّ والسّمين . والويل كل الويل للمغلوب !

ولقد حان الوقت لمحو تلك الخرافة التى كاد يجمع عليها مؤرخو الآداب العربية : وهى أن الشعر كان فى خمود فى زمن البعثة والخلافة الراشدة،استناداً الى ندرة ما روى من شعر ذلك العهد، وقلة مَن عُرِفَ فيه من الشعراء

ولو تنبه الباحثون الى تلك الحملة الشديدة التي وجهتها الشريعة الى

الشعر والشعراء لتريثوا فى الحكم أو احترسوا بعض الاحتراس . فقد كان الشعر في زمن البعثة قوياً وغزيراً . وكان الشعراء في كثرة وعزّة . ولـكن النبي عليه السلام رأى أكثرهم من معارضيه . فعمد الى اخفات صوتهم . وكان ما أراد

فان كنت في ريب من ذلك فحدثنى عن سبب نزول هـذه الآية « والشعراء يتّبعهم الغاوون . ألم ترَ أنهم فى كل واد يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون » ثم اذكر أن عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت قالوا : يا رسول الله لقد أنزل الله هـذه الآية وهو يعلم اننا شعراء . هلـكنا ! فأنزل الله « الا الذين آمنوا وعمـلوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلِمُوا » فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم (١)

ومعنى ذلك ان الشعر لا يُذم الا ان أُعدّتْ به حملة على النبوّة . والاّ فقد روى ان النبى عليه السلام قال ليلة وهو فى بعض أسفاره : أين حسان ابن ثابت؟ فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك! قال : احْدُ! فجعل ينشد ويُصغى اليهِ . فما زال يستمع اليهِ وهو سائق راحلته حتى فرغ من إنشاده فقال عليه السلام : لهَذا أشد عليهم من وَقْع النّبْل . ورُوي ايضاً انهُ قال له : اهجهم ! فوالله لهجاؤك اشـد عليهم من وقع السهام فى غَلَس الظلام ! وكـذلك كان حسان يقول لاهل مكة

عَدِمْنا خيلنا إن لم ترَوْها تثير النقع موعدها كَدَاءُ (٢)
ينازعن الأعنة مصغيات على أكتافها الأَسَلُ الظِّماءُ

---

(١) راجع اسباب النزول (٢) كداء بفتح الكاف بأعلى مكة عند المحصب

تظل جيادُنا متمطرات تلطِّمهنّ بالخُمُر النساء (١)
فاما تُعْرِضوا عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم يُعز الله فيه من يشاء
وقال الله قد يسَّرْتُ جنداً هم الانصار عُرْضَتُها اللقاء (٢)
لنا في كل يوم من معدّ سباب أو قتال او هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء
وجبريلُ امين الله فينا وروح القدس ليس له كِفاء
ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغلة فقد برح الخفاء (٣)
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فاجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولستَ له بكفء فشركما لخيركما الفداء

وانما نقلت لك هذه القطعة من شعر حسان لانها تمثل خصومة ذلك العهد اصدق تمثيل ، فليس عندي شك في انهُ كان لقريش شعراء فحول يقارعون شعراء الرسول ، وليس عندى شك فى أنه كان لليهود شعراء يجمعون بين حُسْنِ القول وظُلْمةِ الارتياب، وحسبك أن تعرفَ أنه كان فيهم من يقول :

فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتمو علينا ولكن دولةٌ ثم تذهب

ولكن رأى النبي أن يقضي قضاءً مُبرماً على من عارضهُ من شعراء قريش ، وشعراء اليهود . لأن الدين فى نفسهِ أعزّ من أن يُهادِنَ أعداءَه

(١) متمطرات مسرعات ، وتلطمهن النساء تمسح ما عليهن من الغبار
(٢) العرضة بالضم الهمة (٣) المغلغلة الرسالة تحمل من بلد الى بلد

أو يفتر عن حرب خصومهِ من الشعراء . وكذلك بادَ وأُنقرض َما ترك حزْب المعارضة لذلك العهد من الآثار الأَدبية والفنية ، وما خلّف من الآراء الفلسفية والاجتماعية ، وأصبحنا لا نعرف من الحركة العقلية فى ذلك العصر غير ما رواه المسلمون ، وهم لا يروون بالطبع إلا ما فيهِ للإسلام نصر وتأييد ، وصار من المتعذر على الباحث أن يضع لذلك العصر صورة صحيحة مضبوطة ، لم تلوّنها الاغراضُ والأهواء ، وأقول الأَغراض والأَهواء لأن القضاء على آثار الحزب المعارض لعهد النبوة إنما كان طاعة للأهواء الجامحة التى لم يعرف أصحابها خطر هذه الجناية على تقدير قوة الإسلام من الوجهة الروحية ، والعقلية ، والاجتماعية

أفتحسب أن من مجد الإسلام أن تثبت أن العالم كان محطّم الأركان ،مهدّم الجوانب ، وأن العقول كانت خلتْ من روعة الإيمان ، ثم جاء الإسلام فلم يجد غير أنقاض من الهمَم ، وأطلال من العزائم ، وخرائب من العقول،والقلوب ؟

هيهات هيهات !

إن مجد الإسلام فى أن تثبت خطر العهد الذى نشأ فيه من الوجهة العقلية ، لترى كيف تقارعت الحجج ، وتصاوَلت البراهين ، ولترى كيف انتصر النبي على خصومهِ الأقوياء ، الذين وصفهم القرآن بقوةِ النطق حين قال : « إذا ذَهبَ الخوفُ سلقُوكُمْ بألسنةٍ حِدَاد » وبعنف الخصومة حين قال : « لتنذر بهِ قوماً لُدًّا » وبسحر البيان حين قال : « أآلهتنا خيرٌ أم هوَ ما ضَربوهُ لكَ إلاَّ جدَلاً بل هم قومٌ خصِمُون »

وبشدة المكر حين قال : «وإن كان مكرهم لتزول منهُ الجبال» وبرجاحة العقل حين قال : « فاعتبروا يا أُولى الألباب»

— ٢ —

ونعود فنذكر أن الحملة التي وُجّهتَ إلى الشعر على أثر ما كان من لَدَدِ شعراء اليهود، وتوثُّبِ شعراء المشركين ، أثرت تأثيراً عميقاً في حياة المسلمين من الوجهة الأدبية، فرأيناهم يسرفون فى بُغْضِ الشعر ، والنيل من الشعراء ، وكان من ذلك أن قِيل لسعيد بن المسيب إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر ، فقال نسكوا نسكاً أعجمياً ! وسئل ابن سيرين فى المسجد عن رِواية الشعر فى رمضان ، وقد قال قوم إنها تنقض الوضوء فقال :

نُبِّئتُ أن فتاةً كنت أخطبها ... عُرقوبها مثل شهر الصوم فى الطولِ

ثمَّ قامَ فأمَّ الناس !

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رفث القول ؟ فأنشد :

وهنَّ يمشين بنا هميسا ... ان تصدق الطير ننك لميسا

وقال : انما الرفث عند النساء ، ثم أحرم للصلاة !

ثمَ جرى على ألسنة الجماهير أن الشعر لا يليق بالفقهاء والمحدثين ، فرأيناهم يسألون عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أتقول الشعر فى فقهك وورعك ! فاجاب : لا بد للمصدور أن ينفث ! وهذا الفقيه هو صاحب هذه الابيات الرائعة

شققْتَ القلب ثم ذَرَرْتَ فيهِ ... هواكِ فليمَ فالتأمَ الفُطورُ

تغلغل حبَ عثمة في فؤادي ... فباديه مع الخافي يسيرُ

تغلغل حيثُ لم يبلغ شرابٌ ولا حُزْن ولم يبلغ سرور

ورأيناهم يزعمون ان الامام الشافعي قال

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيدِ

ولا يزال شيوخ الازهر مختلفين في بدء الشعر بالبسملة ، لأنه فيما يرون ليس من الامور ذوات البال ! ولا أدل على هوان الشعر في نظر الفقهاء من قول الغزالى « وأما الشعر فكلام حسَنُه حسَنٌ وقبيحُه قبيح » وهذا كله أثر الحملة التي وجهت الى الشعر والشعراء

ولكن الشعر من الفنون الفطرية التي كلف بها الانسان منذ عهد بعيد ، والمسلمون ككل الأمم لم يكن لهم بد من حياة الفنون . وكذلك نهضوا داعين الى روايه الشعر ، وإجازة الشعراء . ولكنهم لم يَدْعوا الى الشعر باعتبار أنه فن جميل وانما دعوْا اليه باسم الدين ، فقالوا ان النبي كان يرتجز بقول ابن رواحة وقد أُصيبت إصبعه في احدى المواقع

هل انتِ الا اصبع دُميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ

وحبّروا الفصول الضافية في أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء . فنسبوا لأبي بكر الصديق قصيدة طويلة مطلعها :

أَمن طيف سلمي بالرماح الدمائثِ أَرقت أو امر في العشيرة حادثِ

ونسبوا الى عمر وعثمان طائفة من المقطوعات ، ونسبوا الى عليّ طائفة من القصائد ، ونقل الفيروزابادى عن المازني وصوّبه الزمخشرى أنه لم يصح أن على بن أبي طالب تكلم بشيء من الشعر غير هذين البيتين

تلكم قريش تمنّاني لتقتلني فلا وربك ما برّوا ولا ظفروا

فان هلكت فرهن ذمتي لهمو بذات ودقين لا يعفو لها أثر

وقال ابن رشيق بعد ان ذكر طائفة من شعر الائمة والقضاة «وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزاً . وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة. والغناء حُلة الشعر ، ان لم يلبسها طُوِيت . ومحال ان يحرم الشعر من يحل الغناء به » وحسب الشعر هوانًا ان تقول انه مباح !

أفترى بعد هذا البيان أن في مقدور الناقد أن يوازن بين حسان بن ثابت مثلا وبين واحد ممن عاصره من شعراء المشركين واليهود ؟ كيف وقد عصفت الحوادث بما ترك شعراء الحزب المغلوب ، وبقي شعر حسان بفضل ما صاغ لرسول الله من عقود الثناء ؟ على أن هذا لا يمنع أن يكون حسان سيد الشعراء في عصره ، ولكن هاتِ ما ترك أقرانه ، لنستطيع الموازنة ، ولنصل بها الى علم اليقين ، فقلما تنفع الظنون

— ٣ —

وإنك لتجد ما يدعوك الى الحذر اذا تخطيت عهد النبوة ، وانحدرت الى عهد بني أمية ، أو عصر بنى العباس ، هناك ترحم نفسك من التوغل في بيداء الضلال ، وهناك تجد شعراء العلويين في عهد بني أمية ، وشعراء الامويين في عصر بني العباس ، تجد هؤلاء وأولئك يقاسون ألوان العَنت وصنوف الجَهْد ، في كَتمْ ما يَنمّ عن مشاربهم الاجتماعية ، ومنازعهم السياسية ، وأكتفي الآن بمثال واحد ، ولو شئت لضربت لك عشرات الامثال

ذكروا أن المتوكل على الله كان في اجتيازه الى دمشق قد وجد في حائط من حيطان دير الرصافة رقعة ملصقة ، فيها هذه الابيات :

أيا منزلاً بالدير أصبح خالياً ـ تَلاعَبُ فيه شَمْألٌ ودَبورُ

كأنك لم تسكنك بيضٌ أوانسٌ ... ولم تتبختر في فنائك حُور
وأبناء أملاك عباشمُ سادةٌ ... صغيرهمو عند الأنام كبيرُ
إذا لبسوا أدراعهم فعنابسٌ ... وإن لبسوا تيجانهم فبدورُ (١)
على أنهم يوم اللقاء ضراغمٌ ... وأنهمو يوم النوال بُحور
ليالي هشامٌ بالرصافة قاطنٌ ... وفيك ابنه يا ديرُ وهو أميرُ
اذ العيش غضٌ والخلافة لدْنةٌ ... وأنت طريرٌ والزمان غريرُ
وروضك مرتاضٌ ونورك نيّرٌ ... وعيش بني مروان فيك نضيرُ
بلى فسقاك الله صوب سحائب ... عليك بها بعد الرواح بُكور
تذكّرتُ قومي خالياً فبكيتهم ... بشجو ومثلي بالبكاء جديرُ
لعل زماناً جارَ يوماً عليهمو ... لهم بالتي تهوي النفوس يدورُ
فيفرح محزونٌ وينعم بائسٌ ... ويطلق من ضيق الوثاق أسيرُ
رويدكَ ان اليوم يتبعه غدٌ ... وإن صروف الدائراتِ تدورُ

قال ياقوت : فارتاع المتوكل عند قراءتها واستدعى الديراني وسأله عنها فانكر ان يكون علم من كتبها ، فهم بقتله ، فسأله الندماء فيه ، وقالوا: ليس ممن يتهم بميل الى دولة دون دولة. فتركه. ثم بان أن الابيات من شعر رجل من ولد روح بن زنباع الجذامي من أخوال ولد هاشم بن عبد الملك

وكذلك عصفت السياسة بما ترك شعراء الاحزاب ، وتهدمت صروح من الآداب بما ضاع من الشعر السياسي فيما خلا من العصور ، وكلنا يذكر ما لقي شعراء البرامكة من عنف الرشيد

(١) العنابس : الاسود

ومن هنا وجب على الناقد حين يوازن بين شاعرين أن يعرف ما أحاط بهما من مختلف الظروف ليكون في حكمه قريباً من الصواب، فقد رأينا كيف تطمس القوة معالم الشعر البليغ

البحث الخامس

نفسية الناقد

— ١ —

قلت فيما سلف: إن الموازنة نوع من القضاء . والآن نريد أن نبين أن الناقد كالقاضي، فكما يجب على الحَكَم أن يُخلي نفسهُ من جميع الاغراض حين يتقدم للحكم بين الناس ، كذلك يجب على الناقد أن يبرىء نفسه من جميع الأغراض حين يتقدم للموازنة بين الشعراء

فاذا أردت أن توازن بين شاعرين فامتحن نفسك قبل ذلك ، فان رأيت في نفسك الميل لتفضيل أحدهما على الآخر لسبب لا تُسيطر عليه الحاسة الفنية ، فاعلم أنك في ترجيحك متهمٌ ظَنين . وان رأيت نصرة الادب والحق تغلب على جميع ما لك من النوازع ، وآنست في نفسك القدرة على مقاومة ما يعترضك من التقاليد — ولعالم الادب أيضاً رسوم وتقاليد — فتقدم الى الموازنة ، وثق أن الرغبة في نصرة الحق حليفة الفوز المبين

وأنا ذاكر لك من الشـواهد على ما يفعل الغرض بالموازنة ما نقله صاحب زهر الآداب عن الحاتمي إذ قال :

« جمعني ورجلين من مشايخ البصرة ، ومن يؤبه اليه في علم الشعر ، مجلس بعض الرؤساء ، وكان خبره قد سبق إليَّ في عصبيته للبحترى ، وتفضيله إياه على أبي تمام . ووجدت صاحب المجلس مُؤْثراً لاستماع كلامنا في هذا المعنى ، فأنشأت قولاً أنحيت فيه على البحترى إنحاء أسرفت فيه ، واُقتدحت زناد الرجل : فتكلم وتكلمت ، وخضنا في أفانينَ من التفضيل والمماثلة ، غلوت في جميعها غلواً شهده جميع من حضر ، وخضنا في أفانين في المجلس ، وكانوا جِلّةَ الوقت وأعيان الفضل ، فاضْطُرَّ إلى أن قال : ما يحسن أبو تمام أن يبتدىء ، ولا أن يخرج ، ولا أن يختتم ، ولو لم يكن للبحترى عليه من الفضل إلا حسن ابتداءاته ، ولطف خروجه ، وسرعة انتهائه ، لوجب أن يقع التسليم له ، فكيف بأوابده التي تزداد على التكرار غضاضة وجدة ؟

ثم أقبل عليَّ فقال : أين يذهب بك عن ابتدائه :

عارضننا أُصُلاً فقلنـا الربربُ   حتى أضاء الأُقحوانُ الأشنبُ(١)

واُخضرَّ موشيُّ البرود وقد بدا   منهن ديباج الخدود المُذْهَبُ

وأين لأبي تمام مثل خروجه حيث يقول :

أدارهمُ الاولى بدارة جلجل   سقاك الحيا ريحانُهُ وبواكرُهْ

وجاءك يحكي يوسف بن محمدٍ   فروَّتك رياه وجادك ماطرُهْ

وأنَّى لأبي تمام مثل حسن انتهائه حيث يقول :

(١) الاشنب : من الشنب بفتحتين وهو برد ورقة وعذوبة في الاسنان

اليك القوافى نازعات شوارداً يُسَيَّرُ ضافى وَشْيِهَا ويُنَمنمُ
ومشرقة فى النظم غراً يزيدها بهاءً وحسناً أنها لك تنظَمُ

وقوله فى هذا المعنى :

ألست الموالى فيك نظم قصائد هى الانجم اُقتادت مع الليل أنجما
ثناءً تخال الروض فيهِ منوراً ضحًى وتخالُ الوشىَ فيهِ مُنمنما

ولقد تقدم البحترى الناس كلهم فى قوله

لو أنّ مشتاقاً تكلف فوق ما فى وُسْعِهِ لسعى اليكَ المنبرُ

هذه خلاصة الجزء الأول من هذه المحاورة التى وضعت فى الموازنة بين ابي تمام والبحترى. وقبل عرض الجزء الثانى نلفت نظر القارىء الى اختبار « نفسية » الحاتمى صاحب هذا الحديث ، فانا نجده يذكر أنهُ كان يعلم عصبية مناظره للبحترى ، وتفضيلهُ اياه على أبى تمام ، ويذكر أنهُ تعمد الإنحاء على البحترى ليقتدح زناد خصمه ، وأنهُ غلا فى المماثلة غلواً شهده جميع من حضر ، وأنهُ اُضطرّ خصمه إلى أن يزعم أن أبا تمام لا يحسن الابتداء ولا الخروج ولا الانتهاء ، إلى آخر ما قال

فكيف إذن تقبل هذه الموازنة وهي مصحوبة بهذا العمد ، ومسبوقة بذلك الإصرار ؟

ثم قال « وكنت ساكتاً إلى أن استتم كلامه ، وكأن الجماعة أعجبهم ذلك ، عصبية عليّ لا على أبي تمام ، لأني كنت كالشجي معترضاً فى لهواتهم ، وأسرّ كل واحد منهم الى صاحبه سراً يومي به الى استيلاء الوجل عليّ ، فلما استتم كلامه ، وبرقت له بارقة طمع فى تسليمي له ، ابتدأت فقلت : لست ممن يقعقَع له بالحصى ، أو تقرع له العصا ، لا إله

الا الله ! استنت الفِصال حتى القَرْعى ! هل هذه إلا عَوَانٌ مفترعة ، قد تقدم ابو تمام الى سَبْك نضارها ، وافتضاض أبكارها : وجري البحتري على وتيرته في انتزاع أمثالها واتباعها »

وهذه القطعة تدل كذلك على أن هذه ليست موازنة بين شاعرين وانما هي مُقارعة بين خصمين ، يريد كل منهما أن يقهر صاحبه ، وأن يفوز باعجاب الحاضرين ، ألا ترى كيف فطن الحاتمي الى رضى الجماعة عن فوز البحتري ، وان ذلك كان عصبية عليه لا على أبي تمام ، وكيف أسرَّ كل واحد منهم الى صاحبه مشيراً الى استيلاء الوجل عليه . ثم انظر كيف غضب ، وكيف ثار ، لترى انه لم يغضب للحق ، وانما غضب لنفسه ، ولم ينتصر للادب ، وانما انتصر لهواه

ثم اندفع يذكر أن قول البحتري في صفة الغيث مخاطباً الدار

وجاءك يحكى يوسف بن محمد فروّتك رياه وجادك ماطره

مأخوذ من قول ابي تمام

وبيوتها في القلب نؤْيٌ شفّهُ ولَهٌ بظاعنها وبالمتخلّفِ
وكأنما استسقى لهن محمدٌ من سَوْمهن من الحيا في زخرف

وان البحترى أخذ قوله

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما في وُسْعه لسعى اليك المنبرُ

من قول ابي تمام الذي تقدم فيه كل احد لفظاً رشيقاً ومعنًى دقيقاً

دِيمةٌ سَمْحة القياد سَكوب مستغيث بها الثرى المكروبُ
لو سعت بقعة لإعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب

وأن قوله في صفة القوافي :

يسيرُ ضافي وشيها وينمنم

وقوله في صفتها :

ثناء تخال الروض فيه منوّراً ضُحىً وتخال الوشي فيه منمنما

إنما أخذه من قول أبي تمام

حلّوا بها عُقدَ النسيم ونمنموا من وشيها نشراً لهـا وقصيداً

ومن قوله الذي أبدع فيهْ

ووالله لا أنفك أهدي شوارداً اليك تحمّلنَ الثناءَ المبجلا

تخال به برداً عليـك محبراً وتحسبه عقداً عليك مفصّلا

ألذّ من السلوى وأطيب نفحةً من المسك مفتوقاً وأيسراً محملا

أخف على قلبي وأثقل قيمةً واقصر في قلب الجليس وأطولا

وان قول البحتري :

هي الانجم اقتادت مع الليل انجماً

مأخوذ من قول أبي تمام مقصراً عن استيفاء احسانه حيث يقول

أصِخْ تستمع حرُ القوافي فانها كواكب الا انهن سُعُودُ

ولا يمكن الإخلاق منها فانما يلذ لباسَ البرد وهو جديد

وبعد بيان هذه المآخذ يذكر الحاتمي انه قال لمناظره « فهذه خصال صاحبك فيما عددته من محاسنه التي هتكت بها سَتْرعواره ، ونشرت مطويّ اسراره ، حتى استوضحت الجماعة ان احسانه فيها عاربة مرتجعة ووديعة منتزعة » والعناد ظاهر في هذا الكلام

ثم اخذ يسرد طائفة من ابتداءات ابي تمام وانتهاءاته ، ونماذج من

حسن تخلصه ، ولطف اقتضابه ، وبراعة وصفه للقوافي . فاستحسن ابتداءه اذ قال

لا أنت أنت ولا الديارُ ديارُ   خفَّ الهوى وتقضَّت الأوطارُ

وزعم أن لن يستطيع أحد أن يبتدىء بمثل ابتدائه حيث يقول :

طَلَل الجميع لقد عفوت حميدا   وكفى على رزئي بذاك شهيدا
دِمَنٌ كأنَّ البين أصبح طالباً   دَيناً لدى آرامها وحقودا

وحيث يقول :

ما في وقوفك ساعةً من باسِ   تقضي حقوق الأربع الأدراسِ
فلعلَّ عينك أن تجود بدمعها   والدمع منه خاذلٌ ومُوَاسي

واستملح اقتضابه حين قال

الحق أبلجُ والسيوف عوارِ   فحذارِ من أُسْدِ العرين حذارِ

واستجاد تخلصه إذ يقول

ان الذي خلق الخلائق قاتها   أقواتها لتصرف الأحراسِ
فالأرض معروف السماء قِرًى لها   وبنو الرجاء لهم بنو العباس
القوم ظل الله أسكن دينهُ   فيهم وهم جبل الملوك الراسي

وزعم أن ابا تمام هو الذي وصف القوافي بما لم يستطيع أحدٌ وصفها به فقال

جاءتك من نظم اللسان قلادةً   سمطان فيها اللؤلؤ المكنونُ
أنسيَّة وحشيَّة كثرت بها   حركات أهل الارض وهي سكون
ينبوعها خَضِلٌ وحَلْيُ قريضها   حَلْيُ الهدى ونسيجها مَوْضُون
قد حاكها صنَع الضمير يمدهُ   حَسَبٌ اذا نَضَبَ الكلام مَعِينُ
أما المعاني فهي أبكار اذا   نُصَّت ولكنَّ القوافيَ عُونُ

هذا أهم ما ورد في حديث الحاتمي وهو طويل ، ذكره برمته صاحب زهر الآداب ، والذي يعنيني منه هو ما فيه من العمد إلى النيل من البحتري والاصرار على كَبْتِ منافسه ، وظهوره عليه ، وظفره به ، وانظر كيف يقول في ختام هذا الحديث «هل يستطيع أحد أن ينسب هذا اوشيئاً منه الى السرقة والاختلاس ؟ وهل يستطيع مماثلته بشيء من شعر البحترى أو أشعار المحدَثين في عصره ومن قبله؟فعي عن الجواب قصوراً،وأحجم عن المساجلة تقصيراً ، وحكمت الجماعة لى بالقهر ، وعليه بالنصر،ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعه البديع واختراع المعاني على جميع المحدثين . وكان يوماً مشهوداً »

— ٢ —

وهذا النوع من النقد لاقيمة له ، ولكنه مع الأسف ظاهر كل الظهور في مناهج القدماء ، فقد كان بشار يقول : أنا أشعر الناس . فاذا سُئِل فى ذلك آجاب بأن له اثنى عشر الف قصيدة لا تخلو واحدة منها عن بيت نادر ومن ندر له اثنا عشر ألف بيت فهو أشعر الناس . وكانوا يختلفون في الموازنة بين جرير والفرزدق ، ثم يفضلون جريراً لانه قال

إن الذين غدَوا بلبك غادرُوا — وَشلا بعينك ما يزال مَعينا
غيضْن من عبراتهن وقلن لى — ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فاذا سألتهم كيف سما جرير بهذين البيتين حتى بذّ الفرزدق اجابوك بأن الفرزدق في فسوقه وفجوره،لم يُجِد التشبيب كما اجاده جرير في تحرُّجه وعفافه . وقد يقولون :جرير اشعر ،لأن الفرزدق ماتت امراته فلم يبكها الا برائية جرير في امراته ، وهي القصيدة التي مطلعها

لولا الحياء لهاجنى استعبارُ ولزرت قبرك والحبيب يُزار

وكانوا اذا ذكر شعراء الجاهلية قدم فريق منهم امرأ القيس لقوله

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقالوا . إنه بكى واستبكى وذكر الاحبة فى بيت واحد !!

وقدم أخرون النابغة الذبياني لقوله

نبئت ان أبا قابوس اوعدني ولا قَرَارَ على زَأْرٍ من الأَسدِ

او لقوله

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلتُ أن المنتأى عنك واسعُ

ومنهم من زعم ان اغزل بيت قاله العرب قول بشار

انا والله أشتهي سحرَ عينيـ ـك واخشى مَصارعَ العشّاقِ

وانّ أحكم بيت قاله العرب قول ابي ذُؤيب الهذلي

والنفس راغبةٌ اذا رغّبتها واذا تُردُّ الى قليل تقنعُ

— ٣ —

وكان يحدر بأدباء هذا العصر أن يضعوا خطة جديدة ،لنقد الشعر والنثر ، غير ذلك المنهج الذى يرتكز على تأمل الشطرة فى نقد الشعر ، والفقرة فى نقد النثر ، ولكنهم نسَجوا على منوال المتقدمين ، فتراهم يُعنون حين يظهر كتاب جديد بالبحث عن مسلكه فى اُستعمال الالفاظ وربما رجعوا إلى معجم اللغة ليتبينوا الفرق بين الوضع القديم ، والوضع الجديد، وقد أذكر أن الاستاذ صادق عنبر نقد كتاب البؤساء فلم يجد وجهاً لتخطئة المعرب غير اُستعمال بعض الألفاظ . فرد عليه الأستاذ علام سلامه يصحح اُستعمال تلك الألفاظ . فحافظ إبراهيم مخطيءٌ في نظر صادق عنبر

لبعده عن معجم اللغة. وهو مصيب فى نظر علام سلامه لقربهِ من المعجم !

والحق أن الاعتماد على نقد الشطرة ، والفقرة ، واللفظة ، لا يقدم ولا يؤخر فى الموازنة بين الكتاب والخطباء والشعراء ، فلا يمكن أن تصبح الخطبة ، أو الرسالة ، أو القصيدة ، جيدة : لأن الفاظها جميعاً مختارة ، ولا أن تمسى سقيمة : لأن فيها الفاظاً نابية ، وإن كان تخير اللفظ من أهم ما يُعنى به الكاتب والشاعر والخطيب. وسأعود إلى هذا البحث حين أشرح نظرية «الصور الشعرية» وحين أتكلم عن إعجاز القرآن

وارجو ان يكون القارىء اقتنع بما بينتهُ من عقم تلك الطريقة التى ترتكز على استقراء الأبيات المختارة فى الموازنة بين الشعراء . فإن كان فى ريب مما اسلفناه فليجب على هذا السؤال : ايرضيه ان اقول ان شوقى اشعر الناس لقوله

وطنى لو شُغِلتُ بالخلد عنهُ   نازعتنى اليه فى الخلد نفسي

ومطران أشعر الناس لقوله

بنات الدهر عوجى لا تهابى   خلا الوادى من الأُسد الغضابِ

وحافظ اشعر الناس لقوله

عملتم على عز الجماد وذلنا   فأغليتمو طيناً وارخصتمو دماً

انك أيها القارىء لا ترضى عن هذه الخطة المبهمة ، لانها تبيح لمثلي في تخلفه ان يزعم أنه أشعر الناس لانه يقول

بَقية من صباك الغضّ باقيةٌ   وَجذوةٌ من غرامي وَقدُها باقِ

تعال نُحيي شهيد اللهو ثانيةً   ونَصرع الهم بين الكأس والساقى

ولكن هيهات !

البحث السادس

« الحاسة الفنية »

— ١ —

هذا تعبير حديث ، يقابل « سلامة الذوق » أو « الذوق السليم » في عُرف المتقدمين. والحاسة الفنية في نظري أدقّ من سلامة الذوق. لأن فيها من معنى الفاعلية والإحاطة ما لا نجده في التعبير القديم. وهي ترجمة لكلمة *Sens* التي يُراد بها في هذا المقام أن تؤدي معنى ملكة التمييز أو قوة الإدراك ، ومع أنها أدق فهي تشمل سائر الفنون ، بخلاف كلمة « الذوق » فانها قد تكون بمعنى الشعور بالحسْن وقد تكون عبارة عن الميل الخاص

وقد بينا في البحث الأول أنه يجب أن يصل من يتصدّر للموازنة بين الشعراء الى درجة عُليا في فهم الأدب ، وأن يصبح وله في النقد حاسة فنية تصرفه عند الحكم عن كل ما يُفسده من الأهواء والاغراض ، وذكرنا أن من الناس من يطرب للشعر لا لانه شعره ، بل لانه طَرق موضوعاً يحبه ، وكشف عن معنى تميل نفسه اليهِ . وقد لا يكون ماسمعه أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية ، ثم ضربنا لذلك الامثال

والآن نعود الى « الحاسة الفنية » بشيء من التفصيل ، فنذكر كيف عوّل عليها المتقدمون من رجال البيان ، ونبيّن الوسيلة الى الظفر بهذه الموهبة العزيزة المنَال ، ثم نُميط اللثام عن حقيقة هذه الحاسة ، التي لا تظهر ظهوراً جلياً الا حين تمعن في الخفاء

— ٢ —

يرى صاحب المثل السائر « أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم، الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وان الدُّربة والإدمان أجدى على القارىء نفعاً، وأهدى بصراً وسمعاً، وأنهما يُريانه الخير عِياناً، ويجعلان عسره من القول إمكاناً، وكل جارحة منه قلباً ولساناً » ويقول لقارىء كتابه « نخذ من هذا الكتاب ما أعطاك، واستنبط بإدمانك ما أخطاك، وما مَثَلي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طَبَعَ سيفاً ووضعه في يمينك لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلباً، فان حمل النصال غير مباشرة القتال » (١)

ومعنى هذا ان كتب القواعد لا تُورث القارىء « الذوق » ولا تمنحه « الحاسة الفنية » وإنما يكسب ذلك بالدُّربة والإدمان على مطالعة الكلام البليغ، والقواعد لا تنفع من لا ذوْقَ لهُ كما لا ينفع السيف من لا قلب له

وانما يبلغ الانسان طاقتهُ ما كل ماشية بالرَّحل شِمْلَالُ (٢)

ولكن لا تحسب أن ادمان الاطلاع كاف لكسب الذوق، بل يجب أن تكون المطالعات مصحوبة بالفهم، والتذوُّق لجمال القول وسحر البيان أما اذا كان الغرض من القراءة حفظ الشواهد والامثال — كما يفعل رجال اللغة والرواية — فانه يبعد أن يظفر القارىء بالحاسة الفنية، وهذا أبو العباس المبرد كان فى علمه واطّلاعه يذكر انه كان يحتاج الى اعتذار من فَلْتة، أو التماس حاجة، فيجعل المعنى الذي قصده نصب عينيه، ثم لا

(١) ص ٣ (٢) الشملال : الناقة الخفيفة

يجد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان .. ولا سبب لذلك فيما نرى الا أن المبرد لم يُعن بدرس أسرار البلاغة ، وإنما انصرفت همته الى اللغة والرواية والنحو والتصريف: ومن هنا لم يحسن الاختيار

قال الجاحظ طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن الا غريبه ، فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن الا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالاخبار ، وتعلق بالايام والانساب ،فلم أظفر بما أردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات

ولم يبيّن الجاحظ سبب هذا ولا فسره ابن رشيق ، وقد بينت لك أن تقدم الكتاب على الرواة في فهم البلاغة انما يرجع الى كلف الكتاب وشغفهم بالوقوف على سر البيان ، لانهم يزاولون البلاغة من طريق الأداء ، لا من طريق النقل ، والفرق بين الوجهتين بعيد . ومن ثم كان الكتاب « أرق الناس في الشعر طبعاً ،وأملحهم تصنيفاً ،وأحلاهم ألفاظاً وألطفهم معاني ،وأقدرهم على التصرف،وابعدهم من التكلف »[1] وكانوا يرونهم دهاقين الكلام ، ويستملحون ما يجودون به من حين إلى حين ، كقول ابراهيم بن العباس الصولي

ابتداءٌ بالتجنّي واقتضاءٌ بالتظنّي
واشتفاءٌ بتجنيـــــكَ لاعدائك مني
بأبي قل لي لكيْ أعـ ـلم لِمْ أعرضت عنّي
قد تمنى ذاك أعدا ئي فقد نالوا التمني

(١)عبارة صاحب العمدة في اشعار الكتاب

وكقول محمد بن عبد الملك الزيات

قام بقلبي وقعد لما نَنِي عنى الجلدْ
ياصاحب القصر الذى أسهر عيني ورقدْ
وأعطشتى إلى فمٍ يمجُّ خمراً من بَرَدْ
إن قُسِم الناس فحسـ ـبي بك من كل أحد

وكقول ابن رشيق

قد أحكمت منى التجا رب كلّ شيء غير جودى
أبداً أقول لئن كسبـ ـت لأقبضَنَّ يدى شديد
حتى إذا أثريتُ عُدْ ت إلى السماحة من جديدِ
إن المقام بمثل حا لى لا يتمُّ مع القعود
لا بدَّ لى من رحلة تُدْنى من الأمل البعيـد

وكان أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي بك يقول « كما أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة ، كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح ، ولا يجول فى ميدان فسيح من المعانى، ولا يقدر الاشياء قدرَها ، إلا بالمقارنات الكثيرة ، التى تمثل فى النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكماً غير مزعزع ولا مدافَع » وما نسميه (الحاسة الفنية) كان يسميه (ملكة الأدب) وكانت السبيل عنده لتحصيل هذه الملكة هى المقابلة بين المعانى والألفاظ ، والمقارنة بين المفردات والأساليب، وتعليل كل تحسين وتقبيح بما يقنع المتأدب ، ويدنيه من الفهم الصحيح

— ٣ —

وأعود فأذكر أن الحاسة الفنية عزيزة المنال، ومع هذا يدعيها جميع

الناس ، وإنما كانت عزيزة المنال لأننا نزن بها البيان ، والبيان كالجمال كثير التعقيد . ألا ترى أنك لا تعتدُّ برأي من يحسب البياض نصف الحسن ، ويرى تمام الصباحة فى الجمع بين سواد الشعر وبياض الجبين؟ وكان ذلك لأن الجمال نوعان : معقَّد وبسيط ، وأريد بالجمال البسيط ذلك النوع من الوسامة الذى يدركه اكثر الناس ، والذى يُعرف بتناسب الاعضاء ، وهذا النوع في سهولته وبساطته يشبه الالوان الاخاذة التى يَهَش لها صِغار الأحلام من النساء والأطفال . أما الجمال المعقد — وما أروع الجمال المعقد — فهو ذلك النوع الخطر الذى لا يفهمهُ إلا أصحاب الأذواق ، وهذا النوع من الصباحة لا يرجع إلى فتنة الخدود ، وسحر العيون ، وإنما يرجع الى ماهو أخطر من ذلك ، يرجع الى دقائقَ من الحسن ، وغرائبَ من الملاحة ، لا يعرف تأويلها غير الراسخين فى علم الجمال . حدثنى بربك كم فى هذه « الأعداد » التى تراها فى طريقك ممن يتذوَّق جمال اللَّفتة ، والخطرَة ، والمِشْية ، وكم فيهم ممن يتخطى سواد العين ، ثم يحاول فهم ما فى العين من رموز والغاز ، وفى العين ما شئت وشاء السحر من اللَّبس والتعقيد !!

وكم فيهم ممن يعذر أبا الأسود إذ يقول :

أبى القلب إلا أُم عمرو وحبها   عجوزاً ومن يُحبب عجوزاً يُفنَّدِ
كبُرْد اليمانى قد تقادم عهدهُ   ورقعته ما شئت فى العين واليد

وهـذا الجمال المعقد هو الذى أسمعك صرخـة الحكم الخضرى حين قال :

فوالله ما أدرى أزيدت ملاحةً   وحسناً على النسوان أم ليس لى عقلُ

وهو الذى صدق فى وصفه أبن الأحنف إذ قال :

يزيدك وجهه حُسناً إذا ما زدتهُ نظرا

وكذلك البيان يا صاح ، فيه معقد وبسيط . أما البيان البسيط فهو ذلك النوع السهل الذى يفهمهُ سواد الناس ، كقول طرَفة بن العبد :

ستُبدى لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ

وكقول لَبيد :

ألاَ كلُّ شىءٍ ما خلا الله باطلُ وَكل نعيم لا محالة زائلُ

وكقول شوقى

وإنما الأُمم الأخلاقُ ما بقيتْ فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويكثر هذا النوع فى القرآن حين تمسُّ الحاجة إلى ترغيب الجماهير. كقوله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزُلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » وكقوله عز شأنه « وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين . فمن آمن واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسّهم العذاب بما كانوا يفسُقون » وكقوله تبارك اسمه « قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنيَ السوء ، إن أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » وهذا النوع من البيان هو المرجع فى المعاملات ، وقد تجب فيه البساطة المطلقة حين يُستخدم فى تحرير الاتفاقات والمعاهدات والعقود ، وما الى ذلك مما تحدد به العلاقات بين الامم والافراد ، وهذا النوع لا يحتاج الى الحاسة الفنية ، وانما يحتاج اليها البيان المعقّد الذي قيل فيه « ان من البيان لسحراً » والذي قيل فيه « شيئان لا نهاية لهما : البيان والجمال » وفي الناس من يفتنهُ اشراق الديباجة ، وتخلبه رشاقة الاسلوب

كما يسحره الجبين المشرق ، ويضله القد الرشيق

والتعقيد الذي أعنيه غير التعقيد المعروف في علم المعاني ، فلست أريد اللَّبس والغموض حين أتحدث عن البيان المعقّد ،كما لا أريد الوجوه الملتوية حين أتكلم عن الجمال المعقد؛ وإنما أصف البيان والحُسن بالتعقيد حين يكون للوجه الوسيم ، والاسلوب الجميـل ، قوة في التأثير يحار فى تعليلها اللبيب ، ومن هنا كان الاقدمون يظنون أن الشعر من وحْي الشياطين ، ومن أقدر من الشيطان على العبث بالعقول !

والقصة المشهورة التي جاء فيها أن أحـد أقيال اليمن قدم الى دار الندوة فبصُر فيها بالنبي عليه السلام وهو إذ ذاك غلام مُراهق ، فقال لمن حضر من القوم : ان هذا الغلام ينظر اليكم بعينيْ لَبُؤَة وتارةً بعيني عذراءَ خَفِرَة ، فلو أن نظرته الاولى كانت سهماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيماً لانشرت أمواتكم! هذه القصة فيها شيء من التعليل للجمال المعقد ، ولـكن يظهر أننا انتقلنا الى عالم النفس، ويظهر أيضاً أن الجمال لا يُعقَّد الا حين تعقد النفس، والنفس لا تعقد إلا حين تصبح كالبحر تصطخب فيه الأمواج ، أو كالميدان تشتجر فيه الرِّماح، أو كالقلب تقتتل فيه الأشجان، ومن يُدرينا لعل جمال يوسف عليه السلام كان من هذا القبيل ، فما نظن أن صواحباته قطّعن أيديهن ، وعذرن فيهِ امرأة العزيز، لأسالة خده، وسواد شعره ، وإشراق جبينه، وإنما نحسب أن تلك النفس النبوية التي تُضمِر ما تضمر من دقائق الغيوب، تلك النفس الجبارة ، السحّارة ، القهّارة ، تلك النفس المفردَة في عالم النفوس، هي التي جعلت لجمال يوسف ذلك السحر الذي تقطعت بهِ الأيدي بعد

تمزيق القلوب . وسبحان من يعلم ما كان يجول بخاطر ذلك الغلام الجميل محمد بن عبد الله وهو فى دار النَّدوة حتى حار ذلك القَيْل فى أمره ، فلم يدر أينظر بعينَيْ لَبُؤَة ، أم بعيني عذراء خَفِرَة ، وحسبنا ان نذكر أن الله كان يُعدّه لحمل الرسالة ، ويرشّحه لتبليغ تلك الدعوة التى لا يزال صداها يرن فى أجواز الوجود

وللبيان المعقّد مثل هذا النصيب من بُعْد الغور ، ودِقة المدلول ، فهو ذلك النوع المُعجِز الذي تسكن اليه القلوب ، وتحار فى تعليله العقول ، هو ذلك النوع الذي يقرؤه سواد الناس فيفهمونه ، ثم يقرؤه الخاصة فيُفتتنون به ، ويحارون فى تعليل حُسْنِهِ ، ثم لا يُحسن واصفهم إلا أن يقول : هذا هو السحر الحلال !

— ٤ —

على أنه يمكن الناقد أن يذكر بعض خواص هذا النوع من البيان : فهو تارةً يرتكز على سموّ الخيال ، كقول بعض الحكماء « من غَمَسَ يده في مال السلطان فقد مشي بقدمه على دمه » ففي هذه الكلمة من روعة التخييل ، وحسن التصوير ، ما يدهش العقول ، ويحيّر الالباب ، وكقول أرطاة بن سُهَيّة المُرّى

فلو أنما نُعطي من المال نبتغي ... به الحمد يعطى مثله زاخرُ البحرِ
لظلّت قراقيرُه صياماً بظاهر ... من الضّحل كانت قبلُ فى لُجج خُضْرِ (١)

---

(١) القراقير السفن ، والمفرد قرقور على وزن عصفور ، وصيام السفن ركودها والضحل الماء القليل لا عمق له ، واللجج الخضر هي السوداء

فقد صوّر لك البحر الذي عجزت عن حربه الليالى بصورة بَشِعة مخيفة ، يهابها الوهم ، وتتحاماها الظنون ، فهو يذكر أن البحر الزاخر ، الذي يُجنّ ما يُجنّ ، ويُظهر ما يَظهر ، والذي يروعك منظَره ، ويهولك مخبرَه ، يذكر أن ذلك البحر لو بذل مثل ما يبذل هذا الجواد في سبيل الحمد لأصبحت السفن راكدة فوق صُبابات من الماء ، وقد كانت قبلُ في لجج رهيبة السواد . وهذه الصّورة هي التي بررت مبالغة الشاعر في وصف قومه الأجواد ، وان عزّ البحر عن النظائر وجلّ عن الأشباه

ومن رائع الخيال قول أبي نواس

ألا لا أرى مثلي امترى اليومَ في رَسْمِ
تغصّ به عيني ويلفظُهُ وهمي
أتت صُوَرُ الاشياء بيني وبينه فظني كلا ظنّ وعلمي كلا علم

فانت تراه وقد وقف أمام ذلك الرسم الذي نال منه العفاء ، وغيّره الدّروس ، حتى ارتاب فيه ، وغصت به عينه ، ولفظه وهمه ، ثم أغرقك في بحر من التخيل حين قال

أتت صُوَرُ الاشياء بيني وبينهُ فظني كلا ظن وعلمي كلا علم

وعليك ان تستوعب هذا المعنى ، فقد فتحت لك الباب

وكان الرشيد يعجب بقول صريع الغواني

إذا ما عَلَتْ منا ذُؤابةَ شاربٍ تمشّتْ به مَشْيَ المقيد في الوحلِ

وكان يقول : قاتله الله ! ما كفاه أن جعله مقيداً حتى جعله في وحل !

وهذا كما ترى أبدع ما يُصور بِهِ النشوان

ولا تنس القرآن ، فانه غاية الغايات في روعة الخيال ، وانظر قوله

تعالى « أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ، من فوقه سحابٌ ، ظلماتٌ بعضها فوق بعض » ولا يدرك هذا المعنى الفخم الا من ذاق بأس الحياة ، ورأى كيف يكون هَوَجُ الريح ، وجنون الموج، وعسف الظلام ، وكم في الحياة من أهوال !

وقد يرتكز البيان المعقد على بساطة الأداء ، وهذا أحسن تأويل لكلمة « المطمع الممتنع » فقد تقرأ الكلام السهل البسيط فتحسب أنك على مثله قدير ، حتى إذا حاولت أن تأتي بشيء من مثله عزّ عليك وامتنع . واليك قول ابن الدمينة يوصي حبيبته بالقسوة على الوشاة ، وبالصلابة حين يجور اللائمون

وكوني على الواشين لَدَّاءَ شَغْبَةً كما أنا بالواشي ألدُّ شَغُوبُ
وكوني إذا مالوا عليك صليبة كما أنا ان مالوا عليَّ صليبُ

فهذا كلامٌ سهل ، يسكن اليه القلب ، وتخلد اليه النفس ،ولكنه يعز على من يرومه،ويطول على من يسمو إلى محاكاته . ومثله في بساطته ودقته قول بعض الاعراب

إذا اجتمع الجوع المبرح والهوى على الرجل المسكين كاد يموتُ

وهي فكاهة رقيقة يبسم لها ثغر الحزين . وأظرف منه قول الآخر وقد تمرّدت عليه امرأته ، وضَرِيَتَ على إيذائه

يارب إن قتلتها فَقُدْ لها فلن تموتَ أو تُجيد قتلها

فقد مثّلها بالحية النضناض،التي يقتلها المرء تقتيلا ، ثم لا تزال تبدو لعينيه وكأنها تسعى !

— ٥ —

وقد يرجع تعقيد البيان ودقته وسحره الى نفس المبين: من شاعر أو كاتب أو خطيب. فان هناك نفوساً خطرة، قد تُضلُّكَ وقد تهديك حين يكتب أصحابها وحين يتكلمون. وانظر قول موسى بن جابر وقد رأى تجمع الأعداء وتوثبهم

قلت لزيد لا تُتَرتِرْ فانهم ... يرون المنايا دون قتلك أو قتلي
فان وضعوا حرباً فضعْها وإن أبوا ... فعرضة عضّ الحرب مثلك أو مثلي
وإن رفعوا الحرب العوان التي ترى ... فشُبَّ وَقودَ الحرب بالحطب الجَزْلِ

فهذه النفس المعقَّدة فى اغراضها ومراميها هي التى وقفَتْكَ موقف الحيرة امام هذه الأبيات، فأنت ترى فتًى شجاعاً مِقداماً لم تنسه شجاعته ولا اقدامه ما يحيط به من عظائم الاخطار، فهو ينصح لرفيقه ويُوصيه بالحذر والرفق، ويدعوه الى وضع الحرب إن وضعها الاعداء، والى شبِّ وقودها بالحطب الجزل إن أبوا الا القتال، وهذا هو الجمع بين الحزم والشجاعة، وقلَّ من يجمع بينهما من أفذاذ الرجال

وانظر قول الآخر يتوجَّعُ من الوَحْدَة والغُرْبة في بلاد الأعداء

وقلت لغَلَّاق بعرنان ما ترى ... فما كاد لي عن ظهر واضحةٍ يبدي
تبسَّمَ كرهاً واستبنت الذي بهِ ... من الحزَن البادي ومن شدة الوجد
إذا المرء أعراهُ الصديق بدت لهُ ... بأرض الأعادي بعض ألوانها الرُّبد

— ٦ —

وتلك أيها القاري خواص يُرَاد بها التقريب لا التحديد، فإن المرجع إلى الحاسة الفنية، وهي قد تَدِق حتى يعجز صاحبها عن تعليل مايستجيده

من الكلام البليغ ، والآمدى يضرب المثل بالفرَسَيْن السليمين من كل عيب ، وفيهما جميع علامات العتق والجودة والنجابة ، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية ، وبالجاريتين البارعتين في الجمال ، السليمتين من كل عيب ، يفرق بينهما العالم بالرقيق حتى يحمل في الثمن بينهما فضلاً كبيراً ، بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق ، وإنما يعرفه بطبعه وكثرة دُرْبته وطول ملابسته ، وكذلك الشعر ، كما يقول الآمدى ، قد يتقارب البيتان الجيّدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناهما واحداً ، وأيهما أجود في معناه إن كان معناهما مختلفاً

وحكى إسحق الموصلى قال: سألني محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اُختر أَحدهما . فاخترت . فقال من أين فضلت هذا على هذا ، وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لامكنني التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبّرُ عنه اللسان

والطبيعة في كلام إسحق هي ما نريده من الحاسة الفنية ، وفي هذا القدر كفاية فقد طال بنا الحديث

البحث السابع

خطر الابهام والغموض

— ١ —

ومن شروط الموازنة أن يكون النقد مؤسساً على قواعدَ واضحة صريحة ، لا إبهام فيها ولا غموض، ليظفر الناقد باقتناع القارىء، وليكون نقدهُ مادة جديدة في عالم البيان

وأخطر مايعرض للنقد والمماثلة أن يعمد الموازن الى التعابير المصبوبة في قوالب المجاز ، فانها بئس الاداة في الفصل بين الشعراء ، كأن تقول « هذا شعر أبدت صدوره متونه ، وزهت في وجوهه عيونه . وانقادت كواهله لهواديه، وأشبه الروض في وشْي ألوانه وإشراق أنواره، وابتهاج أنجاده وأغواره ، وأشبه الوشي في اتفاق رُقومه ، واتساع رُسومه ، وتسطير كفوفه ، وتحبير حروفه ، وحكى العقد في التئام فصوله ،وانتظام وصوله ، وازديان ياقوته بدره ، وفريده بشَذْره ، قد كشف الإيجاز موارده ، وصقلت مداوس الدُّربة مناصله ، وشحذت مدارس الأدب فواصله » ، وهذه التعابير المجازية المبهمة مأخوذة من فصل لأبي العباس الناشيء في وصف الشعر الجميل .وهو صاحب هذه المنظومة:

الشعر ما قوَّمت زيغ صدورهِ   وشددت بالتهذيب أسْر متونهِ
ورأبت بالإطناب شَعبَ صدوعهِ   وفتحت بالايجاز غوْر عيونهِ
وجمعت بين قريبهِ وبعيدهِ   ووصلت بين مُجمِّهِ ومعينه
وعهدت منهُ لكل أمرٍ يقتضي   شبهاً بهِ فقرنته بقرينهِ

وهي منظومة طويلة عني بها المتقدمون ، كما عُنوا بمنظومته الاخرى التي يقول فيها :

إنما الشعر ما تناسب في النظـــم وإن كان في الصفات فُنونا
فأتى بعضُهُ يُشاكل بعضاً قد أقامت له الصدور المتونا
كل معنى أتاك منهُ على ما تتمنى لو لم يكن أن يكونا
فتناهى من البيان الى أن كاد حسناً يبين للناظرينا
فكأن الألفاظ فيه وجوهٌ والمعاني رُكّبْن فيهِ عيُونا

وعيب هذا الضرب من الوصف انه لا يغني في تحديد الموصوف بل يلقي عليه أستاراً من اللبس والغموض ، فانه لا قيمة لمدح الشعر بتقويم زَيغ صدوره ، وشدّ أسر مُتُونه ، والجمع بين قريبه وبعيده ، والوصل بين مجمه ومعينه ، وما الى ذلك من الصفات المبهمة التي يغرم بها المتكلفون

— ٢ —

ومن أمثلة هذا النوع ما ذكره بديع الزمان في مقاماته إذ قال « جلسنا يوما نتذاكر الشعرَ والشعراء ، وتلقانا شابٌّ قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم ، حتى اذا مال الكلام بنا ميله ، وجر الجدل فينا ذيله ، قال أصبتم عذيقه ، ووافيتم جذيله ، ولو شئت للفظت ، ولو أردت لسرَدْت ، ولجلوت الحقّ في معرض بيان يسمع الصم ، وينزل العُصم ، فقلت يا فاضل ادن فقد منّيت ، وهات فقد أثنيت ، فدنا وقال : سلوني أجبكم ، واستمعوا أعجبكم ، قلنا فما تقول في امرىء القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها ، واغتدى

والطير في وكناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يجد القول راغباً ، ففضل من تفتق للحيلة لسانه ، وانتجع للرغبة بنانه . قلنا وما تقول في النابغة ؟ قال ينسب اذا عشق ، ويثلب اذا حنق ويمدح اذا رغب ، ويعتذر إذا رهب ، فلا يرمي الا صائباً . قلنا فما تقول في طرفة ؟ قال هو ماء الاشعار وطينتها ، وكنز القوافي ومدينتها ،مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تطلق عتاق خزائنه . قلنا فما تقول في جرير والفرزدق؟ قال:جرير أرق شعراً وأغزر غدراً،والفرزدق أمتن صخراً ، وأكثر فخراً ، وجرير أوجع هجواً ، وأشرف يوماً ، والفرزدق أكثر رَوْماً وأكرم قوماً،وجرير إذا نسب أشجى،واذا ثلب أردى،وإذا مدح أسنى،والفرزدق إذا وصف أوفى،واذا احتقر ازرى.قلنا فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟ قال:المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر فى المعانى حظاً ، والمتأخرون ألطف صنعاً ، وأرق نسجاً ؛

ولو عدنا لهذه الموازنة لوجدناها جملة من الصفات الفضفاضة التى تصلح لبوساً لكل موصوف ، فكل شاعر فيما أظن «ينسب إذا عشق، ويثلب إذا حنق ، ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب » ومن اللبس أن تقول فى وصف شاعر « هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافي ومدينتها » أو أن تقول « إنه أمتن صخراً وأكثر روما» ومن المجازفة أن تقول « المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر فى المعاني حظاً » وقد ظَرُف من لاحظ أن الاغتداء والطير في وكناتها من خواص اللصوص وهذا بالطبع لا يقدح في سمو تلك العبارة إلا حين ترسل بلا تقييد ، وقد قيدها امرؤ القيس حين قال :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجردٍ قَيد الأوابد هيكلِ

على أن هذا البيت لايدل على أن صاحبه « أول من اغتدى والطير في وكناتها » كما قال بديع الزمان

— ٣ —

وقال ابن دُريد : سألت أباحاتم عن أبي نواس فقال : إن جدّ أحسن ، وإن هزل ظُرف ، وإن وصف بالغ ، يلقى الكلام على عواهنه لا يبالي من أين أخذه . قلت فبشار بن برد ؟ قال: نظار غوّاص، مطيل مجيد ، يصف ما لم يره كأنه رآه ، على أن في شعره خللاً كبيراً . قلت فمروان ابن أبي حفصة؟ قال: شاعر راض عن نفسه ، يستحسن كل ماجاء منه ، مُعْجب لا يرى ان أحداً يتقدّمه ، كثير الصواب ، كثير الخطأ ، ليس لشعره صنعة. قلت فمسلم ابن الوليد؟ قال : خَليجٌ صافٍ ينزع من بحر كدر ، كالزند يُورى تارة ويصلد أخرى . قلت فابو العتاهية ؟ قال غثاء جم ، واقتدار سهل ، وشعر كخرز الزجاج ، وربما أشبه الياقوت والزبرجد . قلت فعباس ابن الأحنف؟قال : يُلقي دلوه في الدلاء فيغترف الصفو أحياناً والحمأة أحياناً ، على أن كدره أكثر من صفوه . قلت فسَلْم الخاسر؟قال : مقُل مدّاح ، شعره ديباج وعِهن، يموّه الردىء حتى يُشْبه الجيد . قلت فأبو الشيص ؟ قال :جِدُّه كله فيه حلاوةٌ وبشاعة، كالسّدرة التي نفضت فيها المستعذَب والمستبشع . قلت فعلي بن جَبلة ؟ قال : محّاث عن الكلام الفَخْم ، والمعنى الرائع ، لا ينال مرتبة القدماء ، ويجلّ عن منزلة النظراء . قلت فأبو تمام ؟ قال . مسيلٌ كثير الغثاء ، غزير النهار ، جمّ النطاف . فاذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال . قلت فعبد

الصمد ابن المعذّل ؟ قال : خرّاج ولاّج . يعتسف تارةً ويهتدى أخرى. قلت فعليّ بن الجهم ؟ قال : كلامٌ رصين ،ومسلك وَعْر ، عقله أغلب على شعره من طبعه . قلت فبكر بن النطّاح ؟ قال : تشبّه بالاعراب فأفرط، وتجاوز حد المولّدين فأسهب ، فهو الساقط بين القريتين »

ولا ننكر ان في هذا الضرب من القول بياناً لبعض خصائص الشعراء ، ولكنا نستنكر ان تحدد شاعرية شاعر بأنه « خراج ولاّج ، يعتسف تارةَ ويهتدي أخرى» أو بأنه « خليج صاف ينزع من بحر كدر» أو بأنه « لا ينال مرتبة القدماء ، ويجل عن منزلة النظراء »

ومما يؤسف له ان الميل الى الإبهام كان يغلب على المتقدمين ، ولم يسلم منه الجاحظ على بَصَرِه بالبيان والتبيين ، فقد كان يصف شعر أبي العتاهية بأنهُ « أملس المتون ، ليس له عيون » وهي عبارة مجازية لا تؤدى الى معنى محدود

— ٤ —

ويُضاف الى هذا إغفالهم ضرب الأمثال ، وإطلاقهم الحكم بلا بينة ولا دليل ، في حين أن الموازنة لا يُراد بها غير التمييز والفصل بين ما قال الشعراء فى مختلف الاغراض

وقد سرت هذه العدوى الى شعراء العصر وكُتَّابه ،فنجد مصطفى الرافعى يقول فى وصف الشعر «لو كان طيراً يتغرّد لكان الطبع لسانه، والرأس عشه ، والقلب روضته ، ولكان غناؤه ما نسمعه من أفواه المجيدين من الشعراء » ونجد محمد السباعى يصف شكسبير بأنه « منحة

الطبيعة وجائزة الدهر » ونجد حافظ ابراهيم يصف شعر فيكتور هيجو فتكون غايتهُ أن يقول :

ما ثغور الزّهر في أكمامها ضاحكات من بكاء السُّحُبِ
نظم الوسميُّ فيها لؤلؤاً كثنايا الغيد أو كالحَبَبِ
عند من يقضي بأبهى منظراً من معانيه التي تلعب بي
بَسَمَتْ للذهن فاستهوت نُهى مُغرَم بالفضل وصبٍّ الأدب

ولا يزال الادباء يذكرون قول المنفلوطي في الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش « لولا مقامه في اللواء ، ومذهبه في الهجاء ، لكان هو وفريد وجدي سواء » وقوله في المرحوم قاسم أمين « ما رأيت باطلاً أشبه بالحق من باطله » — وتلك كلها عبارات مبهمة لا تقنع طلاب البيان

— ٥ —

إنما يجب على الناقد الذي استوفى ما أسلفناه من الصفات :

١ — أن يذكر حياة من يُوَازِن بينهم من الشعراء ، وان يُعين ما في حياة كل شاعر من ألوان الشِّدة ، أو صنوف الرخاء

٢ — وأن يُبين الحالة الصحية لكل شاعر ليعرف ما قد يعرض لمزاجه من الاعتلال

٣ — وان يقدر السن التي قيل فيها ما يُريد وَزْنَه ونقْدَه

٤ — وان يُحدِّد الصفات التي اشترك فيها من يُوازن بينهم ، والصفات التي انفرد بها كل واحد منهم ، ثم يتغلغل في تحليل المعاني والألفاظ والأساليب ، ويوازن بين القصائد والمقطوعات والابيات اليتيمة

٥ — وأن يدقِّق النظر في تميز المعاني المبتدعة من المعاني المسبوقة ،

ويبين كيف تناول الشاعر المعنى الذى سبق اليه ، وكيف هذّبه ، وكيف بَسَطهُ ، حين يَجُودُ أخذُه وتلْطُف سرقته ، وكم في الشعراء من سارق لطيف !

٦ — وان يعدّ ما برّز فيه الشاعر من المطالع والمقاطع ، وما أجاد أخذه ، وما ابتكرهُ ، وما انفرد بهِ ، فقد يبتكر الشاعر المعنى ثم يُغلب عليه حين يقصر فى تأديتهِ ، وقد يبتكر المعنى ثم ينفرد بهِ حين يبلغ الغاية في الأداء

٧ — وان يبين الفرق بين الشاعرين حين يشتركان فى الإبانة عن غرض واحد ، وحين يختلفان فى ذلك

٨ — وأن يبين اسباب السَّبق ، وأسباب التخلّف ، مع التعمق فى استقراء ما لكل شاعر من خطرات النفس ، ولفتات القلب ، ونوازع الوجدان

٩ — وأن يعدّ ما لكل شاعر من المعاني الموضعيّة ، التى اقتضاها زمانه ومكانه ، والمعانى الانسانية ، التى تصلح لجميع الناس ، على تباين الأمكنة واختلاف العصور

١٠ — وأن يذكر بعد ذلك كله ما لكل واحد من « الصور الشعرية » — وسنعود الى هذا المعنى الأخير بالبسط والبيان

البحث الثامن

الصور الشعرية

— ١ —

هذا فن جديد في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء ، ألقيت عنه محاضرة في الجامعة المصرية في سنة ١٩٢١ ، ثم اخترته للمناقشة العلنية في امتحان الدكتوراه ،فساعدني ذلك على تحديده ، وضبط المراد منه ، وكشف ما يعتوره من الغموض . والى القارىء البيان

الصورة الشعرية هي أثر الشاعر المُفلِق الذي يصف « المرئيات » وصفاً يجعل قارىء شعره ما يدري أيقرأ قصيدة مسطورة ، أم يشاهد منظراً من مناظر الوجود ، والذي يصف « الوجدانيات » وصفاً يخيل للقارىء أنه يُناجي نفسه ، ويحاور ضميره ، لا أنه يقرأ قطعة مختارة لشاعر مجيد

والصورة الشعرية لا تكمل الا حين يحيط الوصف بجميع أنحاء الموصوف ، فليس منها قول أبي نواس فى وصف الراح

صهباء تبني حَبَاباً كلما مُزِجت ... كأنه لؤلؤ يتلوه عِقيانُ
كانت على عهد نوح في سفينتهِ ... من حُر شُحنتها والارض طوفانُ
فلم تزل تعجم الدنيا وتعجمها ... حتى تخيرها للخبء دهقانُ
فصانها في مغار الارض فاختلفت ... على الدفينة أزمانٌ وأزمانُ
ببلدة لم تصل كلبٌ بها طُنُباً ... ولا خِباءٌ ولا عبسٌ وذُبيانُ

ليست لذُهل ولا شيبانها وطناً ‌ ‌ لكنها لبنى الاحرار أوطان
أرض تبنّى بها كسرى دساكرهُ ‌ ‌ فما بها من بني الاعراب انسان
وما بها من هشيم العُرب عَرْفجة ‌ ‌ ولا بها من غذاء العُرب، خُطبانُ
لكن بها جلّنار قد تفرّعهُ ‌ ‌ آس وكلّله وردٌ وسُوسانُ.

ولو عُرضت هذه القصيدة على رجل من أدباء العصر، أو لو أنها عُرضت على رجل من الأدباء في الأعصر الخالية، لوُصفت على الاقل بأنها رشيقة الاسلوب، متينة التركيب، ولكننا سنبين أنها قصيدة جوفاء، لا حظّ لها من الروعة ولا نصيب لها من الجمال

أراد ابو نواس أن يصف الخمر. ولكن هل وضع صورة شعرية تنتظم ما للخمر من اللون والعبير، وما لها من العبث بالعقول، واللعب بالنفوس؟ كلا! لم يصنع شيئاً من ذلك، ولكنه ذكر فقط أنها كلما مزجت تبني حباباً كأنهُ لؤلؤ يتلوه عقيان، ثم اندفع يذكر أنها عتيقة وأن عهدها بالوجود قديم، وقد جره ذلك الى الإغراب في الكذب فذكر أنها كانت خير ما شحن في سفينة نوح، وأنها ما زالت تغالب الدهر، وتصانع الحدثان، حتى ظفر بها دهقان ماكر دفنها في مغار الارض، وأخفاها عن عيني الزمان. ولم يكفه ذلك، بل ذكر أن الارض التي دفنت فيها هذه الخمر أرض كسروية، لم ينصب فيها خباء لعبس ولا ذبيان، ولم ينبت بها عرفج ولا خطبان، بل زينها الجلنار، والورد، والآس، والسوسان

إذاً أخطأ أبو نواس، حين غلا في الإشادة بعتق الصهباء، لان عشاقها لا يشعرون بالحاجة الى إقامة البينة على أنها من عهد الطوفان،

مهما أحبوا أن تكون قديمة العهد بالوجود ، فقد يكفيهم أن توصف بالقِدمِ ، وأن تكون لقدمها كما قال ابن الرومي

لطُفَت فقد كادت تصير مُشاعة　　في الجو مثل شعاعها ونسيمها

أو كما قال ابن المعتز

جرت حركات الدهر فوق سكونها　　فذابت كذوب التبر أخلصهُ السبكُ
فقد خَفِيتْ من صفوها فكأنّها　　بقايا يقين كاد يدركه الشكُ

ويكاد القارىء لقصيدة أبي نواس يتوهم أنه يقرأ شيئاً غير وصف الخمر ، ويكاد يحسب انه يقرأ موازنة بين ما تنبت البلاد العربية وما تنبت البلاد الفارسية ؛ إذ يرى الشاعر يشيد بما بنى كسرى من دساكر ، وما بأرض الفرس من ورد وآس ، ويسخر مما للعرب من طنب وخباء وما بأرضهم من عرفج وخطبان

ولو لم يضل في بيداء هذا الفضول لكان للغلو فى وصف الخمر بالقدم شيء من الروعة ، أو كان على الاقل مما تسيغه النفوس ، فما نظن أحداً يستنكر قول البحتري فى وصف الشمُول

بِكرٌ تقدّمت الزمان بغرسها　　إن كان قبل الدهر شيءٌ يغرسُ

ولنفرض أن أبا نواس أجاد في وصف الخمر بالقدم ، وأنهُ في ذلك غير مسبوق ، أفيكفي أن يوصف الشيء من ناحية واحدة مهما كان وصفها سابغاً ليصبح الموصوف وهو ممثّلٌ من جميع الجوانب ؟ إن هذا لبعيد !

ولا ننكر أن الصفة الغالبة لشيء من الأشياء قد تصرف الشاعر عما عداها من الصفات ، وليس قدم الخمر من ذلك في كثير ولا قليل ، فقد

تكون الراح جبارة قهارة ، وهي في مَيْعَةِ الصبا وعنفوان الشباب، وغيري عنده الخبر اليقين

— ٢ —

ولننظر قول أبي نواس من كلمة ثانية

دع عنك لومي فان اللوم إغراءُ — وداوني بالتي كانت هي الداءُ
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها — لو مسها حجرٌ مسته سراء
قامت بإبريقها والليل معتكرٌ — فلاح من وجهها في البيت لألاءُ
فأرسلت من فم الإبريق صافيةً — كأنما أخذُها بالعين إغفاءُ
جفت عن الماء حتى ما يُلاَئمها — لطافةً وجفا عن شكلها الماءُ
فلو مَزَجت بها نوراً لمازجها — حتى تولّد أنوارٌ وأضواءُ

وهذه صورة شعرية للراح: ألمّ فيها الشاعر بصفاتها المختلفة أو بأشهر ما لها من الصفات، وقد ابتدأ ذلك بنبذ ملامة اللائمين، بل جعل اللوم نوعاً من الإغراء، واستصرخ الساقي ليسعفه بالتي كانت الدواء، لما أورثت من داء، ثم اندفع يذكر أنها صفراء اللون، وأن الحزن لا يحل لها ساحة، وأن الحجر لو مسها مسته السراء، وأنها حين قامت بابريقها هتكت الظلماء، بما لوجهها من لألاء، وأنها حين أُرسلت صافيةً من فم الإبريق أخذت تلعب بالعيون كأنها الإغفاء، وأنها لطفت حتى ما تلائم الماء، ولا يشاكلها الماء، فلا سبيل إلى أن تشعشع بالعذب الفرات، فإن عجز المصطبح أو المغتبق عن شربها صِرفة فليمزجها بالنور، فانه لها مزاج، وهي له لباس، ومنهما تتولد الأنوار والأضواء

— ٣ —

وقد يُلاحظ أن هذا الوصف بعيد عن متناوَل العقول، ونجيب بأنه لا جمال للشعر الا اذا أُضيف الى الحقيقة شيء من الخيال ، وقد يكون هذا الخيال حقيقة ثانية لافرق بينها وبين الاولى الاان احداهما في الواصف واخراهما في الموصوف، ولان الشاعر لا يصف شيئاً إلا متأثراً بحسنه أو قبحه فهو حين يذكر الشيء الدميم يذكر بجانبه نفرته من الدمامة، وحين يصف الشيء الجميل يصف بجانبه غرامه بالجمال. وربما خضع الشاعر لعاطفته ، فانتقل من وصف الى وصف، كأنْ يترك الحديث عن الراح وينحدر الى وصف الساقي مثلا . وهنا لا مندوحة من أن ينتقل الناقد مع الشاعر ليعرف أقصَّرَ في وصف ما انتقل اليه أم اجاد ، وتكون الصورة الشعرية للموصوف الثاني ، مثال ذلك قول ابن عُنين :

ومدامة لم يبق طول ثوائها ... في خدرها الاوميض شعاع
من كف مصقول العوارض آنسٍ ... يرنو بمقلة جُؤذر مرتاع
وقفت عوارض صدغهِ في خدهِ ... حيرَى وباتت في القلوب سواعي
راضتْ خلائقهُ العُقار وبدَّلت ... نزق الصِّبا بموقَّر مطواع

وعلماء الأدب يذكرون هذه القطعة في وصف الخمر ، وليست من ذلك في شيء ، إنما هي تشبيب ، ومثلها قول البحتري وقد صرعت نديمهُ الصهباء

ونديم حلوِ الشمائل كالديـ ... ـنار محض النِّجار عذبِ المصفَّى
بتُّ أسقيه صفوة الراح حتى ... وضع الكأس مائلاً يتكفَّا

قلت عبدَ العزيز تفديك نفسي ! قال لبيك ! قلت لبيك ألفا !
ها كها ! قال هاتها ! قلت خذها قال : لا أستطيعها ، ثم أَغفى

وهذا النوع من الحوار يسمى عند علماء البديع بالمراجعة ، وليس جمال هذه الأبيات في ترديد القول كما يظنون ، ولكن جمالها في هذه الصورة الشعرية البديعة التي تمثّل لك رقّ النديم ، وجناية الكأس عليه، واستسلامه للإغفاء بعد هذا الحِوار الرقيق

— ٤ —

وفضل الصورة الشعرية هو تمكين المعنى في نفس القارىء والسامع، ألا ترى أن قول بعض الاندلسيين

أخاف عليك من عيْنَيْ رقيبي ومن عيني وعينك والزمان
ولو أني وضعتك في عيوني الى يوم القيامة ما كفاني

أقل تأثيراً في النفس من قول ابن الرومي

أُعانقهُ والنفس بعدُ مشوقةٌ اليه وهل بعد العناق تدانِ
وألثم فاهُ كي تزول حرارتي فيشتدّ ما ألقى من الهيمان
ولم يكُ مقدار الذي بي من الجوى ليرويَهُ ما تلثم الشفتان
كأن فؤادي ليس يروى غليلهُ سوى أن يرى الروحين يمتزجان

لان ابن الرومي وضع لكلَفِه صورة شعرية تامة الاجزاء ، وتنقّل بالقارىء والسامع من حال الى حال ، وذكر أموراً فطرية يشعر بمثلها كل متيّم مشغوف ، ثم عال شرهه في صبوتهِ بخَطَرِ لوعته وفرط جواه .
وتحليلُ المعنى وتعليله من أقرب الوسائل الى تمكينه في النفوس ، وفي تحليل المعاني وتعليلها تتفاوت أقدار الكتاب والخطباء والشعراء

البحث التاسع

اهمية الصور الشعرية

عرف القارىء شيئاً عما أريده من الصوَر الشعرية ، ولكنه شيء يسير لا يغني في إماطة اللثام عن هذا الفن الجديد ، وسأعود بعد قليل الى تحقيق الفرق بين الصورة الشعرية والتمثيل المعروف في علم البيان ، فقد ظن بعضهم أن الصورة الشعرية هي الاستعارة التمثيلية وهو خطأ مبين

والآن أرجع الى توضيح ما ذكرته في الكلمة الماضية من أن فضل الصورة الشعرية إنما هو تمكين المعنى في النفس ، لأن غاية الكلام البليغ من نثر أو شعر إنما هي التأثير، والصورة الشعرية لما فيها من تحليل المعنى وتعليله كافية في تحقيق غاية البيان ، ولنضرب لذلك الامثال

— ١ —

من الحِكم المأثورة قول أَبي الدَّرداء « مَن لك بأخيك كله » يريد أن الصديق لن يكون من كل نواحيه مِلكاً لاخيه . هذا هو أَصل المعنى ، وتلك هي صورته الأصلية . فلننظر كيف بَسَطه بَشّار بن بُرْد حين قال :

اذا كنتَ في كل الامور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تُعاتِبُه

فعِشْ واحداً أو صِلْ أخاك فانهُ ... مُقارِفُ ذنبٍ مرةً ومُجانِبُه

إذا أنت لم تشرب مِراراً على القذى ... ظمِئْتَ وأي الناس تصفو مشاربه

فاذا وازنت بين هذه الابيات وكلمة أبي الدرداء رأيت ان كلمة «من لك بأخيك كله» كلمةٌ مُبْهَمَةٌ لا تقر في النفس إلا بعد التأمل والترديد، ورأيت صاحب هذه الأبيات الثلاثة يخاطب عقلك ووجدانك، إذ يذكر أنك ان عاتبت صديقك في كل الامور فلن تلق الصديق الذي لا تعاتبه، لانهُ يندر أن يخلو صديق من العيوب، وانك مضطر الى إحدى اثنتين: إما أن ترضى الوحدة، وإما أن تصل أخاك، فقد يقارف الذنب مرة ويجانبه مرة أخرى، وإذا لم تشرب «مراراً» على القذى ظمئت، وأي الناس تصفو مشاربه في هذا الوجود!؟

فانت ترى أن كلمة بشار أوقع في النفس، وأملأ للقلب، من كلمة أبي الدرداء، واليك كلمة الشريف الرضي في نفس المعنى:

وكم صاحبٍ كالرمح زاغتْ كعوبهُ … أبى بعد طول الغمزِ أن يتقوّما
تقبلت منه ظاهراً متبلّجاً … وأدمج دوني باطناً متجهّما
فأبدى كروض الحزن رقّتْ فروعهُ … وأضمر كالليل الخُداريّ مُظلما
ولو أنني كشّفته عن ضميره … أقمتُ على ما بيننا اليوم مأتما
فلا باسطاً بالسوء إن ساءني يداً … ولا فاغراً بالذم إن رابني فما
كعضو رمت فيه الليالي بقادح … ومن حمل العضو الأليم تألّما
إذا أمر الطبُّ اللبيب بقطعهِ … أقول عسى ضناً بهِ ولعلما
صبرت على إيلامهِ خوف نقصهِ … ومن لام من لا يرعوي كان ألوما
هي الكف مضٌّ تركها بعد دائها … وإن قطعت شانت ذراعاً ومعصما
أراك على قلبي وان كنت عاصياً … أعزَّ من القلب المطيع وأكرما
حملتكَ حملَ العين لجَّ بها القذى … فلا تنجلي يوماً ولا تبلغ العمى

دع المرء مطوياً على ما ذممته ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته على مضض لم تُبق لحماً ولا دما
ومن لم يوطّنْ للصغير من الأذى تعرّض أن يلقى أجلَّ وأعظما

فهذه صورة شعرية يندر أن تجد مثلها في هذا المعنى لغير الشريف الرضي، وانظر كيف حدثك عن صديقهِ الذي صبر عليه، وكيف شبّههُ بالرمح الذى زاغت كعوبه، وأبى بعد طول الغمز أن يتقوم، وكيف تقبّل من ذلك الصديق ظاهره المتباج، وتغافل عن باطنه المتجهّم، وكيف مثّل ما أبداه بروض الحزن رقت فروعه، وما أضمره بظلمة الليل، وانظر كيف راعك حين ذكر أنه لو كشّف صديقه عن ضميره لأقام على ما بينهما مأتماً أيّ مأتم، ومع ذلك لا يبسط يده بالسوء إن ساءه، ولا يفتح فاه بالذم ان رابه، ثم انظر كيفَ صوّر هذا الصديق الذي كثر دغله وساءتْ طويته بصورة العضو الذي رمته الليالي بقادح، والذي يؤلم حمله ولكنه مع هذا مرجوُّ البرء مأمول الشفاء، ومن ذا الذي يجهل أن داء الكف مضٌّ بغيض، ولكن من ذا الذي يرضى أن يشين بقطعها المعصم والذراع؟

ولم يقف الشريف الرضي عند ذلك، بل مثل صديقه بالعين لج بها القذى، وهو أفضل من العمى على كل حال، ثم أرسل هذه الحكمة الرائعة

دَعِ المرء مطوياً على ما ذممتهُ ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته على مضض لم تبق لحماً ولا دما

وهل ينكر أحد بعد هذا التفصيل أن كلمة بشار أولا، وكلمة الشريف الرضي ثانياً، أدعى لتمكين المعنى في النفس من كلمة أبي الدرداء، لما فيهما من تحليل المعنى وتعليله، وذلك داعية التأثير، وهو ثمرة الكلام البليغ

— ٢ —

رثى مُوَيلك المزموم امرأته أم العلاء فقال :

امررْ على الجدث الذى حلّتْ بهِ　　أمُّ العلاء فنادِها لو تسمعُ
أنى حللتِ وكنت جد فروقةٍ　　بلداً يمر به الشجاعُ فيفزعُ
صلى عليكِ الله من مفقودة　　إذ لا يلائمك المكان البلقع
فلقد تركت صغيرة مرحومة　　لم تدر ما جزع عليك فتجزع
فقدت شمائل من لزامك حُلوَةً　　فتبيت تسهر أهلها وتفجع
واذا سمعت أنينها في ليلها　　طفقت عليك شئون عيني تدمع

وهذه قطعة مختارة في بكاء المرأة تخلي طفلها وتروح الى عالم الفناء ، وهي بعد التحليل ترجع الى فكرتين : الأولى التعجب من قرار هذه المرأة الهيوب في ذلك المكان البلقع ، والثانية الأسف على ما لقيت طفلتها من فقد شمائلها الحلوة ، وقد سرد الشاعر هاتين الفكرتين بشيء من الجفاف ، وكان في مقدوره أن يزيد الفكرة الاولى شيئاً من الوضوح ، وأن يعمد في الفكرة الثانية الى أن يشرك معه القارىء في حزنه وبثهِ لأن الغرض من الشعر انما هو التأثير

والى القارىء ما يقوله في هذا المعنى محمد بن عبد الملك الزيات

ألا مَن رأى الطفل المفارق أُمهُ　　بُعَيد الكرى عيناه تبتدرانِ
رأى كل أم وابنها غير أمه　　يبيتان تحت الليل ينتجيانِ
وبات وحيداً في الفراش تحثهُ　　بلابلُ قلبٍ دائم الخفقانِ
ألا إن سَجلا واحداً قد أرقتهُ　　من الدمع أو سَجْلين قد شفيانِي
فلا تلحياني ان بكيت فانما　　أداوى بهذا الدمع ما تريانِ

وان مكاناً في الثرى خُطّ لحدُهُ ... لمن كان في قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى ... فهل أنتما ان عجتُ منتظران
فهبني عزمت الصبر عنها لانني ... جليدٌ فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القُوى لا يعرف الاجر حسبةً
ولا يأتسي بالناس في الحدثان

***

ألا من أمنّيهِ المنى فأعدُّهُ ... لعثرة أيامي وصرف زماني
ألا من اذا ما جئت اكرم مجلسي ... وان غبت عنه حاطني ورعاني
فلم أر كالأقدار كيف يُصِبْنني ... ولا مثل هذا الدهر كيف رماني

فإذا وازنّا بين هذه القطعة وبين تلك وجدنا في الاخيرة صورة شعرية بديعة ، تمثل الطفل المفجّع في امه ، والرجل المفجع في زوجه ، وانظر كيف صور الطفل اليتيم بقوله

رأى كل أمّ وابنها غير أمهِ ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تجنّهُ ... بلابل قلب دائم الخفقان

وانظر كيف علل جزع الطفل بضعف قواه ، وجهله بالاجر والتأسّي وتأمل كيف فهم قدر الحليلة ، وكيف تغلغل في وصف ما للحلائل من الرفق ، وما للرجل من الأنس بزوجه حين يطارحها الاحاديث بالليل ، وكيف اعتمد عليها فأعدها لعثرة أيامهِ وصرف زمانهِ ، وكم في الايام من عثرات ، وكم في الدهر من صروف !

وأي كلام أبلغ في وصف الحليلة الرفيقة ، الأمينة ، من قوله في تلك القصيدة الغالية

ألاَ مَنْ إذا ماجئت أكرم مجلسي ... وان غبت عنه حاطني ورعاني

وأحب لو أعاد القارىء النظر فى هذين البيتين

وإن مكاناً في الثرى خُط لحدهُ ... لمن كان فى قلبي بكل مكان

أحق مكان بالزيارة والهوى ... فهل أنتما إنْ عُجت منتظران

فإنهما غاية في تمثيل الحنوّ على القبر المأهول برفات الحبيب، وسقى الله كل بقعة من هذا القبيل!

— ٣ —

أراد الطغرائي أن يستعطف أحبابه وان يذكرهم بان فى صروف الدهر ما يغني عن القطيعة، وذلك قوله

ويا رفقة مرّتْ بجرعاء مالكٍ ... تؤمُّ الحمى أنضاؤها والمطاليا

نشدتكمو بالله إلا نشدتمو ... به شُعبة أضللتها من فؤاديا

وقلتم لحيّ نازلين بقربهِ ... أقاموا بها واستبدلوا بجواريا

رويدكمو لا تسبقوا بقطيعتى ... صروف الليالي ان فى الدهر كافيا

وأصل هذا المعنى لإياس بن القائف إذ يقول

فأكرم أخاك الدهر ما عشتما معاً ... كفى بالممات فرقة وتنائيا

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها ... فقدت صديقي والبلاد كما هيا

ولننظر كيف تناول سعيد بن حُميد هذا المعنى حين قال

أقلل عتابك فالبقاء قليلُ ... والدهر يَعدل تارة ويَميلُ

لم أبكِ من زمن ذممت صروفهُ ... إلاّ بكيت عليه حين يزولُ

ولكلّ نائبة ألمّت مدةٌ ... ولكلّ حال أقبلت تحويلُ

والمنتمون الى الإخاء جماعةٌ ... إن حُصّلوا أفناهم التحصيلُ

ولعل أحـداث المنية والردى يوماً ستصدع بيننا وتحول
فلئن سبقتُ لتبكين بحسرةٍ وليكثرنّ عليَّ منك عويلُ
ولتفجعنّ بمخلص لك وامق حبلُ الوفاء بحبله موصولُ
ولئن سبقتَ ولا سبقتَ ليمضينْ مَنْ لا يشاكلهُ لدىَّ خليل
وليذهبنّ بهاء كل مروءة وليفقدنّ جمالها المأهولُ
وأراك تكلف بالعتاب وودنا صافٍ عليه من الوفاء دليلُ
ودٌّ بدا لذوى الاخاء جمالهُ وبدت عليه بهجة وقبولُ
ولعل أيام الحياة قصيرةٌ فعلامَ يكثر عتبنا ويطولُ

وهذا غاية فى تحليل المعنى وتعليله ، فإنا نراه ابتدأ بشكوى الزمان، ونصح صديقه بانتهاب الفرص السوانح ، ثم أخذ يقنع صديقه بأن الحر فى الدنيا قليل، وبأن من الحزم ان لا يتجنى المرء على صديق لا ذنبَ له ، فقد تصدع بينهما أحداث المنية ، أو عاديات الليالي

وقد بلغ غاية الرفق حين شرع يذكر لصديقه أنه ان سبقه الى الموت فسيكثر عويله عليه، وستعظم فجيعته فيه. وهذا اعترافٌ منهُ لصديقه بالوفاء، وهذا الاعتراف نفسه نوع من التألف والاستعطاف، وانظر كيف دقّ ولطف فى قوله

ولئن سبقتَ ـ ولا سبقتَ ـ ليمضينْ من لا يشاكله لدىَّ خليل

ولعل الجملة الاعتراضيه لم تقع موقعاً أدق من هذا ولا أظرف، وهذه القصيدة من الصور الشعرية البديعة، وهى بلا شك أوفى من ابيات ابن القائف، وابرع من ابيات الطغرائي، وهي فوق ذلك نص فيما قصد الشاعر اليه : من ردّ صديقه الى شرعة الألفة ، وصرفه عن موارد الصدود

— ٤ —

اراد العباس بن مرداس السلمي أن ينصف أعداءه ، وهو يفخر بقومهِ ، ويذكر صبرهم على الجلاد ، وصدقهم في اللقاء، فقال :

ولم ار مثل الحي حياً مصبَّحاً ... ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكرَّ وأحمى للحقيقة منهمو ... وأضرَبَ منابالسيوف القوانِسا
إِذا ما شددنا شدةً نصبوا لنا ... صدورالمذاكي والرِّماحالداعسا
إِذاالخيل جالت عن صريع نكرّها ... عليهم فما يرجعن إلا عوابسا

ولهذه الأبيات قيمة أي قيمة . ولكن أتراها تبلغ في تقرير المعنى وتمكينه في النفس ما يبلغه قول عبد الشارق بن عبد العزّى الجهني

ألا حُيِّيت عنا يا رُدَيْنا ... نحيّيها وان كَرُمتْ علينا
رُدَيْنة لو رأَيت غداة جئنا ... على أضماتنا وقد اُختوينا
فأرسلنا أبا عمرو ربيئاً ... فقال ألا اُنعموا بالقوم عينا
ودسّوا فارساً منهم عشاءً ... فلم نغدر بفارسهم لدينا
فجاءوا عارضاً بَرِداً وجئنا ... كمثل السيل نركب وازعَينَا
تنادوا يَاَلبهثة إِذ رأونا ... فقلنا أحسني ضرباً جُهينا
سمعنا دعوةً عن ظهر غيبٍ ... فجلنا جَولةً ثم ارعوينا
فلما أن تواقفنا قليلاً ... أنخنَا للكلاكل فارتمينا
فلما لم ندع قوساً وسهماً ... مشينا نحوهم ومَشوا إِلينا
تلألؤ مُزنة برقت لاخرى ... إِذا جَحَلوا بأسياف رَدَينا
شددنا شدةً فقتلت منهم ... ثلاثةً فتيةً وقتلت قَينا
وشدّوا شدةً أخرى فجرُّوا ... بأرْجل مثلهم ورموا جُوينا

وكان أخي جُوينٌ ذا حفاظٍ ... وكان القتل للفتيان زَيْنا
فآبوا بالرماح مكسَّرات ... وأُبنا بالسيوف قد انحنينا
وباتوا بالصعيد لهم أحاحٌ ... ولو خفّت لنا الكلْمى سرَيْنا

فهذه صورة شعرية مثّل الشاعر بها الموقعة أحسن تمثيل . وانك لتراه ينتقل من وصف الى وصف فى سهولة ورفق ، وتراه فى الوقت نفسه صادقاً فيما يقول، إذ لم يرد فى قصيدته ما يحمل القارىء على تكذيبه أو رميه بالغلوّ والإسراف ، وانظر كيف اكتفى فى رثاء أخيه حين صُرع بهذا البيت السهل المقبول

وكان أخي جُوين ذا حفاظٍ ... وكان القتل للفتيان زينا

وأي فتى لا يتمنى أن يرميَ بنفسه فى سعير تلك الحرب التى يقول فيها هذا الفتى النبيل ، وهو فيما يقول غير ظنين

تنادَوْا يالَبُهثة إذ رأونا ... فقلنا أحسني ضرباً جُهينَا
سمعنا دعوة عن ظهر غيب ... فَجُلْنَا جولة ثم ارعوينا
فلما أن تواقفنا قليلا ... أنخنا للكلاكل فارتمينا
فلما لم ندع قوساً وسهماً ... مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلألؤَ مزنة برقت لأخرى ... اذا حجلوا بأسياف ردينا

— ٥ —

والشاعر الواحد قد يكلف بترديد معنى من المعانى فلا يزال يبدىء ويعيد حتى يضع له صورة شعرية يصل بها الى ما يريد ، كالعباس بن الاحنف في ولوعه بكتمان الوجد ، وجحود الحب ، فقد افتنّ في هذا المعنى ووضع له صوراً عديدة ، فتارة يعتذر عن هجره فيقول

الله يعلم ما أردت بهجركم الا مُصانعة العدوّ الكاشحِ
وعلمت أن تباعدى وتستري أدنى لوصلك من دنوٍ فاضح

وأحلى من هذا قوله في تعيين نوع الصدود

سأهجر إلفي وهجرانُها اذا ما التقينا صُدودُ الخدودْ
كلانا محبٌّ ولكننا ندافع عن حبنا بالصدودْ

وتارةً يُعلّل الكتمان فيقول

سأستر والستر من شيمتي هوى من أحب بمن لا أُحب
ولا بد من كذب في الهوى اذا كان دفع الأذى بالكذب

وحيناً يصف اضطراب الناس في الحديث عن وجده فيقول

قد سحّب الناس أذيال الظنون بنا وفرّق الناس فينا قولهم فِرَقا
فجاهلٌ قد رمى بالظن غيركمو وصادقٌ ليس يدرى أنه صدقا

وأظنه لم يبلغ من البيان ما أراد إلا حين قال

كذبت على نفسي فحدثت انني سلوت لكيما ينكروا حين أصدقُ
وما من قلِى مني ولا عن ملالة ولكنني أبقي عليك وأشفقُ
عطفت على أسراركم فكسوتها قميصاً من الكتمان لا يتخرّق

وللقارىء أن يحلل هذا المعنى فقد مهّدت له السبيل (١)

(١) ارجع الى هذه المعاني الوجدانية في كتاب (مدامع العشاق)

البحث العاشر

اختلاف الصور الشعرية

— ١ —

وقد نجد للموصوف الواحد صورتين مختلفتين، لاختلاف العاطفة عند شاعرين. فمن ذلك قول ابن الزيات في بِرْذَوْن أشهب كان المعتصم أخذه منه، وكان أحمد بن خالد ذكره له، ووشى به اليه

قالوا اجزعت فقلت إنَّ[1] مصيبة جلّتْ رزيتها وضاق المذهبُ
كيف العزاء وقد مضى لسبيلهِ عنّا فودعنا الأحمُّ الأشهب
دبَّ الوشاة فأبعدوه وربما بَعُدَ الفتى وهو الحبيب الاقربُ
لله يوم غدوت عني ظاعناً وسُلِبتُ قربك أيّ عِلْقٍ أُسلبُ
الآن اذ كَمُلت أداتك كلها ودعا العيون اليك لونٌ معجب
واختيرَ من سرّ الحدائد خيرها لك خالصاً ومن الحُليّ الأغرب
وغدوتَ طنّان اللجام كأنما في كل عضو منك صنج يضرب
وكأن سرجك اذ علاك غمامةٌ وكأنما تحت الغمامة كوكبُ
ورأى عليَّ بك الصديق مهابة وغدا العدوُّ وصدره يتلهب
أنساك؟ لا برحت اذاً منسية نفسي ولا زالت بمثلك تُنْكبُ

وهذه صورة شعرية لفرس انتزع من صاحبه، فلنذكر صورة شعرية لفرس لم يفجع صاحبه فيه، كقول البحتري

(١) ان — هنا — حرف جواب بمعنى نعم، ولها شواهد كثيرة ذكرها النحويون

وأغرّ في الزمن البهيم محجل | قد رُحتُ منه على أغر محجلِ
كالهيكل المبنيّ الاّ أنهُ | في الحسن جاء كصورة في هيكل
وافى الضلوع يشد عقد حزامه | يوم اللقاء على مُعمّ مخولِ
أخواله للرستمين بفارس | وجدوده للتبعين بموكل
يهوي كما تهوي العقاب وقد رأت | صيداً وينتصب انتصاب الاجدل
ذَنبٌ كما سُحبَ الرِّشاء يذب عن | عُرف ، وعُرف كالقناع المسبلِ
ذَهبُ الأعالي حيث تذهب مقلةٌ | فيه بناظرها حديدُ الأسفلِ
صافي الأديم كأنما عُنيت به | لصفاء نِقبتهِ مداوس صيقل
وتراهُ يسطع في الغبار لهيبهُ | لوناً وشداً كالحريق المشعل
هَزِج الصهيل كأن في نغماته | نبراتِ معبَد في الثقيل الأَول
ملك العيون فان بدا أعطينه | نظر المحب الى الحبيب المقبل

والموازنة بين هاتين القصيدتين تتوقف على معرفة السبب الذي قيلت فيه القصيدة الاولى والسبب الذي قيلت فيه القصيدة الثانية ، ومتى عرفنا أن الشاعر الاول وصف حصانه وهو جازعٌ محزون ، وأن الشاعر الثاني وصف حصانه وهو فرح مختال ، استطعنا أن نعرف السبب فيما بين القصيدتين من الفروق ، فقد ابتدأ ابن الزيات فشرح حزنه على ذلك الحصان المسلوب بما يشبه أن يكون مرثية لغلام نكب به ، وهذا الجزء من القصيدة اقتضته «ظروف» ابن الزيات ، فهو في الوصف غير محسوب ثم انتقل الى وصف الفرس فابتدأه بأبيات هي أنموذج في الرثاء ، ألا تراه يقول :

الآن اذ كملَت أداتك كلها | ودعا العيون اليك لون معجب

واختير من سر الحدائد خيرها   لك خالصاً ومن الحلى الاغرب
وغدوتَ طنانِ اللجام كأنما   في كل عضو منك صنج يضرب

وهذا النمط في التعبير كان شائعاً في الرثاء، لذلك العهد، ومنه قول بعض الشعراء

الآن لما صِرْتَ أكمل مَنْ مشى   وافترّ نابك عن شباةِ القارحِ
وتكاملت فيك الشمائل كلها   وغدوت ربَّ مدائح ومنائح

ويدلك على أن ابن الزيات إنما يصف حزنه على ذلك الجواد أنك تراه يُطنب في وصف المظاهر الأَخَّاذة التي تبهر الناظرين، ليكشف عن سر النميمة التي رزأه بها ابن خالد عدوه اللدود، وإلا فما معنى قوله

وكأن سرجك اذ علاك غمامةٌ   وكأنما تحت الغمامة كوكبُ
ورأي عليَّ بك الصديق مهابةً   وغدا العدو وصدره يتلهبُ

وكان ذلك لأن ابن الزيات محنق مَغيظ لا يفكر في عتق فرسه أكثر مما يفكر في نكبته بذلك العدو الذي سد عليه طريق الخيلاء حين أغري المعتصم بأخذ برْذَوْنه الجميل

وجملة ما وصف به ابن الزيات برذونه أنه كامل الأداة، وأنه يروق العيون، وانه اختار له من الحديد سره ومن الحلي أغربه، وأنهُ طنَّان اللجام، وأن سرجه كالغمامة وهو من تحته كالكوكب، وأنهُ يكبت العدو ويسر الصديق

وهذه أوصاف لا تُماثَلُ ولا توازَنُ بأوصاف البحتري لجواده، فقد ذكر أنه أغر محجل، وأنه في تكوينه

كالهيكل المبني إلا انهُ   في الحسن جاء كصورة في هيكل

وأنه وافي الضلوع ، وأنهُ أصيل : أخواله فى بلاد الأكاسرة ، وأجداده في بلاد التبابعة ، وأنه يهوى هُوِيَّ العُقاب حين ترى الصيد ، ثم ينتصب انتصاب الاجدل ، وأنه رقّاق الجوانب : تتوهم فى جبينه البدر ، وفى أرساغه الجوزاء ، وأن ذَنَبه لطوله كالرداء المسحوب ، وأنه صافي الأديم كأنما سهرت على لونه الصياقل ، وانك تحسب بريق سنابكه فى الغبار ناراً يعلوها دُخان ، وأنهُ هزِج الصهيل حتى لتحسب فى نغماته نبرات معبدَ فى صوته الرخيم ، وأنهُ ملك العيون ، حتى لتنظر اليهِ نظر المحب الى الحبيب المقبل

وليس عجباً أن يجيد البحتري هذه الاجادة فى وصف جواد كان يَهتك بغرّته ظُلمة الليل ، وينحدر به فى الفضاء ، كما تنحدر الصخْرة الصَّماء ، عن القمّةِ الشمّاء . أما ابن الزيات فهو حَرِيب سَليب ، لم يذكر من جواده غير شياته الظاهرة ، التي أججت في صدر حسوده نار العداوة والبغضاء

— ٢ —

ذلك هو اختلاف الصورة الشعرية ، وفى مقدور الناقد أن يتبين الصورة الموحَّدة عند شاعرَيْن ، ثم يوازن بين براعتهما في التصوير ، ولنضرب المثل بوصف الحمامة الباكية ، فقد اكثر منه الشعراء ، فنجد قول أبي محلم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين ، وقد كَبِرَت سنه ، وطالت غربته :

وأرّقني بالرّيّ نوح حمامةٍ فنُحت وذو الشجو الغريبُ ينوحُ
على أنها ناحت ولم تذر دمعةً ونُحت وأسراب الدموع سفُوح

وناحت وفرخاها بحيث تَراهما ومن دون أفراخي مهامه فِيحُ

ونجد قول ابن الدُّمينة

ألا يا حمامات اللوى عدن عودةً فاني الى أصواتكن حزينُ
فعُدْن فلما عدن كدن يُمِتْنَنِي وكدت باشجاني لهن أبينُ
فلم تَرَ عيني مثلهن بواكيًا بكين ولم تذرف لهن عيون

ونجد قول ديك الجن

حمائم وُرْقٌ في حمى وَرَقٍ خُضْرِ لها مُقَلٌ تَجري الدموع ولا تَجري
تكلفن إِسعاد الغريبة ان بكت وان كنَّ لا يدرين كيف جوى الصدر
لها حُرَقٌ لو أن خنساء أعولت بهن لأَدت حق صخر الى صخر
فقلت لنفسي هاهنا طلب الأسي ومعدنه إِن فاتني طلب الصبر

ونحن اذا تأملنا أبيات أبي محلم وأبيات ابن الدمينة وأبيات ديك الجن لم نجد فيها صورة شعرية ، ويظهر الفرق واضحاً اذا قابلناها بقول الطغرائي من قصيدة طويلة

أبكيَة صدحت شجواً على فَنَنٍ فأشعلت ما خبا من نار أشجاني
ناحت وما فقدت إِلفاً ولا فجعت فذكّرتنيَ أوطاري وأوطاني
طليقةٌ من إِسار الهم ناعمة أضحت تجدِّد وجد الموثق العاني
تشبهت بيَ في وجدي وفي طَرَبي هيهات ما نحن في الحالين سيّان
ما في حشاها ولا في جفنها أثرٌ من نار قلبي ولا من ماء أجفاني
يا ربة البانة الغناء تحضنها خضراء تلتفُّ أغصاناً بأغصان
ان كان نوحك اسعاداً لمغترب ناء عن الاهل ممنوٍّ بهجران
فقارضيني اذا ما اعتادني طربٌ وجداً بوجد وسلواناً بسلوان

أولا فقصرك حتى أستعين بمن يعنيهِ شأني ويأسو كلْمَ أحزاني
ما أنت مني ولا يعنيك ما اخذتْ مني الهموم ولا تدرين ما شاني
كِلي إلى الغيم إسعادي فإن لهُ دمعاً كدمعي وإرناناً كإرناني

وهذه صورة شعرية بديعة تمثل حال الموجع الحزين ، وقد هاجته الحمامة الباكية ، وإنك لترى الشاعر يوازن بين حاله وبين حال تلك الايكية الساجعة موازنة دقيقة تروع القلب ، وتهيج الوجدان ، وانظر كيف يقول:

طَليقةٌ من إسار الهم ناعمةٌ اضْحَتْ تجدد وجد الموثَقِ العاني

وهذا غاية في وصف الحزن ، واليأس من السلوان ، فان وصف الحمامة بالتصنع في بثها وشجاها أدل على لوعة الشاعر وأساه ، ولا كذلك الاقتناع بحزن الحمائم الشاديات، فان فيه شيئاً من الراحة لأنس الحزين بالحزين

ولك أن تذكر أن هنا شيئاً من اختلاف الصورة : فان أبا محلم يأسى لغربته ، ويتفجع لبعد اطفاله . في حين أن الحمامة تبكى وقد جمع بينها وبين أفراخها غصن واحد ، فماذا تبغي وقد وقاها الله تبديد الشمل وفرقة الاحباب !

وابن الدمينة يراجع حمامات اللوى ، ويسألهن العودة ، ثم يذكر انهُ كاد يفصح عن أسراره حين بكين بجانبه ، وان لم تذرف لهن عيون ، وديك الجن يردد معنى قريباً من معنى ابن الدمينة ، أما الطغرائي فقد أتى بفكرة طريفة ، وسلك مسلكاً يدل على عنايتهِ بتحديد ما يقول

وأريد بهذا الفصل الوجيز أن الفت نظر الناقد الى ما يجب عليه

من اختبار الصور الشعرية وادراك ما بينها من دقائق الاختلاف والائتلاف . فان الموازنة نوع من الوصف وبيان ما بين الصور من مختلف الفروق

البحث الحادي عشر

الصور الشعرية فى القرآن

ولقد رأيت من رجال الأدب من يحسب الصورة الشعرية نوعاً من الاستعارة التمثيلية ، وفي تصحيح ذلك الخطأ نسوق هذا الحديث

— ١ —

الاستعارة التمثيلية هي ضرب من التشبيه يكون فيه المشبَّه والمشبَّه به هيئةً منتزعةً من عدَّة أمور متحققّة أو مُتَخَيَّلة ،ومن هذه الاستعارة يتكون أكثر الأمثال السائرة ، فيكون لبعضها موارد حقيقية ، ولأكثرها موارد خيالية

وللأمثال كما قال المرحوم استاذنا المهدي أربعة ضروب :

الاول — ما له مورد حقيقي كمواعيد عُرقوب في قول كعب بن زهير

كانت مواعيدُ عرقوب لها مثلاً   وما مواعيدها إلا الأباطيل

الثانى — الخيالى الممكن ، وهو ما نُسب الكلام والعمل فيهِ إلى عاقل كما جاء في أمثال لقمان ان صبياً كان يستحمُّ في نهر ،ولم يكن يحسن السباحة ، فأشرف على الغرق ، فاستغاث برجل عابر في الطريق ، فأقبل عليه وجعل يلومه على نزوله الى النهر ، فقال الصبي «ياهذا ! خلّصني من الموت ثم لمني !»

الثالث — الخيالي المستحيل ، وهو ماجاء على ألسنة الحيوان والجماد للاعتبار به ، كما فعل نصر بن منيع ، وكان خارجاً على المأمون، فسيَّر اليه جيشاً ظفر به ، فلما مَثَل بين يدى المأمون أمر بضرب عنقه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أتسمع مَثَلاً خَطَر على بالي ؟ فقال قل ، فانشأ يقول

زعموا بأن الصقر صادف مرةً　　عُصفور برٍّ ساقهُ التقديرُ

فتكلم العصفور تحت جناحهِ　　والصقر منقضٌّ عليه يطيرُ

إنى لمثلك لاَ أُتَمِّمُ لقمةً　　ولئن شُويتُ فانني لحقيرُ

فتهاون الصقر المدلُّ بصيده　　كرماً وأفلت ذلك العصفور

الرابع — الخيالي المختلط من الممكن والمستحيل ، وهو ما جمع بين الناطق وغيره ، كحديث الحية والأَخوين ، فقد زعموا أن أخوين هبطا بغنمهما وادياً فيهِ حيّة تحميه،وبينما كان أحدهما يرعى غنمه إذ نهشته الحية فقتلته ، فقال أخوه : والله مافى الحياة خيرٌ بعده ، ولأَطلبن الحية ؛ فلما لقيها وهمَّ بقتلها قالت : ألا ترى انى قتلته وندمت على ما كان منى ! فهل لك في الصلح ، فأدعك في هذا الوادى آمناً ، وأعطيك دية أخيك كل يوم ديناراً ؟ فصالحها على ذلك ، وحلفت له وحلف لها ، ومازالت تعطيه حتى كثر ماله . فلما أحس الغنى قال : كيف ينفعنى هـذا العيش ، وأنا أرى قاتل أخي ! فعمد الى فأس فأحدَّها ثم انتظر . فلما مرت به ضربها فشجَّها وأخطأ مقتلها . فقطعت عنه الدينار وتوعَّدته نخاف شرَّها وقال: هل لك أنْ نتعاهد على المودّة كما كنا ؟ فقالت : لا ؛ لأَنك كلما نظرت الى قبر أخيك وجدت عليَّ . وكلما ذكرت الشجّة التي فى رأسي وجدت عليك ؛ وفى ذلك يقول النابغة الذبيانى من قصيدة يعاتب بها بنى مرة

وانى لألقى من ذوى الضغن منهمو
وما أصبحت تشكو من الوجد ساهرة

كما لقيت ذات الصفا من حليفها ... وما انفكت الأمثال في الناس سائرة
فقالت له أدعوك للعقل وافياً ... ولا تغشيني منك بالظلم بادره
فواثقها بالله حين تراضيا ... فكانت تدين المال غبًّا وظاهره
فلما توفى العقل الا أقله ... وجارت به نفس عن الحق جائرة
تذكر أنى يجعل الله فرصة ... فيصبح ذا مال ويقتل واتره
فلما رأى أن ثمر الله ماله ... وأثل موجوداً وسد مفاقره
أكب على فأس يحد غرابها ... مذكرة متن المعاول باترة
فقام لها من فوق حجر مشيد ... ليقتلها أو تخطيء الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللبر عين لا تغمض ناظره
فقال تعالَيْ نجعل الله بيننا ... على مالنا أو تنجزي لي آخره
فقالت يمين الله أفعل انني ... رأيتك :دَّاراً يمينك فاجره
أبي لي قبر لا يزال مقابلي ... وضربة فأس فوق رأسي فاقره

— ٢ —

وفي القرآن أمثال كثيرة لها موارد خيالية ، من ذلك قوله تعالى « ووصّينا الانسان بوالديه احسانا ، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ، قال ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت اليك وإني من المسلمين ، أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم

في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ، والذي قال لوالديه أفٍّ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ، وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الاولين ، أولئك الذين حقّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس إنهم كانوا خاسرين » فان هذا تشبيهٌ وتمثيلٌ يراد بهِ تصوير حال الأبرار والفجّار ، وما لهؤلاء من الخزي ، وما لأولئك من النعيم

وأصرح من هذا قوله تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال فأبينَ أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انهُ كان ظلوماً جهولا » فانهُ لم يحصل عرض ولا إباء ولا إشفاق ، وإنما المراد تصوير التكاليف وما فيها من المشقة ، وتصوير الانسان وما يغلب عليه من الغرور والجهل بحقائق الاشياء

وكذلك قوله عز شأنه (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له أنداداً . ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسيَ من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض إئتيا طوعاً أو كَرهاً قالتا أتينا طائعين) فان الغرض تصوير القدرة الالهية وما لها من السلطان المطلق في الارض والسماء

وتظهر قيمة هذا التصوير إذا نظرنا في الآيات التي قصد بها الترغيب والترهيب كقوله تبارك اسمه (ونُفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض إلا من شاء الله ثم نُفخ فيهِ أخرى فاذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الارض بنور ربها ووُضع الكتاب وجيء

بالنبيين والشهداء وقُضيَ بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) فانك تراه يصور ما سيكون بصورة الواقع المخيف، ثم تراه يُتبع ذلك بقوله (وسيق الذين كفروا الى جهنم زُمَراً حتى اذا جاءوها فتحت ابوابها وقال لهم خزَنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين)

هذا في الترهيب ، ثم انظر قوله في التشويق الى دار النعيم (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زُمراً حتي اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين. وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوء من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين)

قال صاحب الطراز : ومن التمثيل الرائق قوله تعالى (وجعلنا على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه) وقوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) فهم لاعراضهم عن الدين ، وإصرارهم على المخالفة لما جاء به الرسول ،وبلوغ الغاية في الصد والنكوص، مُمثلون بحال من جُعل على قلبه كِنان فهو لا يفقه ما يقال له ولا يرعوي لقبوله، وبحال من ضُرب بينه وبين مراده بسد من بين يديه ومن خلفه فهو لا يهتدي اليه ، ولا يمكنه الوصول الى بغيته بحال

والتمثيل تشبيه حالة بحالة كقوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) فان الشبه كما قال عبد القاهر الجرجاني منتزع من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الاسفار التي هي أوعية العلوم

ومستودع ثمر العقول ، ثم لا يُحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأعمال التى ليست من العلم فى شيء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ويكد جبينه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ونتيجة لأشياء أُلفت وقُرن بعضها الى بعض — (راجع أسرار البلاغة)

ولعلماء البيان كلام كثير في الفرق بين الاستعارة والكناية والتمثيل وإنما يعنيني أن يعرف القارىء أن هذا النوع من التعبير ليس من الصور الشعرية التي أسلفت عنها الحديث ، وإن كان في ذاته نوعاً من التصوير لما فيه من روعة الخيال

— ٣ —

ويمكن أن يقال إن الاستعارة التمثيلية صورة للمعنى ، أما الصورة الشعرية فهي مثال للغرض ، فقوله تعالى « والسماء مطويّاتٌ بيمينهِ » تمثيل يراد به تقرير معنى خاص : هو قدرة الله ، أما تصوير الغرض بصورة شعرية فكقوله تعالى في آخر سورة المائدة

« وإذ قال الله : ياعيسى بن مريم ؟ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ! إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم »

فانه لا شك في أن هذا تصوير للغرض ، لا المعنى ، والمعنى جزء من الغرض ، فان هذا الحوار البديع الذي جرى بين رب العزة و بين عبده ورسوله عيسى عليه السلام يمثّل غرضاً كلياً يشتمل على طائفة من المعاني الجزئية ، فتصوير المعنى الجزئي هو الاستعارة أو التمثيل، وتصوير الغرض الكلي هو الصورة الشعرية التي يراد بها الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول اليه من التأثير الذي هو غاية البيان

— ٤ —

ومن الصور الشعرية قوله تعالى في تحديد موقف المسلمين أمام أعدائهم من المشركين

« وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسولُهُ ، فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غيرُ مُعجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتهم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين . فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مَرْصَد ، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ،ان الله غفور رحيم ، وإن أحدٌ من المشركين اُستجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قومٌ لا يعلمون . كيف يكون المشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام،فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة ، يُرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم، وأكثرهم فاسقون.

اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدّوا عن سبيله أنهم ساء ما كانوا يعملون، لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا باخراج الرسـول وهم بدءوكم أول مرة ، أتخشونهم فالله احق ان تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويُذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشـاء ، والله عليم حكيم . أم حسبتم ان تُتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خبير بما تعملون »

وأحب ان يذكر القارىء اني أتكلم عن القرآن من الوجهة الأدبية بغض النظر عما فى مثل هذه الآيات من احكام القتال ، وما قد ينظر فيه الفقيه من وجوه النسخ وضروب التأويل ، وأُقرر ان هـذه الصورة تكاد تكون خطبة في الدعوة الى الجهاد

وتمتاز الصور الشعرية في القرآن بتثبيت المعنى وتأكيده حين يقتضي المقام ذلك ، والقرآن لا يرى غضاضةً فى التكرار حين يحتاج اليه ، بل يراه واجباً محتوم الأداء ،وانك لتجده في هذه الآيات يُبدي ويعيد فى لَعنِ المشركين وتحقيرهم، والدعوة الى تعذيبهم ، وإذلالهم ، وتقتيلهم، إذ كان ذلك من أغراضه الاساسية . ألا تراه يُوصي بالرفق حين يقول « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم

أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » ثم يصرخ صرخة الغضب تتفجَّر من جوانبه الدماء ، فيقول « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون» ثم لا يكفيه هذا بل يقول « اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدّوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون » ثم لا يكفيه هذا بل يقول « لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون » ثم يعود فيقول « ألاَ تقاتلون قوماً نكثوا ايمانهم وهمُّوا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين » ثم يثور فيقول « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين. ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم»

وأود أن يذكر القارىء أن العهد الذي نزل فيه القرآن كان عهد فتنة وعماية وضلال ، وكانت هذه الغضبة التي تفيض بها جوانب القرآن غضبة طبيعية ، لا إثم فيها ولا عُدوان ، أقول ذلك ليعرف القارىء السر في أني أجعل من القرآن صوراً شعرية ، وان لم يكن النبي عليه السلام من الشعراء ، فليس القرآن من الكتب التي يراد بها التشريع المحض ، وانما هو يذكر القوانين في بساطة وسهولة ، ثم يدعو الى تأييدها وتنفيذها بالقوة والجبروت

— ٥ —

ومن الصور الشعرية البديعة التي وردت في القرآن قوله عز شأنه
« واتل عليهم نبأ ابراهيم : اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين؛ قال هل يسمعونكم اذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ؛ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون ، فانهم عدوٌّ لي إلا رب العالمين ، الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ، رب هَبْ لى حُكماً وأَلحقني بالصالحين ، واُجعل لي لسان صدق في الآخرين ، واُجعلني من ورَثة جنة النعيم ، واغفر لأبي انه كان من الضالين ، ولا تخزني يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم »

اتل هذا أيها القارىء مرة وثانية وثالثة ، وحدثني أتجد أعذب من هذا الحديث الممتع ، وهل تجد أخف منه على السمع ، وأحب منه الى القلب . وأرفق منه بالنفس، ألا ترى الحسن يجري فى هذا الحديث كما يجري السحر في الطرف الكحيل ، ويتغلغل الايمان فى قلب قارئه كما يتغلغل الحب في صدر الوالد يرفق به اُبنه الوحيد ؟ ؟

— ٦ —

ومن الصور الشعرية الرائعة قوله تبارك اسمه :

« كذّبت عاد المرسلين : إذ قال لهم أخوهم هُودٌ ألا تتقون ، إني لكم رسول امين ، فاتقوا الله واطيعون . وما أسألكم عليه من أجر

ان أجرِيَ الا على رب العالمين ، أتبنون بكل ريع آية تعبثون ،وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون،واذا بطشتم بطشتم جبارين،فاتقوا الله واطيعون، واتقوا الذي امدكم بما تعلمون : امدكم بانعام وبنين ، وجنّات وعيون ، إني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا سواءٌ علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين، إن هذا إلا خلق الأَولين ، وما نحن بمعذّبين ،فكذبوه فاهلكناهم ، ان فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم »

***

وانا استطيع ايراد المئات من الصور الشعرية في القرآن ، لو سمح الوقت ، ولكن هيهات ! فليكتف القاريء بذلك ، وليعلم ان فى هذا المنهج غَناءً ايَّ غناء ، لمن يريد الموازنة بين الكتاب والخطباء ، فان التأثير يرتكز على مافى الخطب والرسائل من الصور الشعرية التي تفعل ما تفعل بالعقول والقلوب ، وكم فى خطب على ابن أَبي طالب ورسائل الجاحظ من الصور الفتانة ، التي تسكن اليها شوارد النفوس

البحث الثاني عشر

المعاني والأغراض

قد رأيت حين حدثناك عن الصور الشعرية في القرآن أننا فرقنا بين المعنى والغرض . والآن نعود الى إيضاح هذا الرأى ، الذى نرجو أن يكون له شيء من النفع في عالم البيان

— ١ —

كان النقد يرتكز على وحدة البيت في نقد الشعر ، وعلى وحدة الفقرة في نقد النثر ، بغض النظر عن وحدة الغرض الذي سيق من أجله الكلام ، وكانوا يقولون فيمن يندر له بيت : لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس !

ونحن فى تعويلنا على « الصور الشعرية » التي تمثل الأغراض ، لا ننكر أهمية الالفاظ المختارة ، والأخيلة الرائعة ، التي تأتي في تضاعيف المنظوم والمنثور فتمثل المعاني اصدق تمثيل

أما اللفظ المختار فكقول كُثَيِّر

بأبي وأمي أنتِ من مظلومةٍ طَبِنَ العدوُّ لها فغيَّرَ حالها (١)
لو أن عزة خاصمت شمس الضُّحى في الحسن عند موفَّق لقضى لها
وسعى إليَّ بصَرْم عزَّةَ نسوةٌ جعل المليك خدودهنَّ نعالها

وهذه أبيات عادية ، ولكن كلمة « موفَّق » في قوله

---

(١) طبن بمعنى فطن

لو أن عزّةَ خاصمت شمس الضحى في الحسن عند مُوَفق لقضى لها

كلمة دقيقة بارعة تمثل مراد الشاعر أصدق تمثيل، لأنهُ يريد أن يخيّل اليك أن عزة كالشمس في الحسن والإشراق ، وأنها لو خاصمت الشمس في الحسن لاشتبه الأمر على من يفصل في هذه الخصومة ، وأنه لابد من التوفيق ليحكم بتفوق هذه المحبوبة على الشمس ، ولا يحتاج الحَكَم الى التوفيق الا حين يلتبس الحق ويتعذر الفصل، وحسبُ هذه الحسناء أن تفتن الناظر ، وأن تكون في نفس المنصف أولى من الشمس بالجمال

وأما الخيال الرائع فكقول النابغة الذبياني في وصف الليل

تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ وليس الذي يرعى النُّجوم بآئب

فقد صوَّر النجوم بصورة الإبل تسرح وتمرح في أديم السماء ، وصوّر الصبح بالراعي الغائب الذي يخشى أن لا يثوب، وفي أوبته صرْف هذه النُّجوم

اذكر هذا ثم تعال تنظر أهـذا هو الغرض الذي سيق من أجله الحديث ؟ كلا ! فإن الغرض أوسع من ذلك ، وغرض النابغة أن يشكو الى محبوبته هجوم الهم على صدره في ظلمة الليـل ، وقد أفصح عن هذا الغرض في هذه الأبيات

كليني لهمّ يا أميمة ناصبِ وليل أقاسيهِ بطيء الـكواكبِ
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بآئب
وصدر أراح الليـلُ عازب همهِ تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وهذه صورة شعرية لتمثيل الغرض الذي قصد اليه الشاعر في مطلع قصيدتهِ، فقد تحدث عن همهِ الممضّ الموجع ، وليله الذي طال بطوله بثه

وشجاه ، وصدره الذى أراح الليل ما عزب من همه ، وهذا أيضاً خيال رائع : فقد صور الهموم بصورة الإبل تسرح نهاراً ثم تُراح ليلاً الى الحظيرة ، وكذلك يُشغل المرء عن همومهِ بالنّهار ، فاذا انقطعت شوأغله بالليل دبت الهموم إلى صدره فاحتلته من جديد

وهذا المعنى أروع من قول أمريء القيس

الا ايها الليل الطويل الا انجلِ ... بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

وإن قال العتبي بغير ذلك في الحديث الذي ذكره صاحب زهر الآداب (ص ١٦٦ ج ٣)

وفي مثل هذا الغرض الذي افصح عنه النابغة يقول حندج بن حندج المري

في ليل صول تناهى العَرْضُ والطولُ ... كأنما ليلهُ بالليلِ موصولُ

لا فارق الصبح كفى ان ظفرت بهِ ... وان بدت غرةٌ منهُ وتحجيل

لساهرٍ طال فى صُول تَمَلْمُلُهُ ... كأنه حيةٌ بالسوّط مقتولُ

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله ... والليل قد مُزّقت عنه السرابيلُ

ليلٌ تحيّرَ ما ينحط في جهةٍ ... كأنه فوق مَتْن الارض مشكولُ

نجومه ركّد ليست بزائلةٍ ... كأنما هنّ في الجو القناديلُ

ما أقدرَ الله أن يدني على شَحَطٍ ... من داره الحزن ممن داره صُولُ

الله يطوى بساط الأرض بينهما ... حتى يُرى الربع منه وهو مأهول

وفي هذه القصيدة يظهر الفرق واضحاً بين المعنى والغرض ، ففي كل بيت معنى خاص ،ومن مجموع هذه المعاني يتكون الغرض ، فليس هناك ريب في ان قوله

لا فارق الصبح كفي إن ظفرت بهِ   وإن بدت غرة منه وتحجيلُ

فيه معنى جميل، وخيالٌ رائع، ولكنه لا يمثل الغرض الذي قيلت من أجله القصيدة، وكذلك قوله :

ليلٌ تحيّر ما ينحطّ في جهةٍ   كأنه فوق متن الارض مشكول

فيه خيال يخلب العقول، وأيّ خيال أروع من حيرة الليل، وتقييده فوق متن الأرض بشكال! ولكن هب الشاعر قال هذا البيت مفرداً لا سابق له ولا لاحق، فأي تأثير يكون له في النفس، وهو في ذلّة اليتيم!

وكذلك قول أشجع بن عمرو السُّلَمي في رثاء محمد بن منصور بن زياد

أنعى فتى الجود الى الجودِ   ما مثل من أنعى بموجودِ
أنعي فتىً مصّ الثرى بعده   بقية الماء من العود
وانثلم المجد به ثلمة   جانبها ليس بمسدود
فالآن تخشى عثرات النَّدى   وصولة البخل على الجود

ففي كل بيت معنى جميل، وفي كل بيت خيالٌ رائع، ولكن الصورة الشعرية لا تتم الا بضم هذه المعاني بعضها الى بعض، ومنها يتكون الغرض، وهو ذهاب المجد بفقد هذا الجواد

— ٢ —

على ان الغرض قد يتشعّب حين يوجد ما يقتضي ذلك، فقد ذهب الثكل برشد طريف ابن أبي وهب العبسي فقال يرثي ابنه بهذه الكلمات الموجعة التي اصبحت لذهوله كثيرة الاغراض

أرابعَ مهلا بعض هذا وأجملي   ففي اليأس ناهٍ والعزاء جميلُ

فان الذي تبكين قد حال دونه تراب وزوراء المقام دَحُول
نحاه للحد زبرقان وخالد وفي الأرض للاقوام قبلك غولُ
وأي فتىً واروه ثمت أقبلت أكفهم تحثو معاً وتهيل
وظلت بيَ الأرض الفضاء كأنما تَصعد بي أركانها وتجول
وشدَّ اليَّ الطرف من كان طرفهُ بعهد عبيد الله وهو كليل
لئن كان عبد الله خلّى مكانهُ على حين شيبي بالشباب بديل
لقد بقيتْ مني قناةٌ صليبة وإن مس جلدي نهكة وذبول
وما حالة إلا ستصرف حالها إلى حالة أخرى وسوف تزول

فقد تَنَقَّلَ الشاعر من معنى الى معنى . ومن غرض الى غرض ، تحت وَطْأة الحزن الذى مشى بهِ من العزاء الى الجزع ، ومن الجزع الى العزاء ، فانك تراه يروض نفسه على الصبر حين يقول

أرابع مهلا بعض هذا وأجملي ففي اليأس ناهٍ والعزاء جميل

ثم تراه يغري بنفسه ثائرة الحزن حين يقول

وشدَّ اليَّ الطرف من كان طرفه بعهد عبيد الله وهو كليل

ثم يعود فيقول

وما حالة الا ستصرف حالها الى حالة اخرى وسوف تزول

وكذلك يضطرب المحزون فلا يستقر على حال

— ٣ —

والنثر كالشعر في المعاني والأغراض ، وعندنا كتاب بديع الزمان الهمذاني الى القاضي ابى القاسم على بن احمد في شكوى ابي بكر الحيري ،

وفيه طائفة من الصور الشعرية بقدر ما فيه من الاغراض ، وانظر قوله في وصف العلم :

« والعلم اطال الله بقاء القاضي شيءٌ كما تعرفه بعيد المرام ، لا يصاد بالسهام ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى في المنام ، ولا يضبط باللجام ، ولا يورث عن الأعمام ، ولا يكتتب للئام ، وزرع لا يزكو في كل ارض حتى يصادف من الحرص ثرًى طيباً ، ومن التوفيق مطراً صيّباً ، ومن الطبع جواً صافياً ، ومن الجهد روحاً دائماً ، ومن الصبر سقياً نافعاً ، والعلم عِلْقٌ لا يباع ممن زاد ، وصيد لا يألف الأوغاد ، وشيء لا يدرك إلا بنزع الروح ، وغرض لا يصاب الا بافتراش المدَر ، واستناد الحجرْ وردّ الضجر ، وركوب الخطر ، وادمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، واعمال الفكر ، ، ثم هو معتاص على من زكا ذرعهُ ، وكرم أصله وفرعهُ ، ووعى بصرهُ وسمعهُ ، وصفا ذهنهُ وطبعهُ ، فكيف يناله من أنفق صِباهُ على الفحشاء ، وشغل سلوتهُ بالغنيِ وَخلوتهُ بالغناء ، وافرغ جده على الكيس وهزله على الكاس؟! والعلم ثمر لا يصلح الا للغرس، ولا يغرس الا في النفس ، وصيد لا يقع الا في البذر ، ثم لا ينشب الا في الصدر ، وطائر لا يخدعهُ الا قفص اللفظ ، ثم لا يعقله الا شرك الحفظ ، وبحرٌ لا يخوضهُ الملاّح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيجه الرياح، وجبل لا يُتَسَنّم الا بخطا الفكر، وسماء لا يُصعد الا بمعراج الفهم ، ونجم لا يلمس الا بيد المجدّ ، أيكفي ان يصبح المرء بين الزق والعود ، ويمسي بين موجبات الحدود، حتى يتم شبابه، ويشيب اترابه ، ثم يلبس دنيته، ليخلع دينيته ، ويسوي طيلسانه ، ليحرف يده واسانه ، ويقصّر سباله ، ليطيل

حباله، ويبدى شقاشقه ، ليغطي مخارقه ، ويبيّضَ لحيته، ليسوّد صحيفته ويظهر ورعه ، ليخفي طمعه ، ويغشي محرابه، ليملأ جرابه ، ويكثر دعاءه ليحشو وعاءه ، ويرجو ان يخرج من بين هذه الاحوال عالماً ، ويقعد حاكماً !!! هذا اذاً المجد كالوه بقفزان !!! »

فهذه طائفة من المعاني ترجع الى غرض واحد : هو أن العلم شيءٌ عَزيز لا يناله بعد الجهد الا كرام النفوس(١)

ويمكن للناقد ان يجد في بعض هذه المعاني شيئاً من الضعف، ولكنه لن ينكر على الكاتب انه افصح عن غرضه و بلّغ دعوته ، بل وصل بها الى قرار القلوب، واهمية الصور الشعرية كما اسلفنا القول ترجع الى تمكين المعاني في النفس ، والوصول الى التأثير الذى هو غاية البيان

وانظر قول بديع الزمان في وصف هذا القاضي ووصف قومه :

« وأقسم لو ان اليتيم وقع في انياب الأسود ، بل الحيات السُّود ، لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضى وأقاربه ، وما ظنك بقوم يحملون الامانة على متونهم ، ويأكلون النار في بطونهم ، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى ، وتسمن أكفالهم من مال الايامي ، وما ظنك بدار عمارتها خراب الدُّور ، وعطلة القدور ، وخلاء البيوت ، من الكسوة والقوت ؛ وما قولك في رجل يعادي الله في الفَلْس ، ويبيع الدين بالثمن البخس ، ومن حاكم يبرز في ظاهر اهل السمت ، وباطن اصحاب السبت ، فعله الظلم البحت، واكله الحرام السحت وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صُوف الايتام، وجراد لا يسقط الا

(١) وهذا لا ينافي ان غرض الكاتب هو التحريض على كبت عدوه الحيري

على الورع الحرام ، ولص لا ينقب الا خزانة الاوقاف ، وكردي لا يُغير الا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله الا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله الا بين العهود والشهود ؟ وما زلت ابغض حال القضاة طبعاً وجبلة ، حتى ابغضتهم ديناً وملة ، والعنهم دُرْبة ، حتى لعنتهم قُربة ، بما شاهدت من هذا الحيرى وقاسيت ، وعانيت من خَطْبه وخبطه ما عانيت »

وهذه صورة شعرية تمثل الظالمين من القضاة في جميع الأقطار ، وفي جميع العُصور ، لأن نزعات الإنسانية واحدة ، أو كأنها واحدة ، في الخير والشر ، والوصف الصادق يعذب ويُستملَح في كل قطر وفي كل جيل

— ٤ —

ولك أن تتخطى النثر المحبر الى الكلمات المأثورة التي جادت بها البديهة ، لترى كيف تكون المعاني والأغراض

فمن ذلك ما ذكره الجاحظ عن تمني يزيد الرقاشي ، وقد تمنى بحضرته قومٌ فقال : أتمنى كما تمنيتم ؟ قالوا : تمنَّهْ ؛ قال « ليتنا لم نُخلق ، وليتنا إذ خُلقنا لم نعص ، وليتنا إذ عصينا لم نمتْ ، وليتنا اذ متنا لم نبعث ، وليتنا اذ بعثنا لم نُحاسب ، وليتنا أذ حُوسبنا لم نعذب ، وليتنا اذ عذبنا لم نخلد »

وفى مثل هذا المعنى يقول الحجاج « ليت الله اذ خلقنا للآخرة كفانا أمر الدنيا ، فرفع عنا الهم بالمأكل والمشرب والملبس والمنكح ، أوليته إذ اوقعنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة ، فرفع عنا الاهتمام بما ينجي من عذابه »

وفي هاتين الأمنيتين وصفٌ دقيقٌ لحيرة النفس الانسانية التي

ما زالت تكد وتكدح في استكناه أسرار الغيب ، ثم سقطتْ صريعة الإعياء ، بعد مرارة الإخفاق !

وأحب ان لا يغفل القارىء عن دقة الترتيب في هذه الصورة الشعرية ، وأريد بالترتيب السير مع حركات النفس ، فقد ابتدأ الرقاشي بهذه الصرخة « ليتنا لم نخلق ! » وهي اول نفثة يجود بها المكروب ، ثم أخذ يُجيل نظر الحيرة ، ويتمنى إذ خُلِق لو وقاه الله المعصية ، ويتمنى إذ عصا لو نجا من الموت ، الى آخر ما قال

وقيل لبعض العرب ، : أي شيء تتمنّى وأي شيء أحب اليك ، فقال : لواء منشور ، والجلوسُ على السرير ، والسلام عليك أيها الامير !

وهذه صورة يبسم لها القارىء ، ولكنها على ذلك صورة صادقة لكثير من النفوس . وأدق منها قول الآخر وقد قيل له : أجزعت من الموت وقد صلى ركعتين فأطال ، وكان أُمِر بقتله ، فأجاب « إن أجزع فقد أرى كفناً منشوراً ، وسيفاً مشهوراً ، وقبراً محفوراً » وهذه صورة دقيقة لذلك الموقف الرهيب !

وقال أعرابي لسليمان بن عبد الملك : إني أكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله ، فان وراءه إن قبلته ما تحبه . قال : هاته يا أعرابي فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لا نأمن غيبتهُ ولا نرجو نصيحته ، وأنت المأمون غيباً ، الناصح جيباً . قال : فاني سأطلق لساني بما خرست عنه الألسُن تأديةً لحق الله تعالى : انه قد اُكتنفك رجالٌ أساءوا الاُختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم حربٌ للآخرة ، وسِلم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما

ائتمنك الله عليه ، فانهم لم يألوا الامانة تضييعاً ، والامة كسفاً وخسفاً وأنت مسئول عما اجترموا وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فان أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنيا غيره ! فقال سليمان : أما انت يا أعرابي فقد سللت لسانك وهو سيفك قال : أجل يا أمير المؤمنين ، لك لا عليك !

وفى هذا الحوار كما يرى القارىء طائفة من المعاني يتكون منها غرض واحد . وكذلك نستطيع حين نوازن بين الكتاب والخطباء والشعراء أن نفرق بين المعاني والأغراض

وارجو أن أوفق في الابحاث الآتية الى مراعاة ما وضعته من القواعد الاصول

البحث الثالث عشر

الحصري وشوقي

بينا فى الابحاث الماضية ما يجب أن يتوفر فى الناقد المُوازِن من الشروط، وبسطنا القول فى نظرية الصور الشعرية التي نعتمد عليها في النقد بعد مراعاة ما عُنِيَ به الاقدمون من اختيار الألفاظ والاساليب، والآن ندخل في بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل: وهو الموازنة بين القصائد المشهورة التى جرت مجرى المعارضة والمماثلة، كما فعل ابن المعتز فى معارضة الحسين بن الضحاك، وابن عبد ربه في معارضة مسلم بن الوليد، وابن درّاج في معارضة ابي نواس، والبارودي في معارضة أبى فراس. الخ

ولهذا البحث أهمية كبيرة، لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة، وسيرينا كيف تتصاول العقول، وكيف تتسابق القرائح، إذ كانت معارضة الشاعر للشاعر نوعاً من السباق في عالم البيان

ولنبدأ بالموازنة بين دالية الحُصري «ياليل الصب متى غده» ودالية شوقي «مضناك جفاه مرقده» فان لهاتين القصيدتين أثراً في أندية الأدب ومجالس الغناء، ومن الخير أن نميط اللثام عما فيهما من مواطن الحسن، ومظان الضعف، وأن نبين أي الشاعرين أبرع لفظاً، وأشرف معنىً، وأسمى خيالا

والحصري – بضم الحاء المهملة وسكون الصاد المهملة وبعدها راء

مهملة — هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرىء الضرير القيرواني وهو ابن خالة أبي اسحق الحصري صاحب كتاب زهر الآداب . وقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أن أبا الحسن الحصري كان بحر براعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، وأنه طرأ على الاندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان ، والأدب بأفق الأندلس يومئذ نافِقُ السوق ، معمور الطريق ، فتهاداه ملوك الطوائف تهاديَ الرياض بالنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم

ولكنه فيما تقل لم يطمئن هناك ، فاحتمل على مضض بين زمانه ، وبعد قطره ، ثم اشتملت عليه مدينة طنجه بعد خلع ملوك الطوائف وتوفى بها رحمه الله ، سنة ٤٨٨ هجرية

وله قصيدة طويلة في قراءات نافع ، وله ديوان شعر ، (١) وهو القائل

أقول له وقد حيًّا بكأس ... لها من مِسْك رِقتهِ ختامُ
أمن خدَّيك تُعصر ؟ قال كلاَّ ... متى عُصرتْ من الورد المدامُ

ويقول ابن بسام في وصفه «على أنه كان فيما بلغني ضيِّق العطَن ، مشهور اللَّسَن ، يتلفَّت الى الهجاء ، تلفُّت الظمآن الى الماء » وكنا نود لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد ، فان كلمة ابن بسام لا تفيد غير الظن ، وأين الظن من اليقين !

ويمكن الحكم بأنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية ، فان التأليف في علم القراءات يدل على ذلك ، ويمكن الحكم أيضاً بأنه كان بصيراً بشئون الحياة ، فان في الاغتراب وصحبة الملوك عوناً على فهم دقائق الوجود

(١) راجع وفيات الاعيان

أما شوقي فشاعر معروف في مصر والشرق ، وله كلف بمعارضة القدماء ، وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية ، وبصيرٌ بشئون الحياة، وهو كالحصري افتتح قصيدته بالنسيب، واختتمها بالمديح ، ولكني سأقتصر في الموازنة على صدر القصيدتين إذ كان النسيب هو السبب فيما يرجى لهما من الخلود ، إن كان لهذا العالم حظ من الخلود

(قصيدة الحصري)

يا ليل الصب متى غدهُ　　أقيام الساعة موعده
رقد السُّمار وأرقهُ　　أسفٌ للبين يردده
فبكاه النجم ورقّ لهُ　　مما يرعاه ويرصده
كَلِفٌ بغزال ذي هَيَف　　خوف الواشين يشرِّدُه
نصبت عيناي له شركا　　في النوم فعزَّ تصيده
وكفي عجباً أني قَنِصٌ　　للسِّرب سباني أغيده
صنم للفتنة منتصبٌ　　أهواه ولا أتعبَّده
صاحٍ والخمر جنى فمهِ　　سكران اللحظ معربدهُ
ينضو من مقلته سيفاً　　وكأن نُعاساً يُغمدهُ
فيُريق دم العشاق بهِ　　والويل لمن يتقلّدهُ
كلا لا ذنب لمن قتلت　　عيناه ولم تقتل يده

***

يا من جحدتْ عيناه دمي　　وعلى خدَّيه تورُّدهُ
خداك قد اعترفا بدمي　　فعلام جفونك تجحدهُ
اني لأعيذك من قتلي　　وأظنك لا تتعمّده

بالله هَب المشتاق كرى فلعل خيالك يُسعده
ماضرك لو داويت ضني صبّ يُدنيك وتُبعده
لم يُبق هواك له رَمقاً فليبك عليه عُوَّده
وغداً يقضي أو بعد غد هل من نظر يتزوّده

***

يا أهل الشوق لنا شرَقٌ بالدمع يفيض مورّده
يهوى المشتاق لقاءكمو وصروف الدهر تبعّده
ما أحلى الوصل وأعذبهُ لولا الأيام تنكّدُهُ
بالبين وبالهجران فيا لفؤادي كيف تجلّدهُ

(قصيدة شوقي)

مضناك جفاه مرقدهُ وبكاه ورحّم عُوَّدهُ
حيرانُ القلب معذبهُ مقروح الجفن مسهّده
أودى حُرَقاً إلا رمقاً يُبقيه عليك وتنفدُه
يستهوى الوُرق تأوههُ ويذيب الصخر تنهده
ويناجي النجم ويتبعهُ ويقيم الليل ويقعده
ويعلّم كل مُطوّقةٍ شجناً في الدّوح تردّده
كم مدَّ لطيفك من شَرَكٍ وتأدّبَ لا يتصيّده
فعساك بغمض مُسعفه واعل خيالك مُسعده
الحسنُ حلفت بيوسفهِ والسورة أنك مُفرده
قد ودّجمالك أو قبساً حوراء الخلد وأمرده
وتمنّت كل مقطّعة يدها لو تبعث تشهده

جحدت عيناك زكيّ دمي | أكذلك خدك يجحده
قد عز شهودي إذ رمتا | فأشرت لخدك اشهده
وهممت بجيدك أشركهُ | فأبى واستكبر أصيدُه
وهززت قوامك أعطفهُ | فنبا وتمنّع أملده
سببٌ لرضاك أُمهّدهُ | ما بال الخصر يعقده
بيني في الحب وبينك ما | لا يقدر واش يُفسده
ما بال العاذل يفتح لى | باب السلوان وأوصده
ويقول تكاد تجنّ به | فاقول وأوشك أعبده
مولاى وروحي في يده | قد ضيعها سلمت يده
ناقوس القلب يدق لهُ | وحنايا الاضلاع معبَده
حُسّادى فيه أعذرهم | وأحق بعذرى حُسّده

***

قسما بثنايا لؤلؤها | قسم الياقوت منضّدهُ
ورضاب يوعَدُ كوثرَهُ | مقتول العشق ومُشهده
وبخالٍ كاد يُحجّ لهُ | لو كان يقبّل أسودُه
وقوامٍ يروى الغصن لهُ | نسباً والرمح يفنده
وبخصر أوهن من جلدى | وعوادى الهجر تبدّده
ماخنت هواك ولاخطرت | سلوَى بالقلب تبرده

(الموازنة)

ولنذكر أولاً ما في القصيدتين من الأغراض ، وانا لنجد الحصرى تكلم عن طول الليل ، وطيف الخيال ، وخمر الرضاب ، وسيف المقلة ،

وجناية العين ، وحمرة الخد ، واستعطاف الحبيب ، وفناء المحب ، ونجد شوقى تكلم عن لوعة المضنيِ، وطيف الخيال ، وجمال المحبوب ، وجناية العين وحسن القد والجيد ، ودقة الخصر ، والصبر على الوشاة ، وتفدية الحبيب والرفق بالحساد ، والحرص على الحب ، والبراءة من السلوان ، فقصيدة شوقى اذاً أحفل بالاغراض

(مواطن الحسن)

ولنوازن بين المطالع . وانا لنجد الحصرى يقول

يا ليل الصب متى غدهُ — أقيام الساعة موعدهُ
رقد السُّمار وأرقهُ — أسفٌ للبين يردده
فبكاه النجم ورق لهُ — مما يرعاه ويرصده

ونجد شوقى يقول

مضناك جفاه مرقدهُ — وبكاه ورحّم عُوَّده
حيران القلب معذبهُ — مقروح الجفن مسهده
أودي حُرقاً إلا رمقاً — يبقيه عليك وتنفده
يستهوي الورق تأوهُهُ — ويذيب الصخر تنهده
ويناجي النجم ويتبعهُ — ويُقيم الليل ويُقعده
ويعلّم كل مطوقة — شجناً في الدوح ترَدده

والمطلع في رأينا هو أول صورة شعرية ، لا أول بيت ، ومطلع شوقي أوفى وأروع من مطلع الحصري، وخطاب الحبيب في قول شوقي

مضناك جفاه مرقده — وبكاه ورحم عُوَّده

أرق من خطاب الليل في قول الحصري

يا ليل الصب متى غدهُ　　أقيام الساعة موعده

وقول شوقي في حيرة المحب وعذابه وفنائه

حيران القلب معذبهُ　　مقروح الجفن مسهده

أودى حرقا الا رمقاً　　يبقيه عليك وتنفده

يستهوى الورق تأوهه　　ويذيب الصخر تنهده

هذه الابيات أوفي وأمتع من قول الحصري

رقد السمار وأرقهُ　　أسف للبين يردده

وقول شوقي

ويناجي النجم ويتبعه　　ويقيم الليل ويقعده

أقرب فى صدره الى الواقع من قول الحصري

فبكاه النجم ورق لهُ　　مما يرعاه ويرصده

وقول الحصرى في تصيُّد الطيف

نصبت عيناى له شركاً　　في النوم فعزَّ تصيُّده

وكفي عجباً اني قَنِصٌ　　للسِّرب سباْني اغيده

أبرع من قول شوقى

كم مد لطيفك من شرك　　وتادب لا يتصيّده

فعساك بغمض مسعفه　　ولعل خيالك مسعده

لان الحصرى حدثنا عن حقيقة صادقة وهي تمنُّع الطيف : فليس في طوق المحب ان يظفر بطيف حبيبه كلما مدّ له الاشراك

ولا يعجبني « تأدب » شوقى في قوله

كم مد لطيفك من شرك　　وتأدب لا يتصيّدهُ

لان التأدب هنا ضعف ، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيده لحمدنا له هيبة الحسن ، وإن الحسن لَمهيب الجناب!

ويروقني قول شوقى

مولاىَ وروحي في يدهِ　　قد ضيّعها سلِمتْ يدهُ
ناقوس القلب يدقّ له　　وحنايا الأضلع معبده
حسادى فيه أعذرهم　　وأحقّ بعذرى حُسَّده

فان فيه صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه ويَحنُو عليه ، في ظلمه وعُدوانه ، ولم يعرض الحصرى لمثل هذا المعنى البديع ، وأَخلِقْ بهذه الابيات ان تكون صلاةً للحسن ، ان قضي الله ان نصلى له ، كما يصلى فريق للشمس عند الشروق ، والهوى كما قيل إلٰه معبود، وما أرفق شوقى وأرقه حين يقول

قد ودَّ جمالك أو قبساً　　حوراء الخلد وأمردهُ

فان الحسن لا يُعبد بأرق من هذا الوصف ،وهل العبادة الا وصف المعبود بالتفرد والجلال

وقول الحصرى

صاحٍ والخمر جنىَ فمِهِ　　سكران اللحظ معربدهُ

أروع وأبدع من قول شوقى

ورضاب يوعدُ كوثرهُ　　مقتول العشق ومشهدهُ

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين ، فان بيت الحصرى بيت فذٌّ نادر المثال ، وفيه وحدهُ صورة شعْرِية رائعة، وما رددته الافتنت

بهِ فتنة جديدة ، وظهر لي منه معنى جديد ، كالوجه المشرق لا نهاية لحسنه ، ولا حد لقدرتهِ على تصريف القلوب

ولك أن تتأمل كلمة « جني » في قوله

صاحٍ والخمر جنى فمهِ   سكران اللحْظ معربدهُ

وما هذهِ العربدة يا صاح ؟ انها الأشراك التي يقيدك بها اللحْظ ، وأنت تنهل من وِردهِ العذب الجميل !

وقول شوقي

جحدت عيناك زكي دمي   اكذلك خدك يجحدهُ
قد عز شهودي اذ رمتا   فأشرت لخدك أُشهدهُ

أرق من قول الحصري

يا من جحدتْ عيناهُ دمي   وعلى خديه توردهُ
خداك قد اعترفا بدمي   فعلام جفونك تجحدهُ

لأن الاستفهام في قول شوقي أعطى المعنى شيئاً من الحسن ، وزادهُ تمكيناً في النفس ، على ما فيه من الابتذال

وقد أجاد الحصري في استمطاف الحبيب اذ يقول

لم يبقْ هواك له رمقاً   فليبك عليهِ عُوَّدهُ
وغداً يقضي أو بعد غد   هل من نظر يتزوده

ولا نجد هذه النغمة المحزنة في قصيدة شوقي ، وانها لتذكرنا بهذا البيت الحزين

وأرى الأيام لا تُدني الذي   أرتجي منك وتدني أجلي

(مظان الضعف)

واني لأَستثقل الصنم المنتصب في قول الحصري

صنم للفتنة منتصب   أهواه ولا أتعبّده

لان كلمة « الصنم » كلمة غير شعرية ، والعرب تستملح «الدمية » في وصف المرأة الجميلة ، والدمية هي الصورة المنقّشة من الرخام ، والجمع دُمى ، قال بعض الاعراب

واني لأُهدي بالأوانس كالدمى   واني باطراف القنا لَلَعوبُ

واني على ما كان من عُنْجهيتي   ولوثة أعرابيتي لأديب

وكذلك أستضعف قول الحصرى

ما أحلى الوصل واعذبه   لولا الأيام تنكده

بالبين وبالهجران فيا   لفؤادي كيف تجلّده

وأضعف منه قول شوقي

بيني في الحب وبينك ما   لا يقدر واش يفسده

ما بال العاذل يفتح لي   باب السلوان وأوصده

ولا أدري ما قيمة التعجب في البيت الثاني من هذين البيتين ، وهو لا يزيد شيئاً عن الصوت العامي المشهور « كيد العواذل كايدنى ، بس اسمع شوف » وكذلك لا قيمة لقوله

وبخصر أوهن من جلدى   وعوادي الهجر تبدّده

وهي مبالغة مردودة ، لأَن الذي يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه أن يكون أوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادى الصدود

وقد ظلم شوقي نفسه حين قال

وقوام يروي الغصن له نسباً والرمح يفنده

كما أساء الحصرى الى شعره إذ قال

اني لا عيذك من قتلي وأظنك لا تتعمده

فان هذا خيال فقهاء : لا خيال شعراء!

(روعة الخيال)

وانه ليجمل بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصري وشوقي من الخيال الرائع ، وانا لنستجيد قول الحصرى

ينضو من مقلته سيفاً وكأن نعاساً يغمده

فيريق دم العشاق بهِ والويل لمن يتقلده

كلا لا ذنب لمن قتلت عيناه ولم تقتل يده

وان البيت الاول لِمَنْ وثبات الخيال ، وفى البيت الثانى ضعف والثالث مع ضعفه مستملح مقبول . ونستجيد كذلك قول شوقي

ناقوس القلب يدق لهُ وحنايا الاضلع معبدهُ

وللقارىء أن يلومنا فى استجادة هذا البيت وان يذكر أن هذا ايضاً خيال فقهاء ، لا خيال شعراء ، ولنا أن نذكر القارىء بأن المعابد والنواقيس من الالفاظ التي استملحها العرب ، لكثرة ما تحدث عنها الشعراء وهم يتغنون بعالم اللهو وملاعب الشباب ، ولهم فى الاديار شعر ممتع عنيت بتفصيله في غير هذا الحديث [١] وكذلك ظرف شوقي حين تحدث عن المعبد والناقوس ،وكان خياله قريباً في الحسن من خيال الحصرى، إذ توهم اللحظ سيفاً يكاد يُغمده النعاس ، واني لمفتون بهذا الخيال

(١) تجد هذا البحث في كتاب « أثر الشعر في ربط الشعوب »

(البراعة في تناول المعانى)

وانا انرى شوقي أبرع من الحصرى في تناول المعانى ، ومن السهل ان نعلل هذا ، فان الحصري لم يجر في قصيدته إلا على الفطرة ، وكان من ذلك أنْ رَضِيَ بعفو الخاطر،أما شوقي فمعارض من همه أن يظفر بالسبق، وكان من ذلك أنْ عُنِيَ بترتيب المعانى،واختيار الالفاظ، وتنوُّع الاغراض. على ان هذا التكلف لم يمض بلا عيوب ، فانه لا معنى لقول شوقي

وبخال كاد يحج لهُ لو كان يقبل أسودهُ

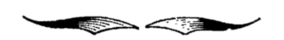
ولا رونق لقوله :

وتمنت كل مقطعة يدها لو تبعث تشهده

***

(الحكم)

وللقارىء — إن شاء الحكم — ان يرجع الي ما أسلفنا القول عنه من مواطن الحسن ،ومظان الضعف ، ومواقع الخيال ، ليرى أى الشاعرين أولى بالسبق ، وأيهما أرجح في الميزان ، وحسبه أن دللناه على ما في القصيدتين من المحاسن والعيوب ، فاننا لا نعني بالاشخاص ، وانما يعنينا ان ندرس الشعر وان نقف على ما فيه من القوة والضعف ، والحسن والقبح ، وكذلك ندرس البيان ونحن نوازن بين الشعراء



البحث الرابع عشر

(البحتري وشوقى)

قلنا إن لشوقى كلفاً بمعارضة المتقدمين من الشعراء ، ووازنا بين داليتهِ ودالية الحصري في الكلمة السابقة، والآن نوازن بينه وبين البحتري، فقد عارض سينيتهُ في وصف إيوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها قصر الحمراء ، ولهاتين القصيدتين قيمة كبيرة ، ومن الخير أن نوازن بينَهما موازنة دقيقة ، ليقف القاريء على ما فيهما من براعة الوصف وحسن البيان

ولنذكر أولاً أن شوقى يتأثر البحتري منذ بعيد ، ويود لو ظفر شعره بتلك الديباجة البحترية ، التي ضربت بها الأمثال

ولننظر كيف يقول في خطاب « أُم المحسنين »

النيل يَجر مشرَعَين وعَيلماً   وتفجرَت يُمناك خمسة أبحرِ
أحييت في فضل الملوك وعزهم   ما مات من أُم الخليفة جعفرِ
إن الذي قد ردَّها وأعادها   في بردتيك أعاد فيَّ البحتري

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء

وعظ البحتريَّ إيوانُ كسرى   وشفتني القصور من عبد شمسِ

(حياة البحترى)

وُلد أبو عُبادة الوليد بن عبيد البحتري في سنة ٢٠٦ هـ بمنبج بين حلب والفرات

ومنبج – بالفتح ثم السكون وباء موحدة مكسورة وجيم – بلد قديم طيب الهواء ، وُلد فيه جماعة من فرسان البلاغة : منهم البُحتري وأبو فراس ، ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذي قال له الرشيد لما دخل منبج : أهذا منزلك ؟ قال : هو لك ، ولي بك يا أمير المؤمنين قال : كيف بناؤه ، قال دون منازل أهلي ، وفوق منازل الناس ، قال : وكيف ذلك ، وقدرك فوق أقدارهم ؟ قال ذلك خُلُقُ أمير المؤمنين . أتأسّى به ، وأقفو أثره ، وأحذو حذوه ، قال : فكيف طيب منبج ؟ قال عذبة الماء ، طيبة الهواء ، قليلة الادواء ، قال : فكيف ليلها ؟ قال : سَحَرٌ كله !

وفي التشوق إلى منبج يقول ابراهيم بن المدبّر وقد خلّى بها شُعبة من فؤاده

وليلة عين المرج زار خيالهُ فهيّجَ لي شوقاً وجدّد أحزاني
فأشرفت أعلى الدير أنظر طامحاً بألمح آماقٍ وأنظر إنسانِ
لعلي أرى أبيات مَنبجٍ رؤيةً
تسكّن من وجدي وتكشف أشجاني
فقصّر طرفي واستهلّ بعبرة وفدّيت من لو كان يدري لفدّاني
ومثّلهُ شوقي اليه مقابلي وناجاه عني بالضمير وناجاني

وانما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبج لتدرك بعض السر في رقة البحتري وجمال شعره ، ، فان للبلد الطيب الهواء ، العذب الماء ، القايل الأدواء ، أثراً كبيراً في تكوين نفس الشاعر ، والكاتب ، والخطيب ، ولأن البحتري كان كثير الحنين إلى منبج ، وكان كثيراً ما يشيد بها في شعره ،

ولننظر كيف يقول فى خطابِ أبي جعفر محمد بن حميد الطوسي

لا أنسَيَنْ زمناً لديك مهذَّباً ... وظلال عيش كان عندك سجسجِ
فى نعمة أوطنتها وسكنت في ... أفيائها فكأنني في منبجِ

(بداية حياته)

شبَّ البحترى وترعرع في منَبج ، وكان يمدح بها فيما يقولون أصحاب البصل والباذنجان !! قالوا « وكان منه ما كان في علوَة التي شبَّبَ بها فى كثير من أشعاره ، وهي بنت زريقة الحلبية ، وزريقة أُمها ، ويظهر من هذهِ الكلمة أن زريقة الحلبية أم علْوَة كان لها شأن في عالم الجمال ، وأن البحترى حين أُغرم بعلوة لم يرم فؤادهُ إلا بين يدى فتاة لعوب ، نشأتْ في مهد المرَح ، وتقلبت فوق أعطافِ الدلال . ولو أن العرب لم ينصرفوا عنِ التصويرِ لخلّفوا لنا دُميةً لعلوة ، وأرونا كيف كانت هذه الفتاة التي أضرمت نار الوجد في صدر الوليد ، وعلّمته كيف تكون الشكوى ، وكيف يكون الانين ؛ وإن الشعر لمدين لهذه الالِهَة التي أوحت الى البحترى أن يقول بعد أن خلاَّها بالشام وسكن العراق

أعيدي فيَّ نظرة مُستثيب ... توخّى الأجر أو كره الأثاما
تريْ كبداً محرقة وعيناً ... مؤرّقة وقلباً مستهاما
أُلام على هواكِ وليس عدلاً ... اذا احببت مثلك ان أُلاما
لقد حرّمتِ من وصلي حلالا ... وقد حللت من هجري حراما
تناءت دار عَلوة بعد قرب ... فهل ركبٌ يبلّغها السلاما
وجدّد طيفها عَتباً علينا ... فما يعتادنا إلا لِماما
ورُبَّتَ ليلة قد بت أُسقى ... بعينها وكفها المداما

قطعنا الليل لثماً واعتناقاً ... وأفنيناه ضماً والتزاما
لئن أضحت محلتنا عراقاً ... مشرّقة وحلّتها شآما
فلم أحدث لها إلا وداداً ... ولم أزدد بها الا غراماً

وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحترى سلطان. ومن الوقار أن لا نعرض لها في هذا الحديث، وقد بسطنا عنها القول فى كتاب «مدامع العشاق» ويكفي أن نذكر أنموذجاً من شعره فى وصف تلك النفس، وإنه ليقول

هل لى سبيل إلى الظهران من حلب ... ونشوة بين ذاك الورد والآسِ
أمدكني لأخذ الكاس من رشأ ... وحاجتي كلها في حامل الكاسِ
بقرب أنفاسه أشفي الغليل اذا ... دنا فقربها من حر أنفاسي

(اتصاله بأبي تمام)

ولعل أظهر حادث نقل البحترى من عهد إلى عهد، هو اتصاله بأبي تمام أمير الشعراء فى ذلك الحين، فقد صار اليه وهو بحمص وعرض عليه شعره، وكان أبو تمام يجلس فلا يبقى شاعر إلا قصده، وعرض عليه شعره، فلما سمع شعر البحترى أقبل عليه، وترك سائر الناس، فلما تفرقوا قال له: أنت أشعر من أنشدني، فكيف حالك؟ فشكا اليه خلة، فكتب إلى أهل معرة النعمان يشهد له بالحذق ويوصيهم بإكرامه. قال البحترى «فأكرموني بكتابه. ووظفوا لى أربعة آلاف درهم، فكانت أول مال أصبته» وقال البحترى: أنشدت أبا تمام شيئاً من شعرى، فأنشدني بيت أوس بن حجر

اذا مقْرِمٌ منا ذرَى حدّ نابهِ ... تخمّط فينا ناب آخر مقرمِ

وقال : نعيت إليّ نفسي ! فقلت : أعيذك بالله من هـذا ! فقال ان عمري ليس بطول وقد نشأ لطيء مثلك. أما علمت أن خالد بن صفوان المنقري رأى شبيب بن شبة وهو يتكلم ، وهو من رهطه ، فقال يا بني ، نعى نفسي الىّ إحسانك في كلامك، لأنّا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله ، قال : فمات أبو تمام بعد سنة من هذا

وهذه بالطبع وسوسة من أبي تمام ، ولكنها شاهد على حسن رأيه في شعر البحتري ، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر ، حتى قالوا إنهُ في اختياره أبلغ منه في شعره

وقال البحتري . أنشدت أبا تمام شعراً لى في بعض بني حميد وصلت به إلى مال له خطر ، فقال لى « أحسنت ، أنت أمير الشعراء بعدي » فكان قوله أحب إلىّ من جميع ما حويته

ولا يفوتنا أن نذكر وصية أبي تمام للبحتري ، فقد نوّه بها ابن رشيق ، وساقها صاحب زهر الآداب ، وهي تدلنا على رأي أبي تمام في نظم الشعر وذوقه في اختيار الأوقات ، وتدلنا كذلك على أسلوب البحتري في حياته الأدبية ، فقد ساس نفسه بما أوصاه به أستاذه ، وفيها أيضاً نوع من التربية نحب أن نسجله في هذا الحديث

قال البحتري : كنت في حداثتي أروم الشعر ، وكنت أرجع فيهِ إلى طبعي ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ، ووجوه اقتضابه ، حتى قصدت أبا تمام ، وانقطعت فيه اليه ، واتكلت في تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة ، تخير الأوقات ، وأنت قليل الهموم ، صِفر من الغموم ، واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان

لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم . وان أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، فاذا أخذت في مديح سيد ذي أياد ، فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرف مقامه ، ونضد المعاني ، واحذر المجهول منها ، واياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجساد ، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل شعرك الا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك الى الشعر الذريعة الى حسن نظمه ، فان الشهوة نعم المعين ، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله

قال البحتري : فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة (١) »

ولهذه الوصية أغراض ، يرجع بعضها الى رياضة النفس ، تأهباً للقريض ، ويرجع بعضها الى جوهر الفن ، أما فيما يرجع الى رياضة النفس فأبو تمام مسبوق بطائفة من الشعراء والخطباء ، أوصوا باختيار الأوقات التي تصفو فيها النفس ، ويلطف الحس ، ويستيقظ الوجدان ، ومنهم من دعا الى الاستنجاد بالمياه الجارية ، والرياض الحالية ، والأماكن الخالية ، الا أن أبا تمام — مع أنه مسبوق — وُفِّقَ كل التوفيق حين قال « واجعل شهوتك الى الشعر الذريعة الى حسن نظمه ، فان الشهوة نعم المعين » وهذه كلمة فاصلة في حياة الفنانين على الاطلاق ، سواء أكانوا شعراء أم

« ١ » السياسة هنا حسن التدبير

كتاباً أم مصورين أو مثّالين ، لأن الاجادة في الفنون تتوقف على الشهوة ، وأ كاد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد ، الا إن كان لهمن فنه معبود جديد

وأما فيما يرجع الى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية بالنسيب والمديح ، وسكت عن بقية الأغراض التى يهتم بها الشعراء ، فلم يتكلم عن الرثاء ، ولا الهجاء ، ولا الفخر ، ولا الوصف ، مع أن الوصف من أهم ما يعني به الشعراء ، ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التي تنطبق على كل موضوع اذ قال « ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » وهي كلمة دقيقة على ما فيها من الابتذال

ولا يحسبنّ القاريء أن في إقبال البحتري على ما أوصاه به استاذه دليلاً على أن شعر أبي تمام وشعر البحتري من نمط واحد . . كلا ! فان أبا تمام في وصيته يمثل الاستاذ ، ولا يمثل الشاعر ، لأنا لو حاكمنا شعره الى وصيته لراعنا ما بين المنزعين من الفرق البعيد، ولاسيما فيما يتعلق بالتشبيب فان أبا تمام لم يتغن بالحسن الا قليلاً ، وحظه من صدق اللوعة ضئيل

ومهما يكن من شيء — كما يعبر استاذنا الدكتور طه حسين — فان في عناية البحتري بوصية استاذه بياناً لاسلوبه في رياضة نفسه وتهذيب شعره ، فلننظر بهذه المناسبة ، كيف يروض شوقي نفسه ، وكيف يهذب شعره ، وكيف يتناول ما يقصد الى نظمه من شتى الأغراض، فقد صحبنا شوقي وعاصرناه ، وهو بحمد الله يعيش معنا في مدينة واحدة ، وقد نقرأ عليه سينيته في قصر الحمراء قبل أن نضعها في الميزان، وإنا لنزن بالقسطاس المستقيم ! —

صاحب شوقى ، إن شئت ، فستراه قليل الحديث، وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع ، لهذا الرجل الصموت، وقد تصفهُ بالتواضع كما وصفهُ كثير من المتأدبين ، ولكني وقد عرفت شوقى ، احكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليلى . وليلاه هي الشعر ، وهو بالشعر مجنون ، لا مغرم ولا مفتون ، فان الغرام والفتنة من أيسر ما يعرض لأرباب القلوب

يحدثك شوقي حديثاً عادياً لا روعة له ، ولكنه لا ينفك يدور بنظرته الحائرة ، وكأنه يبحث عن شيء فى لفائف قلبه ، وحنايا نفسهِ : وأعماق ضميره — دخلت عليه وهو يتأهب لرثاء الصوفاني بك ، فأخذ يحدثني عن الجامعة المصرية ونظامها الجديد ، ثم بغتني بهذه الكلمة : « الصوفاني بك معضلة من المعضلات ، هو تمثال اخلاص ، ولكن هل له عقل الفلاسفة والزعماء » فعرفت أن الرجل في واد آخر غير الحديث عن الجامعة المصرية ، وأن قلبه ، ونفسه ، وحسه ، ووجدانه ، في شغل بما يعده لرثاء الصوفاني بك « تمثال الإخلاص » وعرفت أنهُ لا بد أن يقول شيئاً فى تحديد تلك الشخصية، ثم انتظرت يوم التأبين فاذا هو يقول عن أثر الفقيد في المجالس النيابية

ما كان قساً ولا زياداً ولا بسحر البيان جاء
لكن إذا قام قال صدقاً وجانبَ الزور والرياء

وقد وصفهُ الاستاذ خليل مطران وصفاً صادقاً حين قال «ينظم بين اصحابه فيكون معهم وليس معهم، وينظم في المركبة ، وفي السكة الحديدية وفي المجتمع الرسمي ، وحين يشاء وحيث يشاء ، ولا يعرف جليسه أنه

ينظم الا إذا سمع منه باديء بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد، ثم رأى ناظريه وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين، ثم بصُرَ بهِ وقد رفع يده إلى جبينه ، وأمرّها عليهِ إمراراً خفيفاً هنيهة بعد هنيهة — فاذا فوطع في خلال النظم انتقل إلى أي بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه ، جميل البادرة ، كعادتهِ في الحديث — ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد اليه كأنهُ لم ينقطع عنهُ مستظهراً ما تم منهُ حافظاً لبقية المعنى الذي يضمره ، يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهراً، ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة — يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين ولا يندر عليه أن يبزهم — لا يجهد فكره ولا يكده في معني أو مبنى، فأما المعنى فيجيئه على مرامه أو على أبعد من مرامهِ ، ولا ينضب عنده لأنه يستخلصهُ من عقل فوّار الذكاء ، ومعارف جامعة الى أفانين الآداب في لغات الافرنج والأعراب ، فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ ،وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير ، إلى مشاركات علمية ، وتنبيهات فنية ، استقاها من مطالعته في صنوف الكتب ،واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب . وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول ، ترى فيهِ من نسج البحتري ، ومن صياغة أبي تمام، ومن وثبات المتنبي ، ومن مفاجآت الشريف، ومن مسلسلات مهيار،وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم وهي انهُ نظم شوقى ، ذلك شعر العبقرية والتفوق »

وإذ ذكرنا عادة البحترى وشوقى في قرض الشعر ، فلنذكر كذلك أنهما يشتركان في العناية بالآداب العربية ، فقد ترك البحتري كتاباً سماه

«معاني الشعر» وترك كتاباً آخر في الحماسة كالذي تركه أبو تمام، ولكنهُ يمتاز عنهُ بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات . وشوقي : وان لم يصنف كتباً في الآداب ، يقرأ ويدرس بشراهـة تفوق الوصف ، ويتعقب الحركة الأدبية بنشاط عجيب . ويختلفان في انشاد الشعر والإشادة بهِ ، فقد كان البحتري يحتفي بانشاد شعره، ويسلك في ذلك مسلك التلحين والتطريب كان يطيل النظر في وجوه الحاضرين ، ليرى مبلغ إعجابهم به ، وإكبارهم له ، حتى نفر النـاس منه ، وعبث بهِ أهل السـفهِ وأصحاب المجون . أما شوقي : فقلما يتحدث عن شعره ، وقلما ينشده ، وإنما يوكل بانشاده من يتوسم فيهِ حسن الفهم ، وحسن الأداء . وهذا المسلك ، مع ما فيه من دلائل الحياء ، أو الشمم ، غير مأمون العواقب ، وكثيراً ما آذى الشاعر وعاد عليه بالضرر البليغ ، وعفا الله عن فلان وفلان !

(وفاء البحتري وشوقي)

ولقد كانت الشـاعرية ، ولا تزال ، دالة على سمو النفس ، ويقظة الوجدان ، والحوادث هي التى تميز عناصر النفوس ، وقد وقع للبحتري وشوقي من كبـار الحوادث ما ظهر معه ما لهما من قوة النفس ، ومتانة الخلق، وكرم العنصر ، ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقي ! فلنكتف بهذا التلميح ، ولنذكر ما صيَّرَ البحتري مثلاً في الوفاء

كان المتوكل - كما ذكر صاحب زهر الآداب — عقد لولده المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد ، ثم تغير على المنتصر دون أخويه ، وكان يسميهِ المنتظر ، ويقول له : أنت تتمنّى موتي، وتنتظر وقتي ! ويأمر الندماء أن يعبثوا بهِ ، إلى أن أوغر صدره ، وأقلّ صبره، فلما كانت ليلة الأربعاء

لثلاث خلون من شوال سنة سبع واربعين ومائتين ، كان المتوكل يشرب مع الفتح في قصره المعروف بالجعفرى ، ومعهُ جماعة من الندماء والمغنين ، وكان المنتصر معهم ، فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل ، قال لزرافة التركي : ألا تسمعني ساعة حتى أشكو اليك ما يعروني ؟ قال بلى . وجعل يماطله ويطاوله ، وغلّقَ بُغَا الشرابي الأبواب كلها إلا باب الماء ، ومنهُ دخل الذين قتلوا المتوكل ، وقد ضربوه ضربة قُطع بها حبل عاتقه ، وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه ، فقتلا جميعاً ، وبويع المنتصر من ساعته ، قال الحصرى « وكانت مدة المنتصر في الخلافة مدة شيرويه بن كسرى حين قتل أباه ستة أشهر » — وللظالم الويل !

كانت هذه القتلة الشنيعة التي تردّى بها خليفة من خلفاء المسلمين وكان هذا الخليفة ولي نعمة البحترى ، وكان استبداد المنتصر اذ ذاك كافياً فى ردعهِ عن رثاء مولاه ، ولكنهُ رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس ثعلب بقوله « ما قيلت هاشمية أحسن منها ؛ وقد صرح فيها تصريح من أذهلتهُ المصائب ، عن تخوف العواقب » وفيها يقول :

تغيَّرَ حسن الجعفري وأُنسهُ وقوّض بادي الجعفري وحاضرُهْ
تحمّلَ عنهُ ساكنوه فجاءةً فعادت سواءً دوره ومقابرُهْ
ولم أر مثل القصر إذ ريع سربهُ وإذ ذُعرت أطلاؤهُ وجآذره
وإذ صيح فيهِ بالرحيل فهتّكت على عجَل أستارهُ وستائره
إذا نحن زرناه أجدَّ لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
فأين عميد الناس في كل نوبةٍ تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره
تخفّىَ له مغتاله تحت غرةٍ وأولى لمن يغتاله لو يجاهره

صريع تقاضاه السيوف حُشاشةً يجود بها والموتُ حُمرٌ أظافره
حرام عليّ الراح بعدك أو أرى دماً بدم يَجري على الأرض مائره
وهل يُرتجى أن يطلب الدمَ طالبٌ مدى الدهر والموتور بالدم واتره
فلا مليَّ الباقي تراث الذي مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ونظرة واحدة إلى ما كان يجري في تلك العصور من الظلم والاضطهاد تريك أن البحتري كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة ، على أنهُ لم يقف عند هذا الحد ، بل كان يرتاح في كثير من شعرهِ الى ذكر المتوكل والفتح بن خاقان ، وانظر كيف يفيض شعره بالأسى وهو يقول لبعض من يمدحهُ :

تداركني الإحسان منك ونالني على فاقة ذاك الندى والتطوُّلُ
ودافعت عني حين لا الفتح يُرتجي لدفع الأذى عني ولا المتوكل

وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية

مضى جعفر وَالفتح بين موَسَّد وبين قتيـل في الدماء مضرَّجِ
أأطلب أنصاراً على الدهر بعد ما ثوى منهما في الترب أوسي وخزرجي

وانظر كيف يقول وقد بان بعض من يهوى

عسى آيس من رجعة الوصل يوصلُ ودهرٌ تولى بالأحبة يُقبِلُ
أيا سكناً فات الفراق بنفسهِ وحال التعادي دونهُ والتَّزَيُّلُ
أتعجب لمّا لم يفُلْ جسميَ الضنا ولم يخترم نفسي الحمام المعجل
فقبلك بان الفتح عني مودعاً وفارقني شفعاً له المتوكل
فما بلغ الدمع الذي كنت أرتجي ولا فعل الوجد الذي خلت يفعل
وما كل نيران الجوى تقتل الحشا وما كل أدواء الصبابة تقتل

تلك هي نفس البحتري ، الذي عذبته علوة في بداية حياته ، وصهره الحزن على المتوكل في أخريات أيامه ، وقد عرف القارىء عنهُ شيئاً فيه بعض الغناء ، وعرف كذلك ما بينه وبين شوقي من الاختلاف والائتلاف ومن الواجب أن يعرف منهج هذين الشاعرين في بكاء الممالك ، والتفجع لنكبات الشعوب ، قبل أن يرى كيف وصف البحتري ايوان كسرى ، وكيف وصف شوقي قصر الحمراء

البحث الخامس عشر

« بكاء الممالك عند البحترى وشوقي »

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية ، لا اجتماعية ، فكان الشاعر يبكي وجده ونعيمه ، وهو يندبُ الرسوم ويتوجع للطلول ، ولم يهتم العرب ببكاء الممالك ، والتفجع للشعوب ، إذ كانوا في بداية الحياة ، وكان الرجل منهم قلما يُعنى بغير نفسه ، وأهله ، وذويه ، فكانوا في شغل بأنفسهم عن بلايا الإنسانية ، التي تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون

ثم جاء القرآن فسلك في الحديث عن الممالك البائدة، مسلك التخويف والترهيب ، فلم يعطف عليها بكلمة، ولم يستر لها عورة ، لأن القرآن لم يكن كتاب شعر ، يرمي إلى روعة الفن وجمال الخيال ، وإنما كان كتاب حكمة وعظة ، فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ؟ كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق ، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا

فأخذهم الله ، إنه قويٌّ شديد العقاب » ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية ، لكان له شأن غير هذا الشأن، وهو يتحدث عن فرعون وإبليس ، ومن اليهم من الجبابرة والطغاة، فقد جرى حديثه عنهم مجرى الشماتة ، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يغيض ، لو كان القرآن كتاب فن وكتاب خيال

على أن العرب لم يغفلوا عن الإشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة ولم يفتهم التغني بما كان لأسلافهم من ضخامة المدنية ، وإن شابوا ذلك بالتحسر على ما درس من معالم اللهو ، والتحزن لما عفا من ملاعب الشباب ، فمن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي :

نام الخليُّ وما أُحس رقادى ... والهم محتضر لدىَّ وسادي
من غير ما سقم ولكن شفنى ... همٌّ أراه قد أصابَ فؤادى
ومن الحوادث لا أبالك انني ... ضُرِبَتْ علىَّ الأرض بالأسداد
لا أهتدى فيها لموضع تلعة ... بين العراق وبين أرض مرادِ
ولقد علمت سوى الذى نبأتني ... ان السبيل سبيل ذى الأعواد
إن المنيـة والحتوف كلاهما ... يوفي المخارم يرقبان سوادى
لن يرضيا مني وفاء رهينةٍ ... من دون نفسي طارفي وتلادى

ثم يقول في بكاء من ساد من الذاهبين :

ما ذا أؤمل بعـد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذى الشرفات من سنداد
أرض تخيَّرَها لطيب مقيلها ... كعب بن مامةَ وابن أُم دُواد
جرَتِ الرياح على مكان ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعـاد

ولقد غنَوا فيها بأنعم عيشةٍ   في ظل ملك ثابت الأوتاد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهمو   ماء الفرات يجيء من أطواد
فإذا النعيم وكل ما يُلهى بهِ   يوماً يصير الى بلِىً ونفاد

ثم عاد الى بكاء شبابه فقال :

إما تريني قد بليت وغاضني   ما نيل من بصرى ومن أجلادى
وعصيت أصحاب الصبابة والصبا   وأطعت عاذلتي ولان قيادى
فلقد أروح على التجار مرجّلاً   مذلاً بمالي ليناً أجيادى
ولقد لهوت وللشباب لذاذةٌ   بسلافة مزجت بماء غواد
من خمر ذى نطف أغنَّ منُطّقٍ   وافى بها لدراهم الأمجاد
يسعى بها ذو تومتين مشمر   قنأت أنامله من الفرصاد
والبيضُ يرمين القلوبَ كأنها   أُدحيُّ بين صريمةٍ وجماد
ينطقن معروفاً وهنّ نواعمٌ   بيض الوجوه رقيقة الأكبادِ

ونحا هذا المنحى متمم بن نويرة في عينيته التي يقول فيها :

ولقد علمت ولا محالة أنني   للحادثات فهل تريني أجزع
أفنين عاداً ثم آل محرق   فتركنهم بَدَداً وما قد جمّعوا
ولهن كان الحارثان كلاهما   ولهن كان أخو المصانع تبّع
لا بد من تلف مصيب فانتظر   أبأرض قومك أم بأخرى تصرع
وليأتين عليك يوم مرة   يُبكى عليك مقنعاً لا تسمع

وكذلك نجد في خطب العرب وأشعارهم شذرات في التوجع لما انقرض من الممالك والشعوب ، ولكنها لا تمثل الوقفات الفنية التي تشد

اليها الرحال ، كوقفة البحترى عند رسوم الإيوان ، ووقفة شوقى عند أطلال الحمراء

(إيوانُ كسرى)

وقد يجمل أن نذكر أن إيوان كسرى ، الذي استلم البحتري أحجاره ، وطاف بأركانه ، كان مضرب المثل عند الأعرابِ ، فقد قيل لأعرابي : كيف تصنع بالبادية إذا انتصفَ النهار ، واتعل كل شيء ظله ؟ فأجاب وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشي أحدنا ميلا فيرفضُ عرقاً كأنهُ الجمان ، ثم ينصب عصاه ، ويلقي عليها كساءه ، وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه في إيوان كسرى ! وقد حكى فيما نقل ياقوت أن المنصور لما أراد بناء بغداد استشار خالد بن برمك في هدم الإيوان وإدخال آلته في عمارة بغداد ، فقال له : لا تفعل يا أمير المؤمنين ! فقال : أبيت إلا التعصب للفرس ! فقال ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين ، ولكنه أثر عظيم يدل على أن ملة وديناً وقوماً أذهبوا مُلك بانيه ، لدينٌ وملكٌ عظيمٌ ، فلم يصغ إلى رأيه وأمر بهدمهِ ، فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة بنقضه فتركه. فقال خالد: الآن أرى يا أمير المؤمنين أن تهدمه، لئلا يقال إنك عجزت عن خراب ما عمره غيرك ، ومعلوم ما بين الخراب، والعمارة !

وقد تكون هذه الحكاية صحيحة وقد تكون خرافة تناقلها الناس، ولكنها على كل حال دليل على منزلة الايوان في صدور العرب لذلك العهد أما قصر الحمراء الذي بكاه شوقي فهو من قصور الأندلس، والأندلس هي الفردوس المفقود ، الذي يبكيه المسلمون ، ولننتظر فسيحدثنا شوقي عنهُ أصدق الحديث

(نفسية البحتري)

وأُريد بنفسية البحتري ذلك الخاطر الذى استولى عليه حين همّ بوصف الإيوان ، وقد رأيناهُ يذكر لذلك علتين : إحداهما في بداية القصيدة ، والثانية فى النهاية ، أما الأولى فهي الهرب من الهموم، ومن ظلم الاقارب، بالفزع إلى طلول الايوان ، ينسى في أكنافها حزنهُ وبثه ، ويستودعها أساهُ وشَجاه ، وذلك حيث يقول :

صُنت نفسي عما يدنس نفسي ... وترفعت عن جدا كل جِبْسِ (١)
وتماسكت حيث زعزعني الدهـ ... ـر التماساً منهُ لتعسي ونكسي
بُلَغٌ من صُبابة العيش عندى ... طففتها الأيام تطفيفَ بخس
وبعيدٌ ما بين وارد رِفْهٍ ... عَلَلٌ شربه ووارد خِمس (٢)
وكأن الزمان أصبح محمو ... لاً هواه مع الأخس الأخسّ
واشترائي العراق خُطة غَبْنٍ ... بعد بيعي الشآم بيعة وَكْس
لا تَرُزْني مزاولاً لاختباري ... عند هذى البلوى فتنكر مسي (٣)
وقديماً عهدتنى ذا هنات ... آبيات على الدنيئا شُمْسِ
ولقد رابني نُبُوّ ابن عمي ... بعد لين من جانبيهِ وأُنس
وإذا ما جُفيت كنت حَرِيًّا ... أن أُرى غير مُصْبِحٍ حيث أُمسي

ثم انتقل الى الموضوع مباشرة فقال :

حضرت رحليَ الهموم فوجهـ ... ـت إلى أبيض المدائن عَنسي
أتسلّى عن الحظوظ وآسي ... لمحل من آل ساسان دَرْسِ
ذكرتنيهم الخطوب التوالي ... ولقد تُذْكِر الخطوبُ وتُنسي

---

(١) الجبس : هو الدنيء الجبان (٢) الخمس : شر الاظماء (٣) لا ترزني : لاتمتحني

ونراه في نهاية القصيدة يذكر أنهُ بكى الايوان وليست الدار داره ولا الجنس جنسه ، لأن لأهله نعمى عند أهله ، ولأنهم أيدوا ملكهم وشدوا قواه ، بما أمدوهم به من الكتائب في أيام القتال، وذلك حيث يقول

عمِّرَت للسرور دهراً وصارت للتعزى رباعهم وَالتأسي
فلها أَن أُعينها بدموع مُوقفات على الصبابة حبْسِ
ذاكَ عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنسُ جنسي
غير نُعمى لأهلها عند أهلي غرسوا من ذكائها خير غرس
أيَّدُوا ملكنا وشدوا قُوَاهُ بكُمَاة تحت السّنوَّرِ حُمْسِ (١)
وأعانوا على كتائب أريا ط بطعن على النحور وَدَعْسِ
وأراني من بعدُ أكلَف بالاشرا فِ طراً من كل سِنْخ وأُسِ

وفي هذا البيت الأخير يذكر أنهُ يكلف بالاشراف من كل جنْس ، ويبكي المجد الذاهب وإن تقطعت بينه وبين أهله الأسباب

(نفسية شوقي)

أما شوقي فقد حدثنا عن خاطره حين هم بوصف الحمراء ، فترك لنا قطعة منثورة تصف لنا حسه ووجدانه وهو يطوف بذلك البيت . وقد سلك شوقي هذا المسلك غير مرة ، فانا نراه تقدم قصيدته في وصف رومة برسالة بعث بها الى أستاذنا الجليل اسماعيل بك رأفت ، ونجده فعل مثل ذلك حين قدم للاستاذ مرجليوث قصيدتهُ في وصف النيل . وإلى القارىء كلمته عن رحلته إلى وطن ابن خفاجة وابن زيدون

« لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها ، وفضحها الله بين خلقه

(١) السنور : السلاح

وهتك إزارها ، ورمّ لهم ربوع السلم وجدد مزارها ، أصبحت واذا العوادى مقصرة ، والدواعي غير مقصرة ، واذا الشوق الى الاندلس أغلب ، والنفس بحق زيارته أطلب ، فقصدته من برشلونة ، وبينهما مسيرة يومين بالقطار الجد ، والبخار المشتد ، أو بالسفن الكبرى الخارجة من المحيط ، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط ، فبلغت النفس بمرآه الأرب ، وكلت العين في ثراه بآثار العرب ، وانها لشتى المواقع ، متفرقة المطالع ، في ذلك الفلك الجامع ، يسرى زائرها من حرم الى حرم ، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم ، فلا تقارُب غير العتق والكرم ، طُلَيطلة تطل على جسرها البالي ، واشبيلية تشبل على قصرها الخالي ، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء ، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء ، وكان البحترى رحمه الله رفيقي في هذا الترحال ، وسميرى في الرحال ، والأحوال تصلح على الرجال ، كل رجل لحال ، فإنه أبلغ من جلّي الاثر وحيّا الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبر ، ومن قام في مأتم على الدول الكبر ، والملوك البهاليل الغرر ، عطف على الجعفرى حين تحمل عنه الملا ، وعطل من الحلي ، ووكل بعد المتوكل للبلى ، فرفع قواعده في السيّر ، وَبنى ركنه في الخبر ، وجمع معالمه في الفِكَر ، حتى عاد كقصور الخلد امتلأت منها البصيرة وان خلا البصر ، وتكفل بعد ذلك لكسرى بايوانه ، حتى زال عن الأرض الى ديوانه . وسينيته المشهورة في وصفه ، ليست دونهُ وهو تحت كسرى في رصهِ ورصفه ، وهي تريك حسن قيام الشعر على الآثار ، وكيف تتجدد الديار في بيوته بعد الاندثار . قال صاحب الفيح القسي في الفتح القدسي ، بعد كلام « فانظروا الى ايوان

كسرى وسينية البحترى في وصفه ، تجدوا الايوان قد خرت شعفاته ، وعفرت شرفاته ، وتجدوا سينية البحترى قد بقي بها كسرى في ديوانه، أضعاف ما بقي شخصه في ايوانه » وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها:

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله :

والمنايا موائل وأنوشر

وان يزجي الصفوف تحت الدّرفس (١)

فكنت كلما وقفت بحجر، أو طفت بأثر، تمثلت بأبياتها . واسترحت من موائل العبر إلى آياتها ، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي

وعظ البحتري إيوان كسرى وشفتني القصور من عبد شمس

ثم جعلت أروض القول على هذا الروي ، وأعالجه على هذا الوزن ، حتى نظمت هذه القافية المهلهلة ، وأتممت هذه الكلمة الريّضة ، وأنا أعرضها على القراء ، راجياً أن يلحظوها بعين الرضاء، ويسحبوا على عيوبها ذيل الإغضاء »

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقى ، فهو يسجع ولا يكاد يُبين ، غير أنه قد يوفق إلى تشابيه مبتكرة تسير مسير الأمثال، كقوله في وصف آثار العرب في بلاد الأسبان « يسري زائرها من حرم الى حرم ، كمن يمسي بالكرنك ويصبح بالهرم »

وتلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل

وهي كذلك تمثل رأيه في شعر البحتري: فهو عنده « أبلغ من جلى

---

(١) الدرفس : العلم وهي كلمة فارسية

الأثر ، وحيا الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبر » وتصور لنا تلك الكلمة ما كان يجول في نفس شوقي ، وكيف كان روح البحتري يطيف به وهو يطوف بالحمراء

ولا ندري من هم الذين يذكر شوقي أنهم اتفقوا على أن البديع الفرد من قصيدة البحتري قوله

والمنايا مواثل وأنوشر
وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

وكنا نحب لو تنبه لقوله في وصف الإيوان

ليس يُدرَى أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لإنسِ

وقوله في بكائه

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس

ولشوقي رأيه ، فقد يختلف النقد أحياناً باختلاف الأذواق



البحث السادس عشر

« بين البحتري وشوقى »

قد رأيت في الكلمة الماضية أن البحتري ابتدأ سينيته بالتبرم بالعيش وشكوى الزمان ، والتنكر لظلم الأقربين ، وكان ذلك لأن نزعته لم تكن اجتماعية ، وإنما كانت فردية ، أما شوقى فقد ابتدأ سينيته بقطعة وجدانية ، تفيض بالحنين إلى مصر ، وتزخر بالشوق الى النيل ، وهو كا نما يتكلم عن نفسه ، ويحدث الناس عن شجونه ، ولكنه في الواقع يتوجع لما يعانى وطنه من وطأة الظلم ، ويتفجع لما تقاسي بلاده من قسوة الاضطهاد ، وانه ليبكي ملاعب شبابه ، وعهود صباه ، حين يقول في مطلع هذه السينية

اختلاف النهار والليل يُنسِي   فاذكرا لي الصبا وأيام أنسي
وصِفا لي ملاوة في شباب   صُورت من تصورات ومسِّ
عصفت كالصَّبا اللعوب ومرَّت   سِنَةً حلوة ولذة خَلْسِ

ثم يأخذ في الحديث عن مصر فيقول:

وسلا مصر هل سلا القلب عنها   أو أسا جرحه الزمان المؤسِّي
كلما مرت الليالى عليه   رق والعهد في الليالى تُقسِّي
مستطارٌ اذا البواخر رنَّت   أول الليل أو عوت بعد جَرْسِ

ولا أُحب أن أنتقل الى خطاب شوقى للباخرة قبل أن أنبه القاريء الى روعة الحسن في قوله

وسلا مصر هل سلا القلب عنها   أو أسا جرحه الزمان المؤسي

فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالى ، وجعل جرحه في هوى مصر أعضل من أن يطبّ له الزمان. وانظر كيف وصف قلبه حين قال:

كلما مرت الليالى عليـهِ   رق والعهد في الليالى تقسي
مستطارٌ اذا البواخر رنت   أول الليل أو عوت بعد جرس

وهو هنـا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق ، أو هب النسيم ، كما كان يتحدث الاعراب ، وانما يصف ما يحسه الغريب على شواطيء المحيط وأين وميض البرق ، وهبوب الريح ، من أصـوات البواخر في غسَق الليل ؟ ! ثم قال :

يا ابنة اليمّ ما أبوك بَخيلٌ   ما له مولعاً بمنع وحبْسِ
أحرامٌ على بلابله الدو   حُ حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل الا   في خبيث من المذاهب رجس

والقارىء يتلقى هذه الابيات الآن بشيء من الطمأنينة ، أما الذين قرأوها يوم قالها شوقي فلهم فيها رأي ، ومن كان فى ريب من هذا فليذكر الاحكام العرفية ، لا قدر الله لها رجعة ، ولا كتب لها أوبة ، فقد كنا نتغنى بقول شوقى

أحرام على بلابله الدو   ح حلال للطير من كل جنس

ثم نتمثل مصر في صورة الشجرة الوريقة ، نُفّرت عنها البلابل المغردة ، ثم صارت مأوى للبوم ، ومقيلاً للغربان . وكذلك كانت مصر في ذلك الحين ، فكان شهيد الحرية محمد بك فريد ، يرسل الاماني عساها

تقبّل ثرى مصر ، وتنهل من سلسبيل النيل ، ثم لا تجاب له طلبة ، ولا يدنو منه مأمول، في حين أن بلاد الفراعنة كانت مفتحة الابواب لكل أثيم القلب، وَقاح الوجه ،خبيث اللسان !! وسيظل قول شوقي

أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس

سيظل هذا البيت مثاراً للشجي والاسى ، حتى تغدو تلك الشجرة ذات الظلال والافنان ، وهي للبلابل مأوى وللطواويس مقيل ، أما قوله

كل دار أحق بالاهل الا في خبيث من المذاهب رجس

فهو رمية مسددة في صدر الظلم ، ونحر الاستبداد ، وسيظل غصة يشجى بها بعض الحلوق — ثم قال في خطاب الباخرة

نَفَسي مِرجل وقلبي شِراع بهما في الدموع سِيري وأرسي
واجعلي وجهك «الفنار» ومجرا كِ يد «الثغر» بين رَمل ومكس
وطني لو شُغلت بالخلد عنهُ نازعتني اليه في الخلد نفسي
وهفا بالفؤاد في سلسبيل ظمأ للسواد من عين شمسِ
شهد الله لم يَغب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخل حسي
يصبح الفكر والمسلة نادي ه وبالسرحة الزكية يمسي

وأي نفس يمثلها شوقي في هذا الشعر البديع ، انه والله يمثل النفس المصرية ، وحسبي ان أقول النفس المصرية ، وهل في الدنيا — ولولا التقى لأضفت اليها الآخرة — وطن خليق بان يعذب في سبيله أبناؤه مثل وادي النيل ؟

ان الذي يعيش في مصر ، وله ذوق شوقي واحساسه ، ليس بكثير عليه ان يقول

وطني لو شغلت بالخلد عنه　　نازعتني اليه في الخلد نفسي
وهفا بالفؤاد في سلسبيل　　ظمأ للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفوني　　شخصه ساعة ولم يخل حسي

ولقد كانت مصر ، ولا تزال ، بابًا من الفتنة لكل من يمسي وله فيها رأي مطاع ، وبفضلها يقول فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » ولقد يذكرون أن المأمون قال لجنوده وهو يشاهد الاهرام « أبهذه كفر فرعون بربه ! » فقال له احد وزرائه يا امير المؤمنين ان الله يقول « ودمّرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فاذا كانت هذه بقايا ما دمر الله فالفرعون العذر ان غلب عليه الضلال

وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة ، وتغرس فيهم من الجبروت ، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك ، ويحبّب اليه العدوان ، وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطًا من أسباب الفتنة في هذه البلاد

ثم يقول شوقي وهو يتمثل الجزيرة والنيل :

وكأني أرى الجزيرة أيكا　　نغمت طيرهُ بأرخم جَرْس
هي بلقيس في الخمائل صرحٌ　　من عُباب وصاحب غير نِكْسِ
حَسْبُها أن تكون للنيل عرسًا　　قبلها لم يجنّ يومًا بعرسِ
لبست بالأصيل حُلة وَشي　　بين صنعاء في الثياب وقَس[1]
قدّها النيل فاستحت فتوارت　　منه بالجسر بين عُري ولبس

(١) قس : بالفتح موضع بين العريش والفرماء من ارض مصر تنسب اليه الثياب القسية

وأرى النيل كالعقيق بواديـ ـهِ وإن كان كوثر المتحسّي
ابن ماء السماء ذو الموكب الفخـ ـم الذي يحسر العيون ويُخسي
لا ترى في ركابهِ غير مثنٍ بجميل أو شاكر فضل غرسِ

وهذا خيال وادع جميل ، ولكن شوقي لم يصبر عليه ، بل عاد الى هِجّيراه من النوح على مجد خوفو ورمسيس وأخذ يقول

وأرى الجيزة الحزينة ثكلى لم تفق بعد من مناحة رمسي[1]
اكثرت ضجة السواقي عليه وسؤال اليراع عنهُ بهمسِ
وقيام النخيل منفرن شعراً وتجردن غير طوق وسَلسِ[2]
وكأن الاهرام ميزان فرعو ن بيوم على الجبابر نحس
أو قناطيره تأنق فيها ألف جاب وألف صاحب مَكْسِ
روعة في الضحى ملاعب جنّ حين يغشى الدجى حماها ويغسي

وكذلك يحسب شوقي ، وهو يندب مجد الفراعنة ، أن ما في الطبيعة من ماء ونبات وجماد يبكي معه ذلك الملك الذي بطش به القدر وعدا عليه القضاء . والشاعر حين يرضى يحسب الكون يبتسم لابتسامه ، وحين يغضب يحسب الكون يكتئب لاكتئابه ، ولعل هذه السذاجة هي أظرف ما في الشعراء ، إذ كانت سمة من سمات الطفولة البريئة ، وكم في الطفولة من معان تسكن اليها شوارد النفوس

ثم انتقل شوقي الى الحديث عن أبي الهول فقال :

ورهين الرمال أفطس الا أنهُ صنع جِنة غير فطسِ

---

(١) يريد رمسيس
(٢) السلس بالفتح الخيط ينظم فيه الخرز الابيض ، او هو القرط

تتجلى حقيقة الناس فيهِ سَبُعُ الخلق في أساريرِ إِنسي
لعب الدهر في ثراه صبياً والليالي كواعباً غير عُنس (١)
رَكَّبت صيَّد المقادير عينيـ ـهِ لنقد ومخلبيـه لفرْس
فأصابت به الممالك كسرى وهرقلاً والعبقري الفرنسي

وهذا أيضاً خيال شعراء ، فهو يتوهم ان المقادير ركبت عيني أبي الهول لنقد الحوادث ، وأعدت مخلبيه لافتراس الطغاة . ولكن هيهات لما يظن هيهات ، والويل لامة تنتظر في خمود ، حتى يثأر لها قعيد الصحراء !

على أن من الحق ان نبين أن شوقي لم يسق هـذه الخرافة ، وهو يحسبها حقيقة ، انما هو الفن يقضي على صاحبهِ باستغلال موارد الخيال ، وأبو الهول — رضي الله عنهُ ان كان وليا وجل جلاله ان كان إلهاً — معبود قديم طالما قُدمت له القرابين ، ولا يزال المصريون يتيمنون بما كان يتيمن به آباؤهم من قبل ، ويتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه ، كما لا يزال العرب يحسبون حساب السانح والبارح ، أسوة بما كان يفعل آباؤهم الاقدمون ، ولولا اتقاء الفتنة لذكرت نماذج من اساطير الاولين ترينا كيف كان « هداة الامم » يثيرون ما ركد فيهام من العواطف بالاشادة بما عرف لهم من المعبودات ، وعلى هذا المنهج جرى شوقي فسبح بحمد أبي الهول في جملة من قصائده الخالدة ، والشاعر كالخطيب لا تهمهُ العقول اذا ظفر بالقلوب

(١) عنس : جمع عانس وهي الفتاة يطول مكثها في دار ابيها بعد ادراكها حتى تخرج من عداد الابكار

ثم عاد شوقي إلى قلبه ، وقد غمره الحزن ، فاخذ يناجيه بهذا الترجيع الحزين ، وانظرْ كيف يقول

يا فؤادي ! لكل أمر قرارٌ ... فيه يبدو وينجلي بعد لَبس
عقلت لجة الامور عقولا ... كانت الحوت طول سَبْح وغَسٍّ(١)
غرقت حيث لا يُصاح بطاف ... أو غريق ولا يصاخ لحس
فلك يكسف الشموس نهاراً ... ويسوم البدور ليلة وكس
ومواقيتُ للامور اذا ما ... بلغتها الامور صارت لعكس
دول كالرجال مرتهناتٌ ... بقيام من الجدود وتعس
وليال من كل ذات سوار ... لطمت كل رب روم وفرس
سددت بالهلال قوساً وسلت ... خنجراً ينفذان من كل ترس
حكمت في القرون خوفو ودارا ... وعفت وائلا وألوت بعبس
أين مروانُ في المشارق عرش ... أمويٌّ وفي المغارب كرسي

— وقفة قصيرة —

لاحظنا ان شوقي تحدث عن نفسه قليلا في بداية القصيدة ، ثم اندفع في الحديث عن شوقه الى مصر ، وتفجعه لما تقاسي من عاديات الخطوب ، فرأيناه يصور الجزيرة ، ويمثّل استحياءها حين قدها النيل ، ثم رأيناه يذكر ان الجيزة لا تزال في اثواب الحداد على رمسيس ، وأن السواقي لا تبرح ترسل على ذكره الدموع والانين ، وان النخيل تجردت في الحزن عليه ، فلم يبق عليها غير الشعور والاطواق ، ورأيناه كذلك

(١) الغس مرادف للسبح

يتكلم عن أبي الهول وعن الاهرام ، ويتخيل ابا الهول قارعة عتيده لإهلاك الطغاة . ثم رأيناه وقد عاوده القلق على مصر ، ولم يقنعه السكون الى الخيال ، فأخذ يزفر من جديد ويقول

يا فؤادي ! لكل أمر قرارٌ فيه يبدو وينجلي بعد لبس

وأين هذا القرار ، يا بلبل النيل ! هاته ، هاته ، وخذ من أرواحنا ما تشاء

ثم شرع يصف القدَر بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول

عقلت لجة الامور عقولاً كانت الحوت طول سبح وغس
غرقت حيث لا يصاح بطاف أو غريق ولا يصاخ لحس
فلك يكسف الشموس نهاراً ويسوم البدور ليلة وكس

ولم تظفر النفس الانسانية برثاء أبرع من هذا الرثاء ، ولا وجدت العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة ، وهي في جبروتها أُعوبة القدر وأُضحوكة القضاء ، ومن ذا الذي وقف على القبر الذي ثوت فيه آمال الامم المعذبة ، ثم جاد عليها بمثل هذه الدمعة الغالية ، يذرفها مثل شوقي على تلك العقول التي عقلتها لجة الخطوب ، والتي غرقت حيث لا يصاخ لحس ، ولا يصاح بطافٍ أو غريق

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء ، فقد مهد شوقي لوقفته على أطلالها تمهيداً هو غاية الغايات في إعداد النفس لبكاء المجد الذاهب ، والملك السليب ، والنفس المصرية يذكّرها مجد الفراعنة بمجد العرب ، كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة ، والشجى يبعث الشجى ، وهذا كله قبر مالك ، لو يعلم اللائمون !

ولم يصنع البحتري هذا الصنيع ، وانما حدثنا عما طفقت الأيام من صبابة عيشه ، وما كان من غبنه حين باع الشام واشترى العراق،وكيف رابهُ نبوُّ ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر ، لين الجانبين، ثم قال:

حضرت رحليَ الهموم فوجهـــــت الى أبيض المدائن عنسي
أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس

وهذا هو عين الاقتضاب ، ولا يبعد عندي أن يكون الزمن قضى على جزء من هذه القصيدة ، وان لم يوجد ما يؤيد هذا الظن ، فقد كانت هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة ، ولكن المريب هو أن يقلع البحتري عن عادته في حسن التخلص وهو يحبر قصيدة من أروع قصائده ان لم تكن اجمل ماقال ، وكان من عادته كذلك ان يتخير للبداية مايمت بصلة وثيقة الى ما سينتقل اليه ، وأشهر ماله في هـذا الاسلوب قصيدته الميمية في عتاب الفتح بن خاقان فقد ابتدأها بقطعة من النسيب هي ايضاً عتاب ، وذلك حيث يقول :

يهون عليها أن أبيت متيما أعالج شـوقا في الضمير مكتّما
وقد جاوزت ارض العراق وأصبحت حمى وصلها مذجاورت ابرق الحمى
بكت حرقة عند الفراق وأردفت سلواً نها الاحشاء ان تتضرما
فلم يبق من معروفها غير طائف يلم بنا وهنا اذا الركب هوّما

وفي هذه القصيدة يقول :

وأعرف الذنب الذى سُؤْتني له فأقتل نفسي حسرة وتندُّما
ولو كان ما خُبِّرتهُ أو ظننتهُ لما كان غَرواً أن ألوم وتكرما
أذكّرك العهد الذي ليس سؤدداً تناسيه والود الصحيح المسلما

أُقر بما لم أجنه متنصلاً   اليك على اني إِخالك ألوَما
ليَ الذنب معروفاً وان كنت جاهلا   به ولك العُتبى عليّ وأنعما
ومثلك إِن أبدى الفَعال أعادهُ   وان صنعَ المعروف زاد وتمما

نقول ان البحتري لم يؤثر التخلص في قصيدته السينية وانما آثر الاقتضاب، ولا كذلك شوقي. فقد اخذ يتكلم عن ويلات الممالك ونكبات الشعوب، ثم دخل في الموضوع برفق وهو يقول

أين مروانُ في المشارق عرش   أموي وفي المغارب كرسى
سقمت شمسهم فرد عليها   نورها كل ثاقب الرأي نَطس
ثم غابت وكل شمس سوى ها   تيك تبلى وتنطوي تحت رمس
وعظ البحتري إِيوان كسرى   وشفتني القصور من عبد شمس

نقرر هذا، ثم نذكر أن البحتري لا لوم عليه فى أن خلت قصيدته من مثل المقدمة الممتعة التى افتتحت بها قصيدة شوقى؛ لأن ظروف البحتري وقد ضاق بهِ عيشه، وظلمه أهله، غير ظروف شوقي وهو يحاول العودة الى وطن أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان، وأصلاه أهله نار العقوق، وهو قد خلّف في هذا الوطن أحلام شبابهِ وأوهام صباه، وترك فيهِ ما يملك من أسباب الحياة، ثم هو لا يدرى اذا عاد أيقر قراره فيلقى عصا التسيار، أم تعصف بهِ وشاية جديدة، تحمله الى المنفى من جديد.. ولو كان للبحترى مثل هذا القلب المشرد وهو يشد رحاله الى الأيوان، لكان له شأن آخر، ولكانت شكواه مضرب الامثال، ولكن الشاعر له « رسالة » يؤديها الى أهل عصره، ولامفر له من أدائها مادام له قلب ووجدان، وكانت « رسالة » شوقي حين قال

سينيته أن يصف ما يلاقي أهل مصر من الكمد ، وهم يودعون كل يوم فريقاً من أبنائهم الأحرار ، ويستقبلون بالرغم منهم ما يلقي اليهم البحر من نفايات الأمم وأوشاب الأقطار ، وكان له في ذلك هذا البيت الذى يصلح لكل أمة ولكل جيل

أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس

وفي مقابله يقول البحتري وهو يتحدث عن نفسه

واشترائي العراق خطة غبن بعد بيعي الشآم بيعة وكس

ولكن أين هذا من ذاك ؟ ! وأين قول البحتري في عنف الدهر وجوره

وكأن الزمان أصبح محمو لاً هواه مع الأخس الأخس

من قول شوقى في المعنى نفسه

عقلت لجة الأمور عقولا كانت الحوت طول سبح وغس

غرقت حيث لا يصاح بطاف أو غريق ولا يصاخ لحس

فان هذه صورة شعرية نادرة المثال

ومطلع البحتري

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

فيه ضعف وانحلال ، وليس بقاطع الدلالة على الإباء ، وخير منه مطلع شوقى

اختلاف النهار والليل يُنسى فاذكرا لى الصبا وأيام أُنسي

وان كنا لا ندرى بمن يستنجد ، وقد نسي أيام صباه ، ورحم الله ابن الأحنف إذ يقول :

نزف البكاء دموع عينك فاستعر　　عيناً لغيرك دمعها مدرارُ
من ذا يعيرك عينه تبكي بها　　أرأيت عيناً للدموع تُعارُ

ويذكرون أن اللورد كرومر حضر عرساً مصرياً وسمع المغني يقول « حبيبي غاب . هاتوه لي يا ناس » فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت ووقف على مدلوله قال: «إن المصري لكسول، وإنه ليطلب حتى من يعينه على رد محبوبه الغائب » وكذلك يطلب شوقي من يحدثه عن أيام الانس في عهد الشباب، وإنهُ لمطلب عجيب !

البحث السابع عشر

بين البحتري وشوقي

ولقد أخذ البحتري ، بعد مقدمته الوجيزة ، يتكلم عن إيوان كسرى ، ويتحدث عن بُناته ، ويعرّض بسكان القفار من الأعراب ، فيقول :

أتسلّى عن الحظوظ وآسي　　لمحل من آل ساسان دَرِسِ
ذكّرتنيهم الخطوب التوالى　　ولقد تُذكر الخطوب وتُنسي
وهمو خافضون في ظل عال　　مشرف يحسر العيون ويخسي
مغلق بابه على جبل القبـ　　ـق الى دارتي خلاط ومكسِ
حِلل لم تكن كاطلال سعدي　　في قِفار من البسابس مُلسِ
ومساع لولا المحاباة مني　　لم تطقها مسعاة عنس وعبسِ
نقل الدهر عهدهن من الجدّ　　ة حتى غدون أنضاء لبسِ

فكأن الجرماز من عدم الانـ ... س وإخلاقه بنية رمس
لو تراه علمت ان الليالى ... جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو يُنبيك عن عجائب قوم ... لايشاب البيان فيهم بلبس

وهذا البيت الاخير تمهيد مباشر لوصف مافي الإيوان من النقوش والتهاويل ، ولنا اليه عودة ، فلنلاحظ الآن ان البحتري يتحبّس وهو يبين عن أثر الإيوان في نفسهِ ، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب والفرس من شتى الفروق ، وترجع هذه الحبسة الى اتقاء الفتنة ، وكبح مايجمح عن هذه المقارنة من شهوة التنافر وإثارة الاحقاد ، ولهذا يقول في هدوء :

حلل لم تكن كاطلال سعدى ... في قفار من البسابس مُلس
ومساع لولا المحاباة مني ... لم تطقها مسعاة عنس وعبس

وقد صدق ، وان جرح الايوان ، وإلا فما هي اطلال سعدي ، ورسوم ليلى ، ونُوى عفراء ؟ ولم يجد شوقي ما يضطره الى مثل هذه المواربة ، إذ كان يتكلم عن مجد المسلمين والعرب ، في بلاد اسلامية مجموعة الاهواء . ومن هنا نراه يقول في وضوح وجلاء

رب ليل سريت والبرق طرفي ... وبساط طويت والريح عنسي
أنظم الشرق في (الجزيرة) بالغر ... ب وأطوي البلاد حزناً لدهس
في ديار من الخلائف درس ... ومنار من الطوائف طمس
ورُبًى كالجنان في كنف الزيتو ... ن خُضر وفي ذُرى الكرم طلس
لم يرعني سوى ثرى قرطبيّ ... لمست فيه عبرة الدهر خمسي
ياوقى الله ما أصبح منهُ ... وسقى صفوة الحيا ما أمسّى

قرية لا تعد في الأرض كانت   تمسك الأرض أن تميد وترسي

غشيت ساحة المحيط وغطت   لجة الروم من شراع وقلس

ركب الدهر خاطري في ثراها   فأتى ذلك الحمى بعد حدس

فتجلت ليَ القصور ومن فيـ   ـها من (الغُر) في منازل قُمس

ما ضفت قط في الملوك على نذ   ل المعالى ولا تردت بنجس

ومن الخير أن ندل على الابيات المختارة هنا وهناك . ونحن نستجيد قول البحتري

ذكرتنيهم الخطوب التوالى   ولقد تذكر الخطوب وتنسى

ولعجز هذا البيت مغزى بديع ، ونستجيد كذلك قوله

نقل الدهر عهدهن من الجد   ة حتى غدون أنضاء لبس

فكأن الجرماز من عدم الانـ   ـس وإخلاقه بنية رمس

وفي هذين البيتين دقة وخيال ، وللقارىء أن يتأمل كيف صارت هـذه الحلل « أنضاء لبس » وكيف أمسى الجرماز وكأنه « بنية رمس » فأما قوله

لو تراه علمت أن الليالى   جعلت فيه مأتما بعد عرس

فهو غاية الغايات في بكاء المغاني ، يتحكم فيها البلى ، وتبطش بها ايدى العفاء

ونستجيد قول شوقى

لم يرعني سوى ثرى قرطبيّ   لمست فيه عبرة الدهر خمسي

ولمس العبرة من المعاني الدقيقة ، وقد بلغ غاية الرفق ، وهو يقول في تحية هذا الثرى

يا وقى الله ما أصبّح منهُ   وسقى صفوة الحيا ما أمسّي

ونستجيد كذلك قوله :

ركب الدهر خاطري في ثراها   فأتى ذلك الحمى بعد حدس

يصف تلك البقعة بالدروس ، ويذكر أنه ضل ولم يهتد الا بعد أن ركب خاطره الدهر، ومع هذا لم يصل الا بعد توهم وحدس ، وتلك وثبة من وثبات الخيال

ثم أخذ البحتري يصف ما في الايوان من صور المعارك فقال :

فإذا ما رأيت صورة انطا   كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وأنوشر   وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على أصـ   ـفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه   في خفوت منهم وإغماض جرس
من مُشيح يهوى بعامل رمح   ومُليح من السنان بترس
تصف العين أنهم جد أحيا   ء لهم بينهم اشارة خُرس
يغتلي فيهم ارتيابيَ حتى   تتقراهمو يداىَ بلمس

وهذه القطعة من أدق ما قيل في الوصف ، يذكر أنه شهد في الايوان صورة كسرى وهو يحاصر انطاكية وأنك لو رأيت هذه الصورة لارتعت من حملة الفرس على الروم ، وكيف يرتاع المرء وهو يشاهد صورة على الحائط ؟ هذا هو وجه الحسن : فهو يذكر أنك حين ترى هذه الصورة، لا يخطر ببالك أنها صورة ، وإنما تحسب لصدق التصوير أنك في ميدان القتال ، والمنايا مواثل أمامك ، وأنوشروان يزجي الصفوف تحت اللواء، ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثياب، وما هم عليه من إيثار

الخفوت ، بين مُشيح بالرمح ، ومُلِيح بالسنان ، وانُظر كيف يقول :

تصف العين أنهم جد أحيا ء لهم بينهم اشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقراهمو يداي بلمس

فهو يراهم جدّ أحياء ، وان لم يُسمع لهم صوت ، لأن في سماتهم ما يدل على اكتفائهم بالاشارة كما يكتفي الخرس ، ثم يعود الى نفسه فيذكر أنه أمام صورة ، ثم يُغلب على حسه ، فيرتاب فيما يراه ، فيلمس الصورة بيده ليعرف أحقيقة هي أم خيال . والمصور الحاذق هو الذي يُسبغُ على صوره أثوابَ الحياة ، ولقد أذكر اني شهدت في اطلال الفراعنة بالاقصر صورة سمكة ، ولم أكد أملأ منها عينيّ حتى خلتها تتقلّب ، وكذلك يسحر الفن الجميل

ولقد نحا شوقي منحى البحتري في الوصف ، وإن اختلف الموصوف ، فقال وقد تجلت له تلك القصور

وكأني بلغت للعلم بيتاً فيه مال العقول من كل درس
قدّسا في البلاد شرقاً وغرباً حجة القوم من فقيه وقس
وعلى الجمعة الجلالة والنا صر نور الخميس تحت الدرفس
ينزل التاج عن مفارق (دون) ويحلى به جبين (البرنس)
سِنة من كرًى وطيف أمان وصحا القلب من ضلال وهَجس
واذا الدار ما بها من انيس واذا القوم مالهم من مُحِس
ورقيق من البيوت عتيق جاوز الألف غير مذموم حرس
أثر من (محمد) وتراث صار (للروح) ذي الولاء الأمس
بلغ النجم ذروةً وتناهى بين (ثهلان) في الاساس و(قدس)

مرمر تسبح النواظر فيه ... ويطول المدى عليها فترسي
وسوار كأنها في استواء ... ألفات الوزير في عرض طرس
فترة الدهر قد كست سطريها ... ما اكتسى الهدب من فتور ونعس
ويحها كم تزينت لعليم ... واحد الدهر واستعدت لخمس
وكأن الرفيف في مسرح العيـ ... ـن ملاء مدنرات الدمقس
وكأن الآيات في جانبيه ... يتنزلن من معارج قدس
منبر تحت (منذر) من جلال ... لم يزل يكتسيه أو تحت قس
ومكان الكتاب يغريك ريا ... ورده غائباً فتدنو المس

وهذه القطعة على طولها لاتسمو الى ما وصلت اليه تلك النفثة البحترية من فتنة القلب والوجدان ، ولعل السر في هذا ان البحتري وجد في الايوان صورة الحرب بين الفرس والروم ، وصورة الحرب تهز النفس ، وتثير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة ،أما شوقي فقد وجد بالقصر آيات من القرآن ، لم يذكر أكانت في وصف الجنة ، أم في الدعوة الى القتال.. والفن الذي يستمد قوته من الاصول الدينية، الوادعة الهادئة، لا يصلح الا للكهول،والويل للامم اذا لم تغلب عليها نزعات الفروسية، ولم يستبد بها ما في الشباب من نشاط وجنون. وما أبعد الفرق بين قول البحتري

والمنايا مواثل وانوشر ... وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

وبين قول شوقي

وعلى الجمعة الجلالة والنا ... صر نور الخميس تحت الدرفس

وشوقي يصف ما رآه ،فلا لوم عليه ولا تثريب،وصدق من قال:

فلو أن قومي انطقتني رماحهم ... نطقت ولكن الرماح أجرت

وقد لا نجد في هذا العصر من يسمح بان توضع في المساجد والمعابد صور المعارك والحروب ، ولم يظلم أحدٌ أهل الشرق ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية الى الآخرة ، كما بينا ذلك في كتاب « الاخلاق عند الغزالي » وتركوا الدنيا لمن هم أحق بها من شياطين الغرب ، وحيا الله أولئك الشياطين ، فهم ملائكة هذا الجيل ، وإن رذائل القوة لخير من فضائل الضعف ، لو يعلم الشرقيون

واشوقى ان يذكر ان جلالة الدين كانت لذلك العهد من أقوى البواعث على حراسة الملك ، ولم تكن صورة رسمية يستبق اليها طلاب الرزق ، وللرزق أبواب !! يدل على هذا قوله :

سنة من كرًى وطيف أماني ... وصحا القلب من ضلال وهجس
وإذا الدار ما بها من أنيس ... واذا القوم ما لهم من محس

فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك ، ومافيه من آثار العقول ، ليس الا سنة من الكرى ، وطيفاً من الاماني

ويعجبني قوله في وصف القصر

مرمر تسبح النواظر فيه ... ويطول المدى عليها فترسي
وسوارٍ كأنها في استواء ... ألفات الوزير في عرض طرس

وانٍ كان تشبيه سواري القصر بألفات ابن مقلة فيه شيء من الضعف إذ كان جمال الخط لا يتعدى الحسن الى الجلال ، والفرق بعيد بين الحسن الفاتن ، والجمال الرائع ، فجمال النهر في الليالي المقمرة فيه حسن وفتنة ، وفيه أيام السرار روعة وجلال

وقول شوقي

ومكان الكتاب يغريك ريا ... ورده غائباً فتدنو للمس

مأخوذ من قول البحترى

يغتلي فيهم ارتيابيَ حتى ... تتقراهمو يداي بلمس

وبيت البحتري أجود فى معناه ، وهو كذلك يقتضيه السياق، أما بيت شوقى فهو فى مكانه غريب

وقول شوقى بعد ذلك الوصف

صنعة (الداخل) المبارك فى الغر ... ب وآل له ميامين شُمس

فيه ضعف ، وكأنه لم يقله الا على سبيل التكملة ، وما أغنى الشعر عن مثل هذا التذييل ! !

البحث الثامن عشر

الفصل بين البحترى وشوقى

رأينا كيف وصف البحتري ما رآه في الايوان من رسم الموقعة بين الفرس والروم ، ونذكر اليوم انه انتقل من ذلك الوصف الى الحديث عن تلك الكأس الروية التي اصطبح بها في الايوان ، فقال :

قد سقاني ولم يصرّد أبو الغو ... ث على العسكرين شربة خلسِ

من مدام تقولها هي نجم ... أضوأ الليل أو مجاجة شمسِ

وتراها اذا اجدّت سروراً ... وارتياحاً للشارب المتحسي

أُفرغت فى الزجاج من كل قلب ... فهي محبوبة الى كل نفسِ

وتوهمت ان كسرى ابرويـ ... ـز معاطيّ والبلهبذ انسي

حُلُمٌ مطبق على الشك عيني ... أم أمانٍ غيّرن ظني وحدسي

وهذه القطعة لا تجد ما يقابلها في سينية شوقي ، لان صاحب الشوقيات لم يزر اطلال الحمراء ليغرق همومه هناك في اكواب الشمول كما فعل البحتري وهو يزور الايوان ، فكان لنا ان ندرس هذه الابيات على سبيل الاستطراد ، اذ لا تقتضيها الموازنة ولا يدعو اليها التفضيل ، ونحن نستملح قوله

من مدام تقولها هي نجم أضوأ الليل أو مجاجة شمس

ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال ، وعجز هذا البيت يشفع لصدره ، وقد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظات ، ويمر البيت في خلال الابيات ، كما يقول صاحب زهر الآداب ، وكذلك نستجيد قوله في وصف تلك الصهباء

وتراها اذا اجدت سروراً وارتياحاً للشارب المتحسى

أُفرغت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبة الى كل نفس

ولك ان تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسى الى المدام ، ثم يخالها افرغت في الزجاج من كل قلب ! ولا تنس انه يقول (من كل قلب) وانها لذلك (محبوبة الى كل نفس) فان لهذا الشُّمول والتعميم معنى يروع اصحاب الاذواق من علماء المعاني .. وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك برأس البحتري فتوهم — ومن ذا الذي لا يتوهم وهو فى مثل حاله ! — ان كسرى نديمه ، والبلهبذ أنيسه ، وكيف ثاب الى رشده ، وأخذ يفكر أهو في حلم أطبق عينيه على الشك ! أم هي أماني غيرن ظنه وحدسه ! وفي هذا الترديد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتياب في رأس المتعقل النشوان.

ثم عاد الى وصف الايوان فقال:

وكأن الايوان من عجب الصنـ ـــة جوب فى جنب أرعن جلس
يتظنىّ من الكآبة أن يـ ـــدو لعيني مصبّح أو ممسّ
مزعجا بالفراق عن أنس إلف عزَّ أو مرهقاً بتطليق عرس
عكست حظه الليالى وبات الـ ـــمشترى فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلا كل الدهر مُرسي
لم يعبه أن بُزَّ من بُسُط الديـ ـــباج واستُلَّ من ستور الدمقس
مشمخرٌ تعلو له شرفاتٌ رفعت فى رءوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فما تبـ ـــصر منها إلا فلائل بُرْس
ليس يُدرَى أصنع إنسٍ لجن سكنوه أم صنع جن لانس
غير أني أراه يشهد أن لم يك بانيه فى الملوك بنكس

وفى هذه القطعة نجد البحترى يتمثل الإيوان فى صورة المحب أترعت الليالى كأسه بأنس أليفه ثم أزعجته بالفراق ، والعروس أصفاه الدهر حلاوة الوصل ثم أرهقه بالطلاق. ويراه يتظنى من الكآبة أن يبدو لعيني من يطالعه عند الصباح أو عند المساء، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست حظهُ الليالى ، فأصبح مثار الشجى ، ومبعث الأسى ، بعد ان كان من مرابع الغزلان ، وملاعب الحور الحسان ! ! وانظر كيف يقول

فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلا كل الدهر مرسي

وفي هذا البيت صورة رائعة لذلك الإيوان الذي صوره البحتري « كائناً حياً » أناخ الدهر عليه بكلكله ، وأراه كيف تكون مضاضة الذل ، بعد نضارة العزة ، وكيف يكون العدم بعد الوجود ، وللشاعر في الديار الخالية وقفات تبعث ميت الوجد ، وتثير دفين الاحساس ، فان

كنت في ريب من ذلك فحدثني أي شيطان ،أو أي ملاك ، أوحى الى البحترى أن الايوان اصبح — وقد استلت منه ستور الدمقس وبسط الديباج — شبيهاً بالغادة الحسناء نزع عنها البؤس ما تملك من بالي الثياب ، فأضحت متجردة تدعوك إلى الرحمة حيناً وتغريك بالفتون أحياناً ؟ ونحن نعيذ القارىء من ان يرمينا بالغلو والاسراف، فهذا والله ما نفهمه من قول البحتري

لم يعبه أن بزّ من بُسُط الديبا ج واستلّ من ستور الدمقس

وكذلك نزع الدهر ما كان بالايوان من عارض التهاويل ، وخلاه كالغادة المتجردة لا تدري أكان تجردها من قسوة الفقر ، أم من سكر الدلال ... وما نريد أن نزيد ؛ وللقارىء أن يتأمل حسن الاداء في قوله

عكست حظه الليالي وبات الـ ـمشترى فيه وهو كوكب نحس

فانه لم يقل « بات المشترى فيه كوكب نحس » وإنما قال « بات المشترى فيه وهو كوكب نحس » وكلمة « وهو » لها ما لها من الفضل فى تأكيد المعنى وتقريره ، عند علماء المعاني . . وكذلك قوله فيما صارت اليه شرفات الايوان

لابسات من البياض فما تبـ ـصر منها الا فلائل برس

فان كلمة « من » لها هنا موقع جميل ، وهي أدل على التقليل من التنوين !.. أما قوله

ليس يدري أصنع إنس لجن سكنوه أم صنع جن لانس

فهو من عيون هـذه القصيدة ، والعرب ينسبون الى الجن صنع كل عجيب ، وهى خرافة قديمة ، تزخر بها الاساطير ، وهي كذلك

مورد من موارد الخيال — وكان من المستهجن ان يعقب البحترى هذا البيت الفرد بقوله

غير اني أراه يشهد أن لم   يك بانيه فى الملوك بنكس

وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بون بعيد . . . وقد عاد الى وصف مافى الايوان فقال

فكأني أرى المراتب والقو   م إذا ما بلغت آخر حسي
وكأن الوفود ضاحين حَسْرَى   من وُقوف خلف الزحام وخُنْس
وكأن القيان وسط المقا   صير يرجحن بين حُوٍّ ولُعْس
وكان اللقاء أول من أمـ   ـس ووشك الفراق أول أَمْسَ
وكأَن الذى يريد اتباعاً   طامع فى لحوقهم صبح خَمْسَ
عمِّرت للسرور دهراً وصارت   للتعزى رباعهم والتأسيَ
فلها أن أُعينها بدموع   موقفات على الصبابة حُبْسَ

ولهذه الابيات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل ما شهد البحترى فى اعطاف الايوان. والبحترى بهذا الوصف فنان، يقول على علم ويعرف ما يعني ، ولك أن تتأمل كلمة « كأن » وموقعها الجميل فى قوله

وكأن الوفود ضاحين حسرى   من وقوف خلف الزحام وخُنْسِ

وقوله :

وكأن القيان وسط المقا   صير يرجحن بين حُوٍّ ولُعْسِ

وقوله :

وكأن اللقاء أول من أمـ   ـس ووشك الفراق اول امسِ

وقد دللت القارىء على مواطن الحسن في هذه القصيدة فلينهل بعد ذلك من رحيقها كما يشاء

— نفثة شوقي —

أما شوقي فقد اخذ يبكي الحمراء بعد وصفها فقال

مَن لحمراء جللت بغبار الدهـ ... ـر كالجرح بين برءٍ ونكسِ
كسنا البرق لو محا الضوء لحظاً ... لمحتها العيون من طول قبْسِ
حصن غرناطة ودار بني الاحـ ... ـمر من غافل ويقظان نَدْسِ
جلل الثلج دونها رأس شيرى ... فبدا منه في عجائب بُرسِ
سرمد شيبه ولم ار شيباً ... قبله يرجىء البقاء وينسي
مشت الحادثات في غرف الحمرا ... ء مشي النعيّ في دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت ... سدة الباب من سمير وأنس
عرصات تخلت الخيل عنها ... واستراحت من احتراس وعَسّ
ومغان على الليالي وِضاءٌ ... لم تجد للعشيّ تكرار مَس
لا ترى غير وافدين على التا ... ريخ ساعين في خشوع ونكس
نقلوا الطرف في نضارة آس ... من نقوش وفي عصارة ورس
وقباب من لازورد وتبر ... كالربى الشُمّ بين ظل وشمس
وخطوط تكفلت للمعاني ... ولألفاظها بأزين لبس
وترى مجلس السباع خلاء ... مقفر القاع من ظباء وخنس
لا الثريا ولا جوارى الثريا ... يتنزان فيه اقمار أُنس
مرمر قامت الاسود عليه ... كَلّة الظفر لينات المجسّ
تنثر الماءَ في الحياض جماناً ... يتنزّى على ترائبَ مُلس

وفى هذه الكلمة نرى شوقى يتمثل الحمراء وهي مجللة بغبار الدهر ، وهذا خيال رائع ، ولكنه ليس بكثير على شوقى ، فقد ألف الحديث عن اسرار الحياة وطبائع الوجود ، وكلف منذ بعيد بالابانة عن عدوان الحوادث ، والافصاح عن عسف الخطوب ، ويكاد يستنطق الموت وهو يتحدث عن مصير من استراحوا من دار الختل والنفاق . . وانظر كيف يذكر ان الحمراء أصبحت كالجرح بين برء ونكس ، وهذا اصدق تصوير لذلك الأثر الذي يحج اليه احفاد بُناته ، فيعدونه ويعنونه ، لو تنفع الاماني أو تصدق الوعود ، ومن ذا الذي لم يفكر فى نكبة الحمراء ، ولم يتمن لو يصبح وهو خليفة ابن زياد . ولكن أين فتوة العرب ، وأين شباب الزمان !

وللقاريء ان يتصور كيف مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي النعي فى دار عرس، فهذا أيضاً خيال رائع، وهو مأخوذ من قول أبي نواس

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

وما لنا ولهذا التكلف ، فقد ذكر النقاد ان أبا نواس كذلك مسبوق، على ان تشبيه هتك الحوادث لاستار الحمراء بهتك النعي لدار العرس ، أروع من تشبيه أثر الخمر في مفاصل الندامى باثر البرء فى جسم السقيم ، وقول شوقى

مشت الحادثات فى غرف الحمـــــراء مشي النعي فى دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت سـدة الباب من سمير وأنس

فيه روعة ، وفيه جلال ، فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء ، ويصور مع هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان ... أما قوله

وترى مجلس السباع خلاءً ... مقفر القاع من ظباء وخُنس
لا الثريا ولا جواري الثريا ... يتنزلن فيه أقمار انس

فهو وصف انفرد به ، ولم يعرض لمثله البحتري ، وكان عجباً ان يغفل عن ايراده ، فان القصور الخالية تذكر الانسان فيما تذكر بمن كان يرتع فيها ويلعب ، من كل ممشوقة القد ، مجدولة الخلق ، مصقولة الجبين

(خروج العرب من الجنة)

وقد انفرد شوقي كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة ، ولا أعبر بغير ذلك ، فقد كان شعراء الاندلس يتغنون بذلك الفردوس ويرونه حسبهم من نعيم الآخرة والاولى ، ولقد نظر شوقي الى خروجهم نظرة مملوءة بالدمع حين قال

آخر العهد بالجزيرة كانت ... بعد عَرك من الزمان وضَرس
فتراها تقول راية جيش ... باد بالامس بين أسر وَحبْس
ومفاتيحها مقاليد ملك ... باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم في كتائبَ صُم ... عن حفاظ كموكب الدفن خُرس
ركبوا بالبحار نعشاً وكانت ... تحت آبائهم هي العرش أمس
ربَّ بانٍ لهادم وَجَمُوع ... لمشتّ ومحسن لمخسّ
إمرة الناس همة لا تأتّى ... لجبان ولا تسنّى لجبس
واذا ما أصاب بنيان قوم ... وَهْيُ خُلق فانه وهي أُس

ومع ان شوقي أشار كما ترى في هذه الابيات الى ان ضعف العرب في أُخريات أيامهم كان السبب في خروجهم من تلك البلاد — إذ كانت إمرة الناس لا تتسنّى لجبس ولا تتأتى لجبان — فقد أشار كذلك برفق

الى أن عهدهم لم ينقض الا بعد عرك من الزمان وضرس . والحق ان فتح العرب للاندلس كان من الاحداث الخطيرة ، وكان من الطبيعي ان تدور عليهم الدائرة، وان يحل بهم ما حل بالفرس والروم. ولا تذكر ماشبَّ في صدورهم من نار العداوة والبغضاء ، ولا ما شجر بينهم على الملك من خلاف ، ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات ، ولكن اذكر أنهم كانوا يحتلون بلاداً لا يزال أهلها يفكرون في الحرية ويحلمون بالاستقلال، والامة الضعيفة لا تضرب عليها الذلة والمسكنة أبد الآبدين ، كما يتوهم الفاتحون ، وانما يظل ضعفها يفتك بالغاصبين في خفاء ، كما تفتك في ضعفها الجراثيم ، ثم ينتفض هذا الضعف فجأة فاذا هو قوة جارفة تسقط من بأسها الممالك وتَطيحُ من هولها العروش . فان كنت في ريب من ذلك فحدثني ماذا صنع العرب بالشعوب التي ملكوها باسم الدين ؟ ألم تثأر تلك الشعوب لنفسها من الدين؟ ألم يهجموا عليه بجيش من الوساوس والخرافات والاضاليل والاباطيل حتى صيروه كالخرقة البالية لا تصلح لزينة ، ولا ستر ، ولا وقاية ؟ اسمع يا صاح ! القوة هي كل شيء في هذا الوجود ، والقوة فوق الحق ، فان أردت ان تحيا فتسلّح لهذه الحياة ، والقوة هي السلاح، ومن قال بغير ذلك فهو في حاجة الى استشارة الطبيب !

وكذلك كان العرب ، فقد ركبوا البحر وهم أقوياء ، فكان عرشاً ، وركبوه وهم ضعفاء ، فكان نعشاً ، وما تغير البحر ، ولكن تغير الناس ، ركبوه أول مرة وهم فاتحون ، ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون ، وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار !

ثم قال شوقي في توديع تلك الديار

يا دياراً نزلت كالخلد ظلاً　　وجنًى دانياً وسلسال أنسِ
محسنات الفصول لا ناجرٌ فيها　　بقيظ ولا جمادى بقرْسِ
لا تحس العيون فوق رباها　　غير حُور حُوِّ المراشف لُعْسِ
كسِيَتْ أفرُخي بظلك ريشاً　　ورَبا في رُباك واشتدَّ غرسي
هم بنو مصر لا الجميل لديهم　　بمُضاع ولا الصنيع بمنسي
من لسان على ثنائك وقْف　　وجنان على ولائك حبْسِ
حسبهم هذه الطلول عظات　　من جديد على الدهور ودَرْسِ
واذا فاتك التفاتٌ الى الما　　ضي فقد غاب عنك وجه التأسي

وما أريد الخوض في تحليل هذه الابيات ، فقد طال الحديث ، انما اذكر اننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقي في الاندلس ، وغنمنا معها « قطعة خشب » من قصر الحمراء تجدها في متحف الشاب المهذب حسين شوقي، ويا ليتنا نحرص على ما بقي في أيدينا من ملك العرب والمسلمين..!

***

وسيذكر القارىء بعد هذا كله اني أوازن بين البحتري وشوقي ، وسيسأل أيهما أشعر ، وأنا ارجوه ان يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء ، أما أنا فقد حكمت، والسلام

البحث التاسع عشر

(البوصيري وشوقى)

للبوصيري قصيدة مشهورة تسمى «البردة» عارضها شوقى بقصيدة سماها « نهج البردة » وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيرى وشوقى من العلم بأسرار الاسلام ، فقد عني هذان الشاعران بدرس الشريعة لاظهار ما فيها من المحاسن، ودرء ما يُوجه اليها من الشبهات ، وسيكون موقفنا فى درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ ، وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرخ الاشخاص . وحسبنا أن ندل القاريء على مواطن الضعف فيما صبغ من الافكار بصبغة اسلامية، وللقاريء بعد ذلك رأيه ، فان شاء مضى في البحث والتنقيب ، وان شاء رضي وا كتفى بما عليه عامة الناس ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

(حياة البوصيري)

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج . كان أحد أبويه من (ابو صير) والآخر من (دلاص) فركبت له منهما نسبة وقيل : (الدلاصيري) لكنه اشتهر بالبوصيري . وكان يعاني صناعة الكتابة والتصرف ويباشر الشرقية ببلبيس (راجع فوات الوفيات) (١)

والبوصيري شاعر مصرى ظريف من شعراء القرن السابع تجري

---

(١) توفي البوصيري سنة ٦٩٥ هـ ، وله قبر مشهور في الاسكندرية يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية

فى شعره النكت المستملحة . وله في شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد رشيقة تجلو صدأ النفوس ، وفي شعره وصف للحالة الاجتماعية في عصره ، وأحسبه من الصادقين ، فهو يذكر ان الموظفين كانوا يسرقون الغلال ، وانهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير ، ولا شربوا الخمور ، وان من الكتّاب طائفة تنسكت وعدت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت وتأكل مال الايتام ، ويذكر ان القضاة خانوا الامانة ، وبرروا خيانتهم بتأويل القرآن والحديث ، ويذكر ان المسلمين والاقباط كانوا مختلفين ، فكان المسلمون يقولون : لنا بمصر حقوق ونحن أولى الآخذين ، وكان القبط يقولون : نحن ملوك مصر ومن سوانا هم الغاصبون ، وكان اليهود يستحلون مال الطوائف اجمعين . وفي ذلك يقول

نقدت طوائف المستخدَمينا ... فلم أر فيهمو حراً أمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم ... مع التجريب من عمري سنينا
فكتاب الشمال همو جميعاً ... فلا صبحت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا ... بهم فكأنهم سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريراً ... ولا شربوا خمور الاندرينا
ولا ربوا من المردان مرداً ... كأغصان يملن وينحنينا
وقد طلعت لبعضهمو ذقون ... ولكن بعد ما حلقوا ذقونا
واقلام الجماعة جائلات ... كأسياف بأيدي لاعبينا
وقد ساومتهم حرفاً بحرف ... وكل اسم يخطوا منه سينا
أمولاي الوزير غفلت عما ... يتم من اللئام الكاتبينا
تنسك معشر منهم وعُدُّوا ... من الزهاد والمتورعينا

وقيل لهم دعاءٌ مستجابٌ وقد ملؤا من السحت البطونا
تفقهت القضاة فخان كلٌ أمانته وسموه الأمينا
وما أخشى على اموال مصر سوى من معشر يتأولونا
يقول المسلمون لنا حقوق بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط نحن ملوك مصر وان سواهمو هم غاصبونا
وحلت اليهود بحفظ سبت لهم مال الطوائف أجمعينا
وما ابن قطيبة الا شريك لهم في كل ما يتخطفونا
أغار على قرى (فاقوس) منه بجور يمنع النوم الجفونا
وصير عينها حملاً ولكن لمنزله وغلتها خزينا
وأصبح شغله تحصيل تبر وكانت راؤه من قبل نونا
وقدمه الذين لهم وصولٌ فتمم نقصه صلة اللذينا
وفي دار الوكالة أي نهب فليتك لو نهبت الناهبينا
فقام بها يهوديّ خبيث يسوم المسلمين أذًى وهُونا
اذا ألقى بها موسى عصاه تلقفت القوافل والسفينا
وشاهدهم اذا اتهموا يؤدي عن الكل الشهادة واليمينا

وهذه القطعة ذكرها صاحب فوات الوفيات من قصيدة طويلة يذكر أنها كانت مشهورة، وشهرتها فيما لا نرى ترجع الى قيمتها الأدبية لأنها قصيدة ضعيفة يغلب عليها الابتذال، وانما ترجع شهرتها الى ما فيها من التنديد بالموظفين ، والناس يبغضون الموظفين حين يعرفون بالطمع والاستبداد. ولهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخية، فهي شاهد على اختلاف الطوائف في مصر وعلى ما كان يجري اذ ذاك بين المسلمين

والنصارى واليهود ، وهي كذلك شاهد على عيوب الادارة في ذلك الحين !

ومن شعر البوصيري فيما يجري مجرى الدعابة قوله في الحديث عن جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف

أهوًى والمشيب قد حال دونه ... والتصابي بعد المشيب رُعونَهْ
أبت النفس أن تطيع وقالت ... ان حبي لا يدخل القنّينهْ
كيف أعصى الهوى وطينة قلبي ... بالهوى قبل آدم معجونه
سلبته الرقاد بيضة خِدْرٍ ... ذات حسن كالدُّرة المكنونه
سُمْتها قبلة تسرُّ بها النفـ ... ـس فقالت كذا أكون حزينه
قلت لا بد أن تسيري الى الدا ... ر فقالت عسى ! أنا مجنونه !
قلت سيري فانني لك خيرٌ ... من أب راحم وأُم حنونه
انا نعم القرين ان كنت تبغيـ ... ـن حلالاً وأنت نعم القرينه
قالت اضرب عن وصل مثلي َصفـ ... ـحاً واضرب الخل أو يصير طحينه
لا أرى أن تمسّني يد شيـ ... ـخ كيف أرضى به لطشتي مشينه
قلت اني كثير مال فقالت ... هبك أنت المبارز القارونه

وهذا أيضاً شعر ضعيف ، ولكن فيه «حكاية ظريفة» من حكايات مولانا الشيخ رضي الله عنه وأرضاه ! وأظرف من هذه القطعة أبياته التي بعث بها الى ناظر الشرقية ، وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته ، فكتب على لسانها اليه :

يا أيها السيد الذي شهدت ... اخلاقه لي بأنه فاضلْ
ما كان ظني يبيعُني أحد ... قط ولكنَّ صاحبي جاهلْ
لو جرّسوه عليَّ من سفهٍ ... لقلت غيظاً عليه يستاهل

أقصى مرادى لو كنت في بلدى   أرعى بها فى جوانب الساحل
وبعد هـذا فما يحل لـكم   اخذي لأني من سيدى حامل

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الابيات ، وردّ اليه الحمارة ، ولم يكن فيها من الزاهدين :

ونحن نستملح كذلك قصيدته التي بعث بها الى احد الوزراء في شكوى حاله ، وهي قصيدة طريفة ، يذكر فيها انه فقير ، وان ابناءه لا يجدون ما يأكلون ، وانهم يتحسرون لفقد الـكعك ايام الاعياد ، وأن امرأته زارت أختها وشكت اليها سوء الحال ، فأشارت عليها بضربه ، ونتف ذقنه شعرة شعرة :وفى تفصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير

اليك نشكو حالنا إننا   حاشاك من قوم اولى عُسْره
في قلة نحن ولـكن لنا   عائلةٌ في غاية الكثره
أحدّث المولى الحديث الذي   جرى لهم بالخيط والإبرة
صاموا مع الناس ولـكنهم   كانوا لمن أبصرهم عِبره
ان شربوا فالبئر زيرٌ لهم   ما برحت والشربة الجرّه
لهم من الخبز مسلوقة   في كل يوم تشبه النشره
اقول مهما اجتمعوا حولها   تنزّهوا في الماء والخضره
وأقبلَ العيدُ وما عندهم   قمحٌ ولا خبز ولا فطرة
فارحمهمو ان عاينوا كعكةً   في كف طفل أو رأوا تمره
تشخص ابصارهمو نحوها   بشهقة تتبعها زَفْرة
كم قائل يا أبتا منهمو   قطعت عنا الخبز في كرّه
ما صرت تأتينا بفلسٍ ولا   بدرهم ورق ولا نقره

وأنت في خدمة قوم فهل تخدمهمو يا أبتِ سُخره
ويوم زارت امهم اختها والاخت في الغيرة كالضرة
واقبلت تشكو لها حالها وصبرها مني على العِشْره
قالت لها كيف تكون النسا كذامع الازواج ياعُرّه !
قومي اطابي حقك منه بلا تخلُّف منك ولا فتره
وان تأبىَّ تخذى ذقنهُ أو انتفيها شَعرةً شَعره
قالت لها ما هكذا عادتي فان زوجي عنده ضَجْره
أخاف ان كلمته كِلْمةً طلقني قالت لها بعره
وهوّنت قدريَ في نفسها فجاءت الزوجة مُجترّة
فقاتلتني فتهددتها فاستقبلت رأسي بآجُرّه
وحقٌ من حالته هذهِ أن ينظر المولى له أمره

وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية ، ولا تزال بقاياها موجودة في بلبيس دائرة الاستاذ فكري اباظه :

— قصيدة البردة —

تُعد قصيدة البردة أول قصيدة قيّمة في مدح الرسول عليه السلام، ولم تكن المدائح النبوية مما يتكلم فيه الشعراء ، والبوصيري هو الذي ابتكر هذا النوع ، أو هو الذى بسطهُ وأطال فيه القصيد ، فان قصائد الكميت بن زيد في مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذى اكثر منه المولدون ، وقد مُدح الرسول في حياته ، مدحه كعب بن زهير بلاميته المشهورة التي يقول في أولها

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ   متيم إثرها لم يفد مكبولُ
وما سعاد غداة البين اذ رحلوا   إلا أغنُّ غضيض الطرف مكحول

ومدحه الاعشي بداليته التي يقول فيها

فأقسمت لا أرثي لها من كلالة   ولا من وجًى حتى تلاقي محمدا
نبيٌّ يرى ما لا يرون وذكرهُ   أغار لعمرى في البلاد وأنجدا

ويرتاب استاذنا الدكتور طه حسين في قصيدة الاعشي ، ويظنها من وضع الرواة ، وهي على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية ، وكذلك بانت سعاد ، لان المدح الذى جرى على لسان كعب والاعشي لا يزيد شيئاً عن غيره من المدح الذى جرى في ذلك العهد ، موجهاً الى الملوك ، أما المدائح النبوية فتمتاز بعدّ شمائل النبي وسرد ما فى الرسالة من المحاسن الباقية ، ودفع ما وُصِمَ به الرسول من النقائص والعيوب . وهي فوق هذا كله تقال وتنشد تقرباً الى الله ، وهي عند الصوفية من جملة الاوراد

وقد حدثنا البوصيرى عن سبب وضعه للبردة فقال « كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها ما كان اقترحه عليّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك أن اصابني فالج أبطل نصفي ، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها ، واستشفعت به الى الله تعالى في أن يعافيني ، وكررت انشادها ودعوت وتوسلت ، ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فمسح على وجعي بيده المباركة ، وألقى عليّ بردة فانتبهت ووجدت فيّ نهضة ، فقمت وخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحداً فلقيني بعض الفقراء فقال لي: أريد ان تعطيني القصيدة التى مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فقلت أيها فقال : التى أنشأتها في مرضك ، وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة ، فأعطيته اياها ، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام »

وفى هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيرى ، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة ، كأكثر الصوفية ، فليس من المعقول ان يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها ، أو قصيدة ينشدها ، كما برىء البوصيرى بقصيدته ، ولو مرض مفتى الديار المصرية،لا سمح الله،ما استغنى بالبردة عن الطبيب! ولعل حكاية البوصيرى هذه هى سبب ماسار بجانب البردة من الخرافات، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة ، فبعضها أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون !؟ وهذا النوع من الغفلة قديم :فقد كان الزمخشرى يذكر شيئاً من مثل هذا عن سور القرآن ...ونلاحظ كذلك ان البوصيرى كرر عبارة « صلى الله عليه وسلم » خمس مرات فى هذه الفقرة الصغيرة . وتكرار الصلاة على النبي كلما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين ، وقد زاد البوصيرى على ذلك فى القصيدة المضرية:فهو يدعو الله أن يصلي على النبي وشيعته وصحبه عدد الحصى والثرى والمدر،وعدد نجم السماء ونبات الأرض ، وعدد وزن مثاقيل الجبال ،وقطر جميع الماء والمطر،وما حوت الاشجار من ورق،وعدد الحروف المقروءة والمكتوبة ، وعدد الوحش والطير والاسماك والانعام،وعدد الجن والانس والاملاك، وعدد الذر والنمل والحبوب والشعر والصوف والريش والوبر ، وعدد ما أحاط به العلم المحيط وما جرى به القلم والقدر، وعدد نعم الله على الخلائق

مذ كانوا ومذ حشروا، وعددما كان في الأكوان وما يكون الى يوم البعث، وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد

في كل طرفة عين يطرفون بها أهل السموات والارضين أو يذروا
ملء السموات والارضين مع جبل والفرش والعرش والكرسي وما حصروا
ما أعدم الله موجوداً وأوجد مع دوماً صلاة دواماً ليس تنحصر
تستغرق العد مع جمع الدهور كما تحيط بالحد لا تبقي ولا تذر

وهذا النمط من الصلاة على النبي لم يكن معروفاً في صدر الإسلام وانما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب « دلائل الخيرات »

والبردة بعد هذا كله مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية، وقد كانت جزءاً من الهدية التي قدمها ابن خلدون الى تيمورلنك، ولهذه الهدية قيمتها في تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين

(نهج البردة)

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقي تذكاراً لحج الخديو السابق سنة ١٣٢٧ ﻫ وقدمها اليه بكلمة صغيرة، ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم البشري شرحاً وجيزاً بيناً قال في نهايته « ولو أن الكاتب عمد الى كل بيت ففسر غريبه، وفصل مجمله، وأفشى معناه، ونزل عند مغازيه، وعرض على وجوه العربية مفرده ومركبه، وأرسل الاشارة الى كل ماوقع له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصة التي يومأ اليها فيه، ووازن بينه وبين مايجانسه من الشعر ويسايره من الكلام، وغير ذلك مما يجري في شرح الكلام ويدخل في أبواب نقده وتفسيره، لطال القول وتجاوز القصد »

وكنا نسمع في مجالس أهل العلم بالادب ان الشيخ سليم البشري لم يشرح نهج البردة ، وانما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز البشري ، وهذا كلام نقوله لأهميته في تاريخ الآداب ، فان شاء الشيخ عبد العزيز أيده وان شاء نفاه . ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد بك المويلحي ، وهي مقدمة تتناسب مع ما كتبت له ، فقد حقق فيها ان الشعر باب من أبواب الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام » وأتعب نفسه في التفرقة بين الشعر وبين القرآن ، ووصل الى « ان القرآن ليس بشعر ، وما هو من الشعر في شيء ، واين هو من الشعر ، والشعر انما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فأين الوزن ، وأين التقفية ، واين المعاني التي ينتحيها الشعراء من معانيه ، وأين نظم كلامهم من نظمه واساليبه » ثم قال « فاذن لا مناسبة بينه وبين الشعر اذا حققت » وكان الظن بصاحب عيسى بن هشام ان يعرف ان الكلام في تحريم الشعر واباحته مما ينبو عنه الذوق في القرن العشرين ! !

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيداً للموازنة بين البردة ونهج البردة ، وإنا انرجو ان يكون في هذا التمهيد بعض الغَناء

———— –

البحث العشرون

(بين البوصيرى وشوقي والبارودى)

ابتدأ البوصيرى قصيدته بالتشبيب، ونحا شوقي منحاه ، وتلك عادة عربية قديمة ، لم يفكر الشعراء في تركها الا في هذا الجيل ، وإن كان منهم من نالها بملام ، كالمتنبي اذ يقول :

إذا كان مدح فالنسيب المقدّمُ   أكل فصيح قال شعراً متيّمُ ؟

وكان للصوفية شيء من الغزل المستملح المقبول ، فكان مريدوهم يؤولونه ويرونه موجهاً الى الذات الالهية، أو الحضرة النبوية ، ولهم في ذلك التأويل أعاجيب يبسم لها ثغر الحزين ، فليرجع اليها من شاء في كتب التوحيد ، ليقف على شيء من تصورات أولئك الناس ، فقد برروا ما جرى على ألسنة شيوخهم من المجون ، وجعلوه نوعاً من الرمز والتمثيل ، وتلطف المتأدبون منهم فأجروه مجرى الاستعارة التمثيلية ، وألحقوا ما يجرى بين عشاق الأرواح ، بما يجرى بين عشاق الاشباح ، الى آخر ما لهم في هذا الباب من لطف الاحتيال

وهذا كله أثر تلك العادة : وهي افتتاح الشعر بالنسيب وهي عادة لم يقلع عنها شوقي الى الآن . وأظرف ما وفعله فيهذا المسلك قصيدته في « مشروع ملنر » فقد افتتحها بهذه الأبيات

اثن عنان القلب واسلم بهِ   من ربرب الرمل ومن سِربهِ
ومن تثنّي الغيد عن بانهِ   مرتجة الأرداف عن كثبه

ظباؤه المنكسرات الظبا يغلبن ذا اللب على لُبِهِ
بيض رِقاق الحسن في لمحة من ناعم الدر ومن رطبه
ذوابل النرجس في أصله بوانع الورد على قُضْبِهِ
زِنَّ على الارض سماء الدجى وزدن في الحسن على شُهْبِهِ
يمشين أسراباً على هِينةٍ مشي القطا الآمن في سربِهِ
من كل وسنان بغير الكرى تنتبه الآجال من هُدْبِهِ

وهي قصيدة طويلة ، ثلثها في النسيب ، ويذكر شوقي أنهُ قالها كارهاً ، ولا يبعد على هذا أن يكون ما افتتحها بهِ من التشبيب جزءاً من المنحة التي اجتداها أنصار المشروع إذ ذاك !! وقد رأيت من شعراء العصر من يعجب من الحملة التي وجهها النقاد إلى افتتاح الشعر بالنسيب وهو يرى ذلك نوعاً من الرياضة لقرائح الشعراء ، وأذكر أني رأيت في كلام القدماء ما يؤيد هذا المعنى ، فقد كان منهم من يرى التوفيق الى اجادة التشبيب باباً للتوفيق الى الاجادة في سائر القصيدة . ومهما يكن من شيء فقد سار البوصيري وشوقي على أثر من تقدمهم من الشعراء، ولا تقل كان الأدب يقضي بتجنب هذا المنهج فى المدائح النبوية، فقد شبب كعب بن زهير بمحبوبته ، وهو فى حضرة الرسول ، فما لامهُ النبي ، ولا أنكرها عليه أصحابه ، ولا آخذه بها مؤرخو الآداب

ولنا أن نلاحظ أن البوصيري جرى في تشبيبه مجرى المحاكاة والتقليد ، فانا نراه يقول في مطلع البردة

أمن تذكر جيران بذي سَلَمِ مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم

وذو سلم واد ينحدر عن الذنائب في أرض بني البكاء على طريق البصرة الى مكة كما ذكر ياقوت ، وفيه يقول كثير

أمن آل سلمى دمنةٌ بالذنائبِ ... الى الميث من ريعان ذات المطارب
يلوح بأطراف الأجدة رسمها ... بذي سلم أطلالها كالذواهب

وكاظمة جو على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة ، وفيه يقول بعض الشعراء

يا حبذا البرق من أكناف كاظمة ... يسعى على قصرات المرخ والعُشَرِ
لله در بيوت كان يعشقها ... قلبي ويألفها ان طيِّبت بصري
فقدتها فقد ظمآن أداوتهُ ... والقيظ يقذف وجه الارض بالشرر
أمنية النفس ان تزدار ثانية ... وحالنا والاماني حُلوة الثمرِ

وإضم واد بجبال تهامة ، وهو الوادى الذى فيه المدينة ، وفيه يقول سلامة بن جندل

يا دار أسماء بالعلياء من اضم ... بين الدكادك من قو فمصوبِ
كانت لها مرة داراً فغيّرها ... مر الرياح بسافي الترب مجلوب

وذِكر البوصيري لهذه المواطن ، وشغفه بها ، وحنينه اليها ، ينافى مصريته ، وكان له ان يتشوق الى احبابه في بلبيس أو فاقوس ، كما يتشوق بعض الناس الى أحبابه في سنتريس وأسيوط ، ولكن يظهر ان المغاني العربية كانت احتلت رءوس الشعراء ، فكان من ذلك ان اكثروا من ذكر نجد ، وسلع ، وأروند ، وان لم يكن لهم بهذه المواطن هوى ، ولم ينعموا فيها باصطباح ولا اغتباق ، ولذلك نجد التكلف ظاهراً في حديث البوصيري عن جيرانه بذي سلم ، ونحسبه اختارها للقافية ، كما اختار « إضم » لهذا

الغرض ، وأين هذا الوجد المتكلّف من قول من شُغل عن أروند ببغداد

وقالت نساء الحي أين ابن اختنا ألا خبّرونا عنه حُييتمو وفدا
رعاه ضمان الله هل في بلادكم أخو كرم يرعى لذي حَسَب عهداً
فان الذي خلفتموه بأرضكم فتيً ملأ الاحشاء هجرانهُ وجدا
أبغدادكم تنسيه أرْوَنْد مربعاً ألاخاب من يشري ببغداد أروندا
فدتهنّ نفسي لو سمعن بما أرى رمي كل جيد من تنهده عقدا

ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق الى تلك المواطن لصلتها بمدينة الرسول ، وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا اليه من انه يتغزل محاكاة وتقليداً ، ولو كان صادق اللوعة لشبب بغادة مصرية ، وحن الى مغنى من مغاني النيل .. ولم يتقيد شوقي بهذا القيد حين قال

ريم على القاع بين البان والعلَمَ أحل سفك دمي في الاشهر الحرم

وانما أطلق نفسه من ربقة التقليد ، فلم يتحدث عن نجد ولا عن تهامة ، وان غلبت عليه بعض الاخيلة العربية ، فان سفك الدم فى الاشهر الحرم بقية من خيال الاعراب ، فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السيوف ويظلون لاعاصم لهم من فتك العيون

ولم يوفق البوصيري الى حسن الاداء حين قال

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

فان قوله « جرى من مقلة » حشو لا قيمة له ، ولا وجه لما يقوله بعض الشيوخ من أن ذلك تأكيد ، فانه لم يشكّ أحد فى ان الدم يجري من العين

ومن رجال الادب من لا تروقه كلمة « على القاع » فى قول شوقى

(ريم على القاع بين البان والعلم) أما قوله «أحل سفك دمي فى الاشهر الحرم» ففيه مقابلة يستملحها علماء البديع، وفيه براعة استهلال، وهو كذلك غاية فى حسن الاداء

وقول البوصيري:

فما لعينيك ان قلت اكففا هَمَتا وما لقلبك ان قلت استفق يَهِم

فيه ضعف وابتذال، وهو غير موصول بسابقيه، وقد انتقل قبل ان يتم المعنى فقال

أيحسب الصب ان الحب منكتمٌ ما بين منسجم منه ومضطرمِ
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا أرِقت لذكر البان والعلم

وقد حار الشراح فى ربط هذه الابيات:

وقد يستجاد قوله:

فكيف تنكر حباً بعد ما شهدت بهِ عليك عُدول الدمع والسقَم
وأثبت الوجد خَطّيْ عبرةٍ وضنًى مثل البهار على خديك والعَنَمِ

وشوقى أبرع من البوصيري في الحديث عن طيف الخيال. فانا نجد البوصيري يقول

نعم سَرَى طيف من أهوى فأرّقني والحب يعترض اللذاتِ بالألمِ

وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى. أما شوقى فقد أفصح عن مراده حين قال

ياناعس الطرف لاذقت الهوى أبداً
أسهرت مضناك في حفظ الهوى فنم
أفديك ألفاً ولا آلو الخيالَ فدًى

أغراكَ بالبخل من أغراه بالكرمِ

سرى فصادف جُرْحاً دامياً فأسا

ورب فضل على العشاق للحلمُ

والفرق بعيد بين قول البوصيري

نم سرى طيف من أهوى فأرقني

و بين قول شوقي

سرى فصادف جرحاً دامياً فأسا

وشوقي يجيد هذا النوع من الترتيب، وهو صاحب هذا البيت البديع

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاء

وقول شوقي « ورب فضل على العشاق للحلم » أرفق من قول البوصيري « والحب يعترض اللذات بالألم » — أما قول شوقي

ياناعس الطرف لاذقت الهوى أبداً

اسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنم

فهو عندي أغزل بيت قاله المحدثون ... وفى قوله

أفديك ألفاً ولا آلو الخيال فدًى اغراكَ بالبخل من أغراه بالكرم

صورة صادقة لعَبث العشق بالقلوب: فهو يغري المحبوب بالبخل، ويغرى طيفه بالجود، وسماحة الطيف بابٌ الى اضطرام الفؤاد

ويقول البوصيرى فى مدافعة اللائمين

يا لائمي فى الهوى العذرىّ معذرةً مني اليك ولو أنصفت لم تلم

ويقول شوقى

يا لائمي في هواه والهوى قدر لو شفّكَ الوجد لم تعذل ولم تلمِ

وبيت شوقى أجمل ، وقوله « الهوى قـدر » من أبدع ما قيل في دفع العذل والملام . أما قوله «لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم» فهو أجود فى معناه من قول الشريف الرضي

أقول للائم المهدي ملامته   ذق الهوى وان أسطعت الملام لُم

ومن قول ابن الفارض :

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى   فاذا عشقت فبعد ذلك عنّف

ولكن البوصيري كان أرق وهو يحاور اللائم بقوله

عدتك حاليَ لاسري بمستتر   عن الوشاة ولا دائي بمنحسم

أما شوقى فقد غلبت عليه الحكمة وهو يقول في حوار لائمه

لقد أنلتك أذناً غير واعية   ورب منتصت والقلب في صمم

وشوقي يخلق الفرص ليقذف بالكلمة الحكيمة ، وتلك احدى سماته ، ولكنها قد تزحزحه عن اصابة الغرض في بعض الاحيان ؛ على أن من الحق أن نذكر أن شوقي يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه ، فكان له أن يصرح بانه منح العاذل اذناً غير واعية ، وقلباً غير سميع ، ولا كذلك البوصيري فقد جعل الوجد داء ترجى منه السلامة ، ووصف لائمه بنصح الحبيب حين قال

محضتني النصح لكن لست اسمعه   ان المحب عن العذال فى صمم

الى هنا فرغ البوصيري من النسيب ، فلنقف قليلا عند المعاني التى انفرد بها شوقي ، وانا لنستجيد قوله

رمى القضاء بعيني جؤذر أسداً   ياساكن القاع أدرك ساكن الاجم

وهذا معنى قديم ، والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم

يرمي به القضاء ، فهو لا يذكر ان الجؤذر رماه وانما يذكر ان القضاء رماه بعيني جؤذر ، والقضاء خبير بانواع النصال . وقد بلغ غاية الرفق في قوله

لما رنا حدثتني النفس قائلةً يا ويح جنبك بالسهم المصيب رُمي
جحدتها وكتمت السهم في كبدي جُرْحُ الأحبة عندي غير ذى ألم
رُزقت أسمح ما في الناس من خُلق اذا رزقت التماس العذر في الشيم

والبيت الأخير يمت الى ما قبله بصلة ضعيفة ، لأن النظرة الفاتنة أعز وأمنع من أن تعد من جملة الذنوب ، والذى يكتم جرح الحب لا يصفح لمحبوبه عن جناية ، فما هذا المنّ على الجمال ! وأخطا شارح القصيدة حين استأنس بقول المتنبي

إن كان سركمو ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكمو ألم

ثم أخذ شوقي يصف هذا السّرب الذى صحب حبيبته فقال :

من الموائس بانًا بالرُّبى وقنًا اللاعبات بروحي السافكات دمي
السافرات كأمثال البدور ضحًى يُغِرن شمس الضحى بالحَلْي والعصم
القاتلات بأجفان بها سَقَمٌ وللمنية أسباب من السقمِ
العاثرات بألباب الرجال وما أُقلن من عَثَرات الدَّل في الرسَم
المضرمات خدودًا أسفرت وجلت عن فتنة تُسلم الأكباد للضرم
الحاملات لواء الحسن مختلفًا أشكاله وهو فرد غير منقسم
من كل بيضاء أو سمراء زينتا للعين والحسن في الآرام كالعصم
يُرَعْنَ للبصر السامي ومن عجب اذا أشرن أسرن الليث بالعنم
وضعت خدى وقسمت الفؤاد رُبًى يرتعن في كُنسٍ منهُ وفي أكم

وهـذه القطعة من البيان المشرق الجميل ، وأستملح منها قوله :

العاثرات بألباب الرجال وما أقلن من عثرات الدل في الرسم

فقد جعلهن يمشين على القلوب ، فيعثرن بقلب بعد قلب ، وان لم يسلمن من عثرات الدلال ، وهن يتخطرن في الضحى وعند الأصيل... وأستجيد كذلك قوله

يرعن للبصر السامي ومن عجب إذا أشرن أسرن الليث بالعنم

فقد وصفهن بالخفر والحياء ، وذكر أنهن يرعن حين تسمو اليهن العين ، والسحر كل السحر في الحسن الحذِر الهيوب ، وكان من العجب أن يأسر هؤلاء الخفرات الليث اذا أشرن اليه بالبنان المخضوب . . . وما أروع قوله بعد ذلك في خطاب محبوبته

يا بنت ذى اللبد المحمي جانبه ألقاك فى الغاب أم ألقاك فى الأطم
ما كنت أعلم حتى عن مسكنه ان المنى والمنايا مضرب الخيم(١)
من أنبت الغصن من صمصامة ذكرٍ وأخرج الريم من ضرغامة قرِم
بيني وبينك من سُمر القنا حجب ومثلها عفة عذرية العصم
لم أغش مغناك الا فى غضون كرى مغناك أبعد للمشتاق من إرم

وفى هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذى تحوكه الطبيعة وانها لصناع ؛ ومن ذا الذى لم يفكر في الرجل يقطر من جوانبه البأس،

---

(١) يرى أستاذنا الدكتور طه أن أخيلة شوقي خلت من الصبغة المصرية وهو يتكلم عن البان والعلم ، ومضرب الخيم ، وأن قوله « يا بنت ذي اللبد » يذكرنا بقول ابن هانىء

يا بنت ذي السيف الطويل نجاده اكذا يجوز الحكم في ناديك

وتعبس الدنيا حين يعبس ، ويثور الوجود حين يثور ، وفي بيته فتاة من من صلبه تحسبها لرقتها وحيائها ظبية تتثنى أو غصناً يميد ! وقول شوقى

ما كنت أعلم حتى عن مسكنه أن المنى والمنايا مضرب الخيم
من أنبت الغصن من صمصامة ذكر وأخرج الريم من ضرغامة قرم

أجود في معناه من قول الطغرائي :

إني أريد طروق الحي من إضم وقد حماه رُماة من بني ثُعَلِ
يحمون بالبيض والسمر اللدان به سود الغدائر حمر الحَلْي والحُلَلِ

وانما كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التي سجل بها شوقى عجبه من أن ينبُتَ الغصن من السيف الذكر ، ويخرج الريم من الضرغامة القرم! وقول شوقى:

بيني وبينك من سمر القنا حجب ومثلها عفة عذرية العصم
لم أغش مَغناك الا في غضون كرى مغناك أبعد للمشتاق من إرم

أصرح فى معناه وأجود من قول الطغرائي

نؤم ناشئة بالجزع قد سقيت نصالها بمياه الغُنج والكَحَلِ (١)
قد زاد طيب أحاديث الكرام بها ما بالكرائم من جبن ومن بَخَلِ
تبيت نار الهوى منهن في كبد حرّي ونار القِرى منهم على القُلَلِ
يقتلن انضاء حب لا حراك بها وينحرون كرام الخيل والإبل

« قصيدة البارودي »

ونريد ان نلم إلمامة قصيرة بقصيدة البارودي التي سماها « كشف الغمة في مدح سيد الامة » وهى ميمية طويلة ضمنها سيرة النبي عليه السلام من حين مولده الى يوم انتقاله الى جوار ربه ، وبناها كما قال على سيرة

(١) الغنج حلاوة العينين

ابن هشام . والبارودي شاعر فحل ، يعتز به تاريخ الأدب في مصر وقد نوازن بينه وبين أبي فراس ولم نفكر في الموازنة بينه وبين البوصيري لانا لم نتأكد من انه رمي الى معارضته ، ولكن استاذنا الدكتور طه حسين يرى من الواجب ان تقدم للقاري، نماذج من قصيدة (كشف الغمة) في المواطن التي يعرض لمثلها البوصيري وشوقي ، ليكون الموضوع أوفى ، وليجد القارىء في تعدد الصور الشعرية مجالاً للنقد والتمييز ... فلنذكر الآن مابدأ به البارودي قصيدته من النسيب . قال

يارائد البرق يمِّم دارةَ العَلَمِ ... واحدُ الغمام الى حي بذي سَلَمِ
وان مررت على الروحاء فامرْ لها ... أخلاف سارية هتَّانة الدِّيَمِ
من الغزار اللواتي في حوالبها ... ريُّ النواهل من زرع ومن نَعَمِ
اذا استهلت بأرض نمنمت يدُها ... بُرداً من النور يكسو عاريَ الأكمِ
ترى النبات بها خضراً سنابلهُ ... يختال في حُلة موشيَّة العَلَمِ
أدعو الى الدار بالسقيا وبي ظمأ ... أحق بالري لكنني أخو كَرَمِ
منازل لهواها بين جانحتي ... وديعة سرها لم يتصل بفمي
اذا تنسمت منها نفحة لعبت ... بيَ الصبابةُ لِعبَ الريح بالعلم
أدرْ على السمع ذكراها فان لها ... في القلب منزلة مرعية الذمم
عهد تولىَ وأبقى في الفؤاد لهُ ... شوقاً يفلُّ شباة الرأي والهمم
اذا تذكرته لاحت مخائلهُ ... للعين حتى كأني منه في حُلُمِ
فما على الدهر لو رقت شمائلهُ ... فعاد بالوصل أو ألقى يدَ السلَمَ
تكاءدتني خطوبٌ لو رميت بها ... مناكب الارض لم تثبت على قدم
في بلدة مثل جوف العير لست أرى ... فيها سوى أمم تحنو على صنم

لا أستقر بها الا على قَلق ولا ألذُّ بها إلا على ألم
اذا تلفتُ حولي لم أجد أثراً إلا خيالي ولم أسمع سوى كلمي
فمن يردُّ على نفسي لُباناتها أومن يجير فؤادي من يد السقم

وهذا شعر جزل رصين، تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الاسلوب، فهو يستسقي للروحاء وما اليها من المغاني العربية، ويجمع بين شتى الاغراض في الموضوع الواحد. ويعرض له المعنى تبعاً فيتحول اليه حتى لتحسبه نسي المعنى الاصيل. ألا ترى كيف استسقى للروحاء، وهذا هو الغرض الاول، ثم مضى في وصف السارية الهتانة الديم فقال

من الغزار اللواتي في حوالبها ريّ النواهل من زرع ومن نعَم
اذا استهلت بأرض نمنمت يدها بُرداً من النور يكسو عارى الاكم
ترى النبات بها خضراً سنابلهُ يختال في حُلة موشية العلم

وكان يتمنى لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصال أو ألقى يد السلم، فانتقل من هذا الغرض الى وصف ما تكاءده من الخطوب، وما مُني به من الاقامة في بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام، لا يستقر به الا على قلق، ولا يلذ به إلا على ألم، إذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله ولم يسمع غير كلامه

وهذا بحث مجمل، نرجو ان نعود اليه في الكلمة الآتية بشيء من التفصيل

البحث الحادي والعشرون

« أسلوب البارودى »

قلت في الكلمة الماضية : إن شعر البارودى تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الاسلوب، وذكرت في تأييد ذلك أنه قد يتحول الى المعنى الطاريء حتى لنحسبه نسي المعنى الاصيل ، وهذا الاسلوب معروف في أشعار الجاهليين والمخضرمين ، ومن نحا نحوهم من شعراء الاعصر الخالية ، فانا نرى طرفَة بن العبد يشبّه قباب محبوبته بخلايا السفين ، ثم يترك المشبه ويمضى في الحديث عن المشبه به فيقول

كأن حمول المالكية غدوةً ... خلايا سفين بالنواصف من دَد
عَدَوْلية ُأو من سفين بن يامن ... يجور بها الملاح طوراً ويهتدى
يشق عباب الماء حَيزومها بها ... كما قسم الترب َالمفائلُ باليد

وتراه يهم بالحديث عن نفسه فيقول

واني لأمضي الهم عند احتضارهِ ... بهوجاء مِرقال تروح وتغتدي

ثم يندفع فى وصف الناقة حتى لا يشك القارىء فى أنه قال من أجلها هذه القصيدة ، إذ يصفها فى اكثر من ثلاثين بيتاً ، ثم يعود بعد لأي الى الحديث عن نفسه فيقول

ولست بحلاّل التّلاع مخافة ... ولكن متى يسترفدالقوم أرفد

وكذلك تجد كعب بن زهير يقول فى ثغر محبوبته سعاد

تجلو عوارض ذى ظَلم اذا ابتسمت ... كأنه مُنهلٌ بالراح معلولُ

ثم يمضي فى وصف ما مُزجت به هذه الراح فيقول

شُجَّت بذي شبم من ماء محنية　　صاف بأبطح أضحى وهو مشمولُ

تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه　　من صوب سارية بيض يعاليل

وتراه يقول في بُعد محبوبته

أمست سعاد بأرض لا يبلّغها　　إلا العتاق النجيبات المراسيلُ

وكان هذا كافياً فى الابانة عن بعد الشقة، ولكنه وصف الناقة التى تبلغه تلك الارض بنحو عشرين بيتاً ، ثم عاد بعد هذا كله الى مارمى اليه من استعطاف الرسول فقال

تسعى الوشاة بجنبيها وقولهمو　　انك يا ابن ابي سُلمى لمقتولُ

وقال كل خليل كنت آمله　　لا أُلهينَّك اني عنك مشغول

فقلت خلُّوا سبيلى لا أبالكمو　　فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن انثى وان طالت سلامته　　يوماً على آلة حدباء محمول

أُنبئت ان رسول الله أوعدني　　والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة ال　　قرآن فيها مواعيظ وترتيل

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم　　أذنب وإن كثرت فيّ الاقاويل

وقد سلك البارودي هذا المسلك في قصيدته (كشف الغمة) فقد رأينا كيف أفاض في وصف السحب وهو يستسقى للروحاء، وكيف انتقل من الحديث عن وجده الى الحديث عن غربته، ولنذكر الآن شاهداً آخر نؤيد به اختياره لهذا الاسلوب

— وصف الغار —

وصف القرآن الغار الذي آوى اليه النبي مع الصدّيق وصفاً لازُخرف

آفيه اذ قال « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها » ووصفه أبو بكر رضي الله عنهُ على هذا النحو فقال « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت ثار المشركين . قلت يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا قال ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؛ » وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت« ولما كان ليلة بات النبي صلى الله عليه وسلم في الغار امر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار ، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار ، وأتى المشركون من كل بطن حتى اذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر أربعين ذراعاً معهم قسيهم وعصيهم تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار فقال لاصحابه ليس في الغار شيء ، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت ان ليس فيه أحدٌ ، وقال رجل آخر : الغار ؛ فقال أمية بن خلف ما أدبكم فيه، وعليه من نسج العنكبوت ما أرى انه قبل ان يولد محمد»[1]

فامامنا الآن حقيقة ثابتة « هي ان النبي كان مع رفيقه في الغار وان الله أنزل سكينته عليه فلم يخف ولم يحزن » وقد وُصفت هذه الحقيقة في القرآن وفي كلام الصديق وصفاً يرجع في جوهره الى الاشادة بفضل الله ورحمته، ووُصفت في كلام عائشة وصفاً فيه شيء من الزخرف والخيال: إذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت — ولنا في حديث عائشة رأي لا يسمح به ظرف الزمان — فلنذكر كيف تناول البوصيري وشوقي والبارودي

(١) راجع وضح النهج

هذه الحادثة ، وكيف نحا البارودي في وصفها منحى شعراء الجاهلية .

أما البوصيري فقد قال

فالصدق في الغار والصدّيق لم يَرِما ... وهم يقولون ما في الغار من أرِم (١)

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على ... خير البرية لم تنسج ولم تحم

وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأُطم

وهذا وصف لم يخرج عما ورد في القرآن من وقاية الله لنبيه وإنزاله السكينة عليه ولم يَعْدُ ما حدثت به عائشة من حوم الحمام ونسج العنكبوت

أما شوقي فقد قال

سل عصبة الشّرك حول الغار حائمةً ... لولا مطاردة المختار لم تسمِ

هل أبصروا الأثر الوضّاء أم سمعوا ... همس التسابيح والقرآن من أَمَمِ (٢)

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم ... كالغاب والحائمات الزغب كالرخمِ

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم ... كباطل من جلال الحق منهزم

لولا يد الله بالجارين ما سَلِمَا ... وعينهُ حول ركن الدين لم يقُمِ

تواريا بجناح الله واستترا ... ومن يَضُمّ جناح الله لا يُضَم

وفي هذه القطعة يسخر شوقي من المشركين ، ويهزأ بهم ، ويمثل ضلالهم وإخفاقهم تمثيلاً بشعاً مخيفاً يخزى له وجه الشرك ويرغم به أنف الجحود ، وللقارىء أن يتأمل قوله

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم ... كباطل من جلال الحق منهزم

فانه من أجمل ما شُبه فيهِ المحسوس بالمعقول . أما البارودى فقد قال:

---

(١) اي لا أثر فيه (٢) من قرب

وجاءه الوحي إيذاناً بهجرتهِ فيمم الغار بالصديق في الغسَم (١)
فما استقر به حتى تبوأه من الحمائم زوج بارع الرنَم
بنى به عشه واحتله سكناً يأوى اليهِ غداة الريح والرَهمِ
إلفان ما جمع المقدار بينهما إلا لسر بصدر الغار مكتتم
كلاهما ديدبان فوق مربأة يرعى المسالك من بعد ولم ينم
ان حن هذا غراماً أو دعا طرباً باسم الهديل أجابت تلك بالنغمِ
يخالها من يراها وهي جاثمة فى وكرها كرة ملساء من أدَمِ (٢)
ان رفرفت سكنت ظلا وان هبطت روت غليل الصدى من حائر شبم
مرقومة الجيد من مسك وغالية مخضوبة الساق والكفين بالعنم
كأنما شرعت في قانيء سَرِبٍ من أدمعي فغدت محمرة القدم
وسجَّفَ العنكبوت الغار محتفياً بخيمة حاكها من أبدع الخيم
قد شد أطرافها فاستحكمت ورست بالأرض لكنها قامت بلا دعم
كأنها سابريٌّ حاكه لَبِقٌ بأرض سابور في بحبوحة العجم
وارت فم الغار عن عين تلمُّ به فصار يحكي خفاء وجه ملتثم
فياله من ستار دونه قمر يجلو البصائر من ظُلم ومن ظُلَم
فظل فيه رسول الله معتكفاً كالدر في البحر أو كالشمس في النسَم
حتى اذا سكن الارجاف واحترقت أكباد قوم بنار اليأس والوغَمِ
أوحي الرسول باعداد الرحيل الى من عنده السر من خِل ومن حشم
وسار بعد ثلاث من مباءتهِ يؤم طيبة مأوى كل معتصم

وفي هذه القطعة انتقل البارودي من سرد القصة النبوية الى الافاضة

---

(١) في الظلام (٢) من جلد

في وصف الحمامتين والعنكبوب ، فتحدث عن بناء العش والغرض من سكناه ، وتكلم عن حراسة الحمامتين ، ورعايتهما للمسالك البعيدة ، وهجرهما للنوم ، وتغنيهما باسم الهديل ، وذكر كيف كانت الحمامة مخضوبة الساق والكفين ، وكيف كانت مرقومة الجيد ، وكيف كانت محمرة القدم كأنما شرعت في دموعه الحمراء ، وتكلم عن الخيمة التي شد أطنابها العنكبوت ووصفها بجودة النسج حتى ليحسبها الرائي حلة سابرية ، الى آخر ما قال.

وهذا كله خروج عن الموضوع ، واستسلام الى الخيال ، وكذلك كان يفعل الأقدمون

(النظم في قصيدة البارودي)

وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب ، لانه ساير الحوادث وَفقاً لما قصه ابن هشام ، ولا كذلك شوقي والبوصيرى ، فقد أطاعا الخواطر الطارئة ، وقدّما بعض الحوادث على بعض ، وتكلما عن النبي وعن معجزاتهِ مثلاً قبل أن يذكرا الميلاد

ولكن مزية الترتيب التى انفرد بها البارودى كانت باباً لفقد الشعر في اكثر القصيدة ، فأصبحت بذلك « منظومة » كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون ، وإلى القارىء انموذجاً يرى به غلبة النظم في ميمية البارودى اذ قال :

وأمَّ طيبة مسروراً بعودتهِ ... يطوى المنازل بالوخّادة الرُّسُم
ثم اسنهلت وفود الناس قاطبة ... الى حماه فلاقت وافر الكرم
فكان عام وفود كلما انصرفت ... عصابةٌ اقبلت اخرى على قدَم
وارسل الرسل تترى للملوك بما ... فيه بلاغ لاهل الذكر والفهَم

وأمّ غالب أكناف الكديد الى ... بني الملوّح فاستولى على النعم
وحين خانت جُذام فلّ شوكتها ... زيد بجمع لرهط الشرك مقتحِم
وسار منتحياً وادي القُرى فحا ... بني فزارة أصل اللؤم والقزَم
وأمّ خيبر عبد الله في نفرٍ ... الى اليسير فارداه بلا أثم
ويمم ابن أنيس عرض نخلة اذ ... طغا ابن ثور فأصماه ولم يخم
ثم استقل ابن حصن فاحتوت يده ... على بني العنبر الطُّرار والشجُم
وسار عمرو الى ذات السلاسل في ... جمع لُهام لجيش الشرك مصطلم
وغزوتان لعبد الله واحدة ... الى رفاعة والاخرى الى إضم

وهذا الاسلوب ظاهر غالب في هذه القصيدة ، وقد يصل احياناً الى الغموض ، ولا ترجع الشاعرية الى البارودي إلا حين يذكر نفسه وبلواه ، وانظر كيف يقول وهو يتحدث عن رجائه في نصرة النبي له يوم المعاد

إني وان مال بي دهري وبرّح بي ... ضيم أشاط على جمر النوى أدمي
لثابت العهد لم يحلل قُوى أملي ... يأسٌ ولم تخط بي في سلوة قدمي
لم يترك الدهر لي ما استعين بهِ ... على التجمل الا ساعدي وفمي
هذا يحبّر مدحي في الرسول وذا ... يتلو على الناس ما أُوحيه من كلمي

وفي هذه الابيات الاربعة لونان مْن التعبير ، أولهما مملوء بالحرارة لانهُ يمثل أمنية دفنتها الحوادث في صدر الشاعر وثانيهما فيه ضعف وفتور لانه عاد الى القصص من جديد . ولعل أغرب ما وقع له من « النظم » اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب اذ قال في تقديمها للرسول

فهاكها يا رسول الله زاهرةً ... تهدي الى النفس ريّا الآس والبَرَم

وسمتها باسمك العالى فألبسها ثوباً من الفخر لا يبلى على القِدَم
غريبةٌ فى إسار البين لو أنستْ بنظرة منك لاستغنت عن النَّسم
لم ألتزم نظم حبات البديع بها إذ كان صوغ المعاني الغُرِّ ملتزمي
وانما هي أبيات رجوت بها نيل المنى يوم تحيا بذّة الرمم
نثرت فيها فريد المدح فانتظمت أحْسِنْ بمنتثر فيها ومنتظم
صدَّرتها بنسيب شف باطنهُ عن عفة لم يشنها قول متهم
لم أتخذه جزافاً بل سلكت به فى القول مسلك أقوام ذوي قدم
تابعت كعباً وحساناً ولي بهما فى القول أسوة برٍّ غير متهم
والشعر معرض ألباب يروج به ما نمقتهُ يد الآداب والحكم
فلا يلُمْني على التشبيب ذو عنَت فبلبل الروض مطبوعٌ على النغم

ويمكن بعد هذا البيان ان نقرر ان قصيدة البارودى يغلب فيها النظم عند سرد الحوادث ، ويغلب فيها الشعر عند الوصف وعند مناجاة الوجدان

سَمِيُّك يا رسول الله !

وقد اشترك الشعراء الثلاثة البوصيرى والبارودي وشوقي في التسمي باسم النبي عليه السلام، وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمي باسمه ، فنجد البوصيرى يقول

إن آتِ ذنباً فما عهدي بمنتقض من النبي ولا حبلي بمنصرم
فان لي ذمة منه بتسميتي محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم

ونجد شوقى يقول

يا احمد الخير لي جاهٌ بتسميتي وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

ونجد البارودي يقول

خدمته بمديحي فاعتليت على ... هام السماك وصار السعد من خدمي
وكيف أرهب ضيماً بعد خدمته ... وخادم السادة الاجواد لم يُضَم
أم كيف يخذلني من بعد تسميتي ... باسم له في سماء العرش محترم

والبوصيري هو صاحب الفكرة ، وقد تبعه البارودي ، ولحقهما شوقي ، وتلك مسألة فيها نظر كما يقولون !

البحث الثاني والعشرون

التخلص والاقتضاب

التخلص هو انتقال الشاعر من فن الى فن بمناسبة ظاهرة ،ويقابله الاقتضاب ، ويكثر التخلص في شعر المحدَثين ، كما يكثر الاقتضاب في شعر القدماء . قال ابن رشيق : وأولى الشعر بان يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى الى معنى ثم عاد الى الاول وأخذ في غيره ثم رجع الى ما كان فيه ، كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها الى النعمان بن المنذر

وكفكفت مني عبرة فرددتها ... الى النحر منها مستهلٌ ودامعُ
على حين عاتبت المشيب على الصبا ... وقلت ألمّا أصحُ والشيب وازع

ثم تخلص الى الاعتذار فقال

ولكنّ همّا دون ذلك شاغلٌ ... مكان الشّغاف تبتغيه الاصابع
وعيد أبي قابوس في غير كنهه ... اتاني ودوني راكسٌ فالضواجعُ

ثم وصف حاله عند ما سمع ذلك فقال

فبت كأني ساورتني ضئيلة   من الرُّقش في أنيابها السمُّ ناقعُ
يُسهَّد في ليل التمام سليمُها   لحلي النساء في يديه قعاقع
تناذَرَها الراقون من سوء سمها   تطلقه طوراً وطوراً تراجع

فوصفَ الحية والسليم الذي شبَّه به نفسه ما شاء، ثم تخلص الى الاعتذار الذي كان فيه فقال

أتاني —أبيتَ اللعنَ— أنك لمتني   وتلك التي تستكُّ منها المسامع

ثم اطّرد ما شاء من تخلص الى تخلص حتى انقضت القصيدة . .

وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط النسيب من مدح من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة ثم يعود بعد ذلك الى ما كان فيه من النسيب، ثم يرجع الى المدح، كما فعل أبو تمام، وان أتي بمدحه الذي تمادي فيه منقطعاً، وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة

ظلمتك ظالمة البريء ظلومُ   والظلم من ذي قدرة مذمومُ
زعمت هواك عفا الغداةَ كما عفتْ   منها طلولٌ باللوى ورسوم
لا والذي هو عالم ان النوى   أجلٌ وأن أبا الحسين كريم
ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت   نفسي على إلف سواك تحوم

ثم قال بعد ذلك

لمحمد بن الهيثم بن شبابةٍ   مجد الى جنب السماك مقيم

ويسمى هذا النوع الإلمام، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج الى المدح، بل يقولون عند فراغهم من نعت الابل وذكر القفار وما هم بسبيله: دع ذا، وعدِّ عن ذا، ويأخذون فيما يريدون، أو

يأتون بان المشددة ابتداءً للكلام الذى يقصدونه ، فاذا لم يكن خروج الشاعر الى المدح متصلاً بما قبله ولا منفصلاً بقوله : دع ذا وعد عن ذا ، ونحو ذلك سمي طفراً وانقطاعاً : وكان البحترى كثيراً ما يأتي بهِ نحو قوله

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى   لكنّ قلبي بالرجاء موكلُ
ان الرعية لم تزل في سيرةٍ   عمريه مذ ساسها المتوكلُ

فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص والاقتضاب

أما البوصيري فقد آثر التخلص اذ قال في محاورة العذول

انى اتهمت نصيح الشيب في عذَل   والشيب أبعد في نصح عن التهم
فان أمّارتي بالسوء ما اتعظت   من جهلها بنذير الشيب والهرَم
ولا أعدت من الفعل الجميل قِرى   ضيف ألمّ برأسى غير محتشم
لو كنت أعلم اني ما أوقّرهُ   كتمت سراً بدا لي منه بالكتم
من لي بردّ جماح من غوايتها   كما يُردُّ جماح الخيل باللجُم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها   إن الطعام يقوّى شهوة النَّهِمِ
والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على   حب الرضاع وان تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليّهُ   إن الهوى ما تولىّ يُصْمِ أو يَصِمِ
وراعها وهى في الاعمال سائمةٌ   وإن هي استحلت المرعى فلا تُسِمِ
كم حسّنت لذة للمرء قاتلة   من حيث لم يدر أن السم في الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع   فرب مخمصة شرٌّ من التخم
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت   من المحارم والزم حِمية الندم
وخالف النفس والشيطان واعصهما   وإن هما محضاك النصح فاتهم

وَلا تطع منهما خصما ولا حكمَا فأنت تعرف كيد الخصم والحكَمِ
أستغفر الله من قول بلا عمل لقد نسبت به نسلا لذى عُقُمِ
أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به وما استقمت فما قولي لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة ولم أصلِّ سوى فرض ولم أصُمِ
ظلمت سنة من أحيا الظلام الى أن اشتكت قدماه الضر من ورم

وهذا النوع من التخلص غير مقبول ، اذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب إلى المدح ، أما اذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب الى حساب النفس ثم الى مدح الرسول ، فانا نغفر له هذه الإطالة ، لانها في غرض من أغراضه الاساسية ، وهو الدعوة الى تهذيب النفس ، وتطهير الوجدان

ومن الخير أن نذكر أن البوصيرى لا يفعل ذلك فى جميع قصائده ، فقد رأيناه يواجه الغرض بلا مقدمة في همزيته فيقول :

كيف ترقى رقيَّك الانبياءُ يا سماءً ما طاولتها سماءُ
لم يساووك في علاك وقد حا ل سناً منك دونهم وسناءُ
انما مثّلوا صفاتك للنا س كما مثّل النجومَ الماءُ

وكأنما جاراه شوقى في افتتاح همزيته فقال

وُلد الهدى فالكائنات ضياءُ وفم الزمان تبسم وثناءُ
الروح والملأ الملائك حولهُ للدين والدنيا به بُشَراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهي والمنتهى والسدرة العصماء

ولكن أين ابتداء شوقى من ابتداء البوصيري ؟ إن الفرق بينهما لبعيد ، وان كان فى تعبير البوصيرى شيء من الجفاء ، فى تقدير الانبياء

وأعود فأذكر اني أستملح قول البوصيري فى رياضة النفس

واخش الدسائس من جوع ومن شبَع

فرب مخمصة شر من التخم

وجمال هذا البيت يرجع الى مافيه من صدق الدعوة : فان النفس يضرُّ بها الزهد، كما يطغيها الترف ، كالجسم ترديه المسغبة ، كما تضره البِطنة . وأستجيد كذلك قوله

أمرتك الخير لكن ماائتمرت به   وما استقمت فما قولي لك استقم

وحسن هذا البيت يرجع الى سماحة الشاعر ورفقه ، وخلوص دعوته من شوائب الصلَف والكبرياء، وهذا أدب يحتاج الى مثله اطباء النفوس

وقد آثر البارودي أيضاً حسن التخلص اذ قال

ليت القطا حين سارت غُدوةً حملت   عني رسائل أشواقي الى إضَمِ

مرت علينا خِماصاً وهي قاربةٌ   مرّ العواصف لاتلوي على أرم

لاتدرك العين منها حين تلمحها   إلا مثالا كلمح البرق في الظلَمِ

كأنها أحرف برقيةٌ نبضتْ   بالسلك فانتشرت في السهل والعلَم

لاشيء يسبقها الا اذا اعتقلتْ   بنانتي فى مديح المصطفى قلمي

و هذا تخلص مستملح مقبول، ومُضِيُّ الشاعر في وصف القطاة إيثار للاسلوب القديم الذي نوهنا به في الكلمة الماضية ، ونريد وَفقاً لاشارة استاذنا الدكتور طه حسين أن نقرر أن هذا الاسلوب جزء من الفن الشعرى عند الجاهليين والمخضرمين ومن سايرهم من المحدثين ، وبيان ذلك ان الشاعر يرى من الفن ان يصف ما يعرض له وصفاً يحيله صورة شعرية تكاد تستقل عما تتصل به نوعاً من الاستقلال، وتكون لهذا

الوصف قيمة أي قيمة حين يراد به تأكيد معنى من المعاني المقصودة .
ومن أمثلة ذلك قول ابي صعترة البولانى

فما نطفة من حَبِّ مُزْن تقاذفتْ — به جنبتا الجوديّ والليل دامسُ
فلما أقرّته اللّصاب تنفست — شمالٌ بأعلى مائه فهو قارس
بأطيبَ من فيها وما ذقت طعمهُ — ولكنني فيما ترى العين فارس

فان للشاعر من المبالغة فى وصف ماء المزن غرضاً خاصاً هو الاشادة بعذوبة ذلك الثغر الشهيّ المذاق ، ويماثل هذا قول عاتكة المرية ، وكانت كما قال صاحب زهر الآداب عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها

وما طعم ماء أي ماء تقولهُ — تحدر عن غُرّ طوال الذوائب
بمنعرج من بطن واد تقابلت — عليه رياح الصيف من كل جانب
نفت جرية الماء القذى عن متونه — فما إن به عيب تراه لشاربِ
بأطيب ممن يقصر الطرف دونهُ — تقي الله واستحياء بعض العواقب

فان لها من وصف الماء في عذوبته وجمال موقعه وحاجة الاعراب اليه غرضاً خاصاً هو الاشادة بجمال الحياء وطيب العفاف ، ويشبه هذين المثالين ما أنشده ابن دريد

وما وجد اعرابية قذفت بها — صروف النوى من حيث لم تك ظنّتِ
تمنّت أحاليبَ الرعاء وخيمةً — بنجد فلم يُقدر لها ما تمنتِ
اذا ذكرت ماء العضاه وطيبهُ — وبرد الحصى من نحو نجد أرنّت
بأوجد من وجد بريا وجدتهُ — غداة غدونا غدوة واطمأنتِ
فان يك هذا عهد ريا وأهلها — فهذا الذي كنا ظننا وظنتِ

وأورع من هذا قول الابيوردي (١)

وما أم ساجي الطرف مال به الكرى على عذبات الجزع تحسبه قلبا
تراعى باحدى مقلتيها كناسها وترمى باخرى نحوه نظراً غربا
فلاح لها من جانب الرمل مرتع كأن الربيع الطلق ألبسهُ عُصبا
فمالت اليه والحريص اذا غدت به سورة الاطماع لم يحمد العقبى
وآنسها المرعى الخصيب فصادفت مدى العين في أرجائه بلداً خصبا
فلما قضت منهُ اللبانة راجعت طلاها فألفتهُ قضى بعدها نحبا
أُتيح له عاري السواعد لم يزل يخوض الى أوطاره مطلباً صعبا
فولت على ذُعر وبالنفس ما بها من الكرب لا اُقّيت في حادث كربا
بأوجدَ مني يوم عجّت ركابها لبين فلم تترك لذي صبوة لبا

وكان يكفي أن يشبه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الظبية يغتال رشأها الذئب، ولكن هذه الصورة الشعرية التي وضعها للغزالة المروّعة الملتاعة جعلت المعنى أوقع في النفس، وأملك للقلب، وأروع للوجدان

ولننتقل بعد ذلك الى شوقي، وأنا لنراه صدف عن التخلص وآثر الاقتضاب، فانتقل فجأة من ذلك النسيب المونق المشرق الى الحديث عما تضمر الدنيا من المبكيات، وما تجن من ظلمات الخطوب، وتدرج من هذا الى الحديث عن غفلة النفس وفقرها الى الاخلاق، وكذلك يقول

نفس دنياك تخفي كل مبكية وان بدا لك منها حسن مبتسم

---

(١) تجد هذه المعاني الوجدانية في كتاب « مدامع العشاق » عند الكلام عن الطبيعة في انفس الشعراء »

فُضىّ بتقواك فاها كلما ضحكت ... كما يفضُّ أذى الرقشاء بالثرَم
مخطوبةٌ منذ كان الناس خاطبةٌ ... من أول الدهر لم ترمل ولم تئمِ
يفنى الزمان ويبقى من اساءتها ... جرح بآدم يبكي منه في الأدمِ
لا تحفلي بجناها أو جنايتها ... الموت بالزهر مثل الموت بالفحمِ
كم نائم لا يراها وهي ساهرة ... لولا الامانيُّ والاحلام لم ينمِ
طوراً تمدك في نعمى وعافية ... وتارة في قرار البؤس والوصَمِ
كم ضللتك ومن تحجب بصيرته ... إن يلق صاباً يرد أو علقما يسمِ
يا ويلتاه لنفسي راعها ودها ... مسودة الصحف في مبيضة اللمم
ركضتها في مريع المعصيات وما ... أخذت من حمية الطاعات للتخم
هامت على أثر اللذات تطلبها ... والنفس ان يدعها داعي الصبا تهم
صلاح أمرك للاخلاق مرجعهُ ... فقوِّم النفس بالاخلاق تستقم
والنفس من خيرها في خير عافيةٍ ... والنفس من شرها في مرتع وخِمِ
تطغى اذا مكنت من لذة وهوًى ... طَغْى الجياد اذا عضّت على الشكم
ان جل ذنبي عن الغفران لى أملٌ ... في الله يجعلني في خير معتصمِ
ألقي رجائي اذا عز المجير على ... مفرّج الكرب فى الدارين والغمَمِ
اذا خفضت جناح الذل أسألهُ ... عِزّ الشفاعة لم اسأل سوى أمَمِ
وان تقدّم ذو تقوي بصالحة ... قدمت بين يديه عَبرة الندمِ
لزمت باب أمير الانبياء ومن ... يمسك بمفتاح حبل الله يغتنمِ

وهذه قطعة مختارة، الجيد فيها اكثر و أجود مما يقابله في كلام البوصيري، وان قول شوقى

لا تحفلي بجناها أو جنايتها ... الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

لأشرف معنى واسمى خيالا من قول البوصيري

واخش الدسائس من جوع ومن شبع   فرب مخمصة شر من التخم

ولك أن تلاحظ أن البوصيري وقف موقف الناصح الامين ، فلما وصل الى نفسه ذكر أنه لم يصل ولم يصم سوى الفرض ، وأنه يأسى على أن لم يتزود نافلة قبل الموت ، وأنه لذلك ظلم سنة من أحيا الظلام حتى تورمت قدماه ، ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة ليذرف ما ذرف شوقى من الدمع . وأين شوقى من البوصيري ! لقد كان البوصيري من أئمة الصوفية ، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط ، وكان يحسن أن يقول

رمضان ولى هاتها ياساقي   مشتاقة تسعى الى مشتاق

ومن هنا سنحت له الفرصة ليزفر تلك الزفرة الحارة ، ويرمى بذلك الندم الموجع الذي يذيب لفائف القلوب ، وانظر كيف يقول

ان جل ذنبي عن الغفران لي أمل   فى الله يجعلني في خير معتصم

وكان شوقى أوفر الناس احساساً بخطر ذنبه وكرم ربه حين قال

وان تقدم ذو تقوى بصالحة   قدمت بين يديه عبرة الندم

« قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم »

البحث الثالث والعشرون

« المعجزات »

لنا في المعجزات رأي خاص ، لا يسمح به ظرف الزمان، لان درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرض ما يحيط بها من الحقائق والفروض، وقد يثير هذا فتنة نحن عنها أغنياء ، فلنذكر فقط ما يتصل بما ذكره البوصيري وشوقي والبارودي من معجزات النبي عليه السلام ، ولنذكر قبل ذلك ان القرآن يفيض بالتذمر من إلحاح المعاندين ولجاجتهم في طلب المعجزات ، إذ كان النبي يدعو الى تحكيم العقل ، وكان أولئك الكفار يأبون الا أن تكون الرسالة مصحوبة بألعاب بهلوانية، تنفر منها القلوب، وتأباها العقول ، وتنبوعنها الاذواق ، ولننظر كيف يقول فيهم عز شأنه وتبارك اسمه في سورة الاسراء (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ،ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كُفورا، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الارض ينبوعاً ، أو تكون لك جنّة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولا) — وهذه الآيات صريحة في ان النبي لا يملك لنفسه شيئاً ، وأن الامر كله لله ، وان في القرآن

هدًى وتبصرةً لقوم يعقلون ، وأصرح من هـذا قوله تعالى في سورة العنكبوت (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ؛ قل انما الآيات عند الله وانما انا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم؟ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) — ومعنى هذه الآيات ان معجزة النبي الباقية هي القرآن ، وفي تأييد ذلك يقول البوصيرى :

آيات حق من الرحمن محدثةٌ قديمة صفة الموصوف بالقدَمِ
لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرَمِ
دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت ولم تدم

وتبعه شوقي فقال :

جاء النبيون بالآيات فانصرمتْ وجئتنا بحكيم غير منصرمِ
آياتهُ كلما طال المدى جُدُدٌ يزينهنّ جلال العِتق والقدَمِ
يكاد في لفظة منه مشرفةٍ يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

ويمكن بعد هذا أن نقرر ان شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الاخبار الواردة في المعجزات ، وان كان شوقي على شيء من الحرص ، ويليه البوصيري ، أما البارودي فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل ، وقد اشترك البوصيري والبارودي في الحديث عن سجود الاشجار ، وسعيها الى الرسول ، فقال البوصيرى

جاءت لدعوته الاشجار ساجدة تمشي اليه على ساق بلا قدمِ
كأنما سطرت سطراً لما كتبت فروعها من بديع الخط باللقم

وقال البارودي

أتلك أمْ حين نادى سرحة فأتت اليه منشورة الأغصان كالجمَمِ

حَنَت عليهِ حُنُوَّ الام من شفق ... ورفرفت فوق ذاك الحسن من رَخَمِ
جاءتهُ طوعاً وعادت حين قال لها ... عودى ولو خليت للشوق لم ترِمِ

وانفرد البارودى بالحديث عن شق صدر النبي وهو غلام فقال

فبينما هو يرعى البهم طاف به ... شخصان من ملكوت الله ذى العظم
فأضجعاه وشقا صدره بيد ... رفيقة لم يبت منها على ألمِ
وبعد ما قضيا من قلبه وطراً ... تولّيا غسله بالسلسل الشبِمِ
ما عالجا قلبه إلا ليخلص من ... شَوْب الهوى ويعي قدسية الحِكَمِ
فيالها نعمةً لله خص بها ... حبيبه وهو طفل غير محتلم

وشقُّ الملائكة لصدر النبي وغسلهم اياه بالسلسبيل ليس من المعجزات لان المعجزة تكون للاقناع ، وهو لم يدع الى ربه في طفولته حتى يكون للاقناع مجال ، وانما هو نوع من التطهير لم تجر به العادة ولم يعرفه الناس ، والله يختص برحمته من يشاء ، وقد مر البارودي بهذه الاسطورة مراً الطيف ، فلم يعرض لها بنقد ولم يتناولها بتحليل ، ونحن نكتفي هنا بان نقرر أنها فى حاجة الى تحقيق ، ثم نلتفت الى ما فيها من روعة الخيال ، فقد صوِّر النبي فيها صورة رائعة ، وتمثَّل فيها لطف الله به ، واحسانه اليه وتكريمه اياه ، وهي صورة شعرية نحب ان نمتع بها القارىء ، ليرى كيف ابتدأ القصص فى سيرة النبى عليه السلام ... ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل ان النبي قال

« وكنت مسترضعاً فى بني سعد بن بكر ، فبينما انا ذات يوم منتبذ من أهلي فى بطن واد مع اتراب لي من الصبيان اذا انا برهط ثلاثة معهم طشت بَرَهْرَهة من الذهب ملآن ثلجاً ، فأخذوني من بين أصحابى ،

وانطلق اصحابى هرابا حتى انتهوا الى شفير الوادى ثم أقبلوا على الرهط وقالوا : ما أربكم من هذا الغلام، فانه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش ، وهو مسترضع فينا من غلام يتيم ليس له أب ، فما يرد عليكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك . فان كنتم لا بد قاتليه فاختاروا منا أينا شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فانهُ يتيم ، فلما رأى الصبيان ان القوم لا يحيرون جوابا انطلقوا مسرعين الى الحي يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم قال فعمد أحدهم فاضجعني الى الارض إضجاعا رفيقا ثم شق بطنى ما بين مفرق صدري الى عانتي ، وانا انظر اليه ، ولم أجد لذلك مسا ثم أخرج احشاء بطنى فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها الى مكانها ، ثم قام الثانى منهم فقال لصاحبه : تنح عنه ، فنحاه عنى ، ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وانا انظر اليه ، فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ، ثم أمرَّ يده يمنةً منهُ ، وكأنه يتناول شيئا ، فاذا بخاتم من نور في يده يحار الناظرون اليه فختم بهِ قلبي فامتلأ نورا ، وذلك نور النبوة والحكمة ، ثم أعاده مكانهُ فوجدت برد الخاتم في قلبي دهرا ، ثم قال الثالث تنح عنه، فنحاه عنى، فأمرَّ يده على مفرق صدري الى منتهى غايتي، فالتأم ذلك الشق باذن الله تعالى، ثم أخذ بيدى فانهضنى من مكانى انهاضا لطيفا ثم قال للاول الذى شق بطنى : زنه بعشرين من أمته فوزنني فرجحتهم ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزنني فرجحتهم ، ثم قال زنه بالف من أمته فوزنني فرجحتهم ، ثم قال دعه فوالله لو وزنته بامته لرجحهم ! قال ثم ضمونى الى صدورهم ، وقبلوا رأسي وما بين عينى ، ثم قالوا : لا تُرَعْ ! فانك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت به عيناك ! قال فبينما نحن كذلك

اذ اقبل الحي بحذافيرهم ، فاذا ظئرى امام الحي تهتف باعلى صوتها وتقول واضعيفاه ! فانكبوا عليَّ وضموني الى صدورهم ، وقبلوا رأسي وما بين عيني — يعني الملائكة — وقالوا : حبذا أنت من وحيد ! وما انت بوحيد : ان الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الارض ! ثم قالت ظئرى : وا يتيماه !! استضعفت من بين اصحابك ، فقتلت لضعفك ! قال فانكبوا علي وضموني الى صدورهم ، وقبلوا رأسي وما بين عيني - يعني الملائكة - وقالوا . حبذا أنت من يتيم ! ما اكرمك على الله ! لو تعلم ما يراد بك من الخير لقرت به عيناك ! فوصل الحي الى شفير الوادى فلما ابصرتني أمي — وهي ظئري — قالت لا أراك الا حياً بعد ! فجاءت حتى انكبت على ثم ضمتني الى صدرها ، فوالذي نفسي بيده انى لفي حجرها قد ضمتني اليها وان يدى لفي يد بعض الملائكة ، وجعل القوم لا يرونهم ، قال : فقال بعض القوم : ان هذا الغلام قد أصابه لمم أو طائف من الجن ، فانطلقوا به الى كاهننا حتى ينظر اليه ويداويه ، فقلت يا هذا ما بي شيء مما تذكرون ، ان آرابي لسليمة وفؤادي صحيح ، ليست لي فلتة ، فقال أبي -- وهو زوج ظئري - ألا ترون كلامه كلام فصيح؟ اني لأرجو أن لا يكون بابني بأس فاتفقوا على أن يذهبوا بي الى الكاهن ، فلما انصرفوا بي قصوا عليه قصتى فقال اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فانه هو أعلم بأمره منكم ، فسألني فقصصت عليه القصة ، وأمري من أوله الى آخره ، فوثب إلىّ وضمني إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه ! فواللات والعزى لئن تركتموه وأدرك ليبدلن دينكم ، وليسفهن عقولكم ، وعقول آبائكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله ! قال : فعمدت

ظئري اليه فانتزعتني من حجره وقالت : لأنت أعته وأجن ! ولو علمت أن هذا من قولك لما أتيتك به ، فاطلب لنفسك من يقتلك ، فإنّا غير قاتلي هذا الغلام ! ثم احتملوني وأدوني الى أهلهم وأصبحت مفزعاً مما فعل بي ، وأصبح أثر الشق ما بين صدري الى منتهى عانتي كأنه الشراك (١)

وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لتمكن القارىء من نقده وتمييزه ولنجعله على بينة من الحكم له أو عليه ، ان شاء ، أما نحن فتريبنا فيه عبارته ، اذ كانت عبارة ضعيفة لا تسمو الى ما في صحيح الحديث من متانة التركيب ، وحلاوة التعبير ، ويريبنا بنوع خاص مفتتح الحديث فان طريقة القصص التي سلكها قد تدل على أنهُ موضوع ، وذلك قوله «روى شداد بن أوس قال : بينا نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم اذ أقبل شيخ من بني عامر وهو مِدره قومه ، يتوكأ على عصاه ، فمثل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبه الى جده فقال: يابن عبدالمطلب اني انبئت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس، وأن الله تعالى أرسلك بما أرسل به ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الانبياء والخلفاء ، ألا وانك تفوهت بعظيم ! انما كانت الانبياء والخلفاء في بيتين من بني اسرائيل ، وأنت ممن يعبد الحجارة والأوثان ، فمالك والنبوة ؟ ولكن لكل حق حقيقة ، فأنبئني بحقيقة قولك ، وبدوّ شأنك ! قال : فأعجب النبي بمسألته ، ثم قال يا أخا بني عامر ، ان لهذا الحديث الذي سألتني عنه نبأ عظيماً ومجلساً كريماً الخ »

فان القارىء يرتاب على الأقل فى صحة هذه الجملة «اني انبئت انك

(١) راجع كتاب نجباء الابناء

تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس » فان كلمة صلى الله عليه وسلم لا تقال لمن « يزعم » أنه رسول . وعبارة « فأ نبئني بحقيقة قولك وبدو شأ نك » عبارة مولدة ، ولا ريب في ذلك . وما أظن النبي يقول « ان لهذا الحديث الذي سـأتتي عنهُ نبأ عظيماً ، ومجلساً كريماً » فان هذا أيضاً من تعابير المولدين ، ولـكل عصر أسلوب

أ كتفي بهذا في نقد هذه الاقصوصة ،وأترك للمشتغلين بعلم الحديث تقديمها الى محكمة التعديل والتجريح، وأكل الى استاذنا الدكتور طه حسين تأريخ هذا النوع من البيان ، وأنتقل الى ما ذكروه من العجائب عند ميلاد الرسول ،كانصداع ايوان كسرى ، وخمود نار الفرس ، ونضـوب بحيرة ساوة ، وما الى ذلك من خوارق العادات ، قال البوصيري في البردة

أبان مولده عن طيب عنصره ... ياحسن مبتدإ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس انهمو ... قد أُنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات ايوان كسرى وهو منصدع ... كشمل اصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الانفاس من أسف ... عليه والنهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة ان غاضت بحيرتها ... ورُدّ واردها بالغيظ حين ظمي
كأن بالنار ما بالماء من بلل ... حزناً وبالماء ما بالنار من ضرم
والجن تهتف والأنوار ساطعة ... والحق يظهر من معنى ومن كلِم
عَمُوا وصَمّوا فاعلان البشائر لم ... تُسمع وبارقة الانذار لم تشِم
من بعد ما أخبر الاقوام كاهنهم ... بأن دينهم المعوجّ لم يقم
وبعدما عاينوا في الافق من شُهُب ... منقضة وَفق ما في الارض من صنمِ
حتى غدا عن طريق الحق منهزمٌ ... من الشياطين يقفو إثر منهزمِ

وقال في الهمزية :

وتداعي ايوان كسرى ولولا ... آية منك ما تداعي البناء
وغدا كل بيت نار وفيهِ ... كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا ... ن لنيرانهم بها إطفاء

ويقول شوقي في نهج البردة

وخل كسرى وايواناً يدل بهِ ... هوى على أثر النيران والأُيُمِ

ويقول في الهمزية

ذعرت عروش الظالمين فزلزلت ... وعلت على تيجانهم أصداء
والنار خاوية الجوانب حولهم ... خمدت ذوائبها وغاض الماء
والآى تترى والخوارق جمة ... جبريل روّاحٌ بها غدّاء

ويرى القارئ ان البوصيري أكثر من شوقي إشادة بتلك الخوارق، وشعره فيها يفيض بالحياة ، أما شوقى فقد آثر الحيطة وهو يتكلم عن هذه الموضوعات ، فكان شعره فيها أضعف من شعره في سائر أغراض القصيدة ، وسنرى تحليله لفريضة الجهاد في الكلمة الآتية .

ويمكن بعدهذا ان نحكم بأن شعر البوصيري أروع من شعر شوقى في وصف الخوارق والمعجزات ، وأن شوقى أبعد نظراً من البوصيرى في نقد الاخبار والآثار،فان انصداع الايوان ، وخمود نار الفرس ، ونضوب بحيرة ساوة ، وانقضاض الشهب على الاصنام : كل هذه الحوادث فيها نظر ، وكلها في حاجة الى تمحيص ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

البحث الرابع والعشرون

— وصف القرآن —

لم يعن البارودي بوصف القرآن كما عني به البوصيري وشوقي ، أما البوصيري فقد قال :

دعني ووصفيَ آياتٍ له ظهرتْ　　ظهور نار القِرى ليلاً على علم
فالدر يزداد حسناً وهو منتظمٌ　　وليس ينقص قدراً غير منتظم
فما تطاولُ آمال المديح الى　　مافيه من كرم الاخلاق والشيم

وأول هذه الابيات فيه شيء من السذاجة . وعبارة « دعني ووصفي آيات له ظهرت » عبارة عامية . وقوله

فالدر يزداد حسناً وهو منتظمٌ　　وليس ينقص قدراً غير منتظم

غير واضح المدلول ، لان الدر الذي يتحدث عنه لا يصح ان يكون صفة القرآن ، لانه لا يهم بنظم القرآن ، ولا يصح أن يكون صفة لتقريظ القرآن ، اذ لم تسبق ذلك اشارة ولم يتقدمه دليل ، فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع ، فقيدها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل ... أما قوله

فما تطاولُ آمال المديح الى　　مافيه من كرم الاخلاق والشيم

فهو بيت يمدح به شخص ، ولا يقرظ به كتاب ، وقد كان الشاعر يرمي الى وصف القرآن بأنه دعوة الى محاسن الشيم ومكارم الاخلاق ، ولكنه لم يوفق الى حسن الاداء ... وقوله بعد ذلك

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم

فيه اشارة الى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحدوثه ، وهي اشارة مبهمة لا تغنى في دفع ولا تأييد ، والبيت الثاني غير جيد المعنى،لان أخبار القرآن عن عاد وعن إرم ، ليس حجة الا عند المسلمين، أما جمهور العالم فلايصدق من أخبار العهود الاولى غير ما تشهد به الآثار ، بعد أمن اللبس والتزوير ... أما قوله

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين اذ جاءت ولم تدم

فهو بيت القصيد ، اذ كان القرآن هو المعجزة الباقية ، وكان هو المرجع حين يجد الخلاف ، وهو أيضاً المعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين ، أما نبع الماء من بين يدي الرسول ، وتظليل الغمام اياه ، وسجود الاشجار له ، وما الى ذلك من المعجزات ، فهي مسائل يحتاج عرضها الى مخاطرة ، وهي مخشيَّة الضر ، قبل أن تكون مرجوّة النفع ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون

وقوله :

ما حوربت قط الا عاد من حرَب
أعدى الاعادى اليها ملقى السلَم
ردت بلاغتها دعوى معارضها
رد الغيور يد الجاني عن الحرم

كلمة صدق ، ويكفي ان تقرأ القرآن بحيدة ونزاهة لتلمس هذه الحقيقة ، فالقرآن كتاب خطِرٌ رهيب ، يحمل عدوه على الايمان به ،

والخشوع لديه ، ولو صحت — لاصحت — أراجيف الملحدين من أن القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا الوجود « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطهُ بيمينك اذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » وما أصدق قول البوصيري في آيات الكتاب العزيز

لها معانٍ كموج البحر في مَدَدٍ   وفوق جوهره فى الحسن والقيَمِ
فما تُعَدُّ ولا تُحصى عجائبها   ولا تُسام على الإكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقات له   لقد ظفرتَ بحبل الله فاعتصم
إن تتلها خيفة من حر نار لظى   أطفأت نار لظى من وردها الشبم
لا تعجبنْ لحسود راح ينكرها   تجاهلاً وهو عين الحاذق الفهِم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقَمِ

وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال ، وهو غاية في تقريع المكابرين . . . أما شوقى فقد قال :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت   وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جُدُدٌ   يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد في لفظة منهُ مشرفة   يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

وهذا الوصف على ايجازه جميل ، وكنت أود أن لا يكتفي شوقى في وصف القرآن بهذه الأبيات . . . وقد انتقل الى الإشادة بحديثِ النبي فقال :

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبةً   حديثك الشهد عند الذائق الفهِم
حلّيت من عطل جيد البيان بهِ   في كل منتثر في حسن منتظم

بكل قول كريم أنت قائلهُ   تحيي القلوب وتحيي ميت الهمم

وقول شوقى

آياته كلما طال المدى جدُدٌ   يزينهنّ جلال العتق والقدم

أروع من قول البوصيري

فما تعد ولا تحصى عجائبها   ولا تسام على الاكثار بالسأم

وقول البوصيرى

ان تتلها خيفة من حر نار لظى   أطفأت حر لظى من وردها الشبم

فيه ضعف ، لأنه ينقل القرآن من الغرض الذى أنزل لأجله ، وهو تهذيب النفوس ، وتثقيف العقول ، الى غرض ضئيل ، هو اتخاذه ورداً من أوراد الصباح أو المساء ، كما فعل المتأخرون ! وقوله

حليت من عطل جيد البيان به   في كل منتثر فى حسن منتظم

غير جيد المعنى ، وهو لا يزيد عن قول بعض الناس « أما القرآن فهو زينة البيان ، وقلائد العقيان » وعيب هذا النوع من الوصف يرجع الى ما فيه من الشمول ، وجودة الوصف لا تتم الا بتحديد الموصوف

« وصف الهيجاء »

عنى العرب كثيراً بوصف الحرب ، فأفاض شعراؤهم في الاشادة بذكر الغزاة ، والتمدح بآثار المجاهدين . وهذا كتاب الحماسة شاهد عَدْلٌ على تلك النزعة الحربية التي سيطرت على نفوس العرب زمناً غير قليل ، فقد اختار أبو تمام قطعاً قليلة في الحديث عن أدب النفس ومكارم الاخلاق ، وفعل مثل ذلك في الفكاهات والمُلَح والنسيب ، ثم ملأ كتابه بالحماسة والهجاء والمديح : وهي الفنون التي تترجم النفس العربية ، وتكشف عما

فيها من مطويّ النوازع ، ومكنون الميول ، وكذلك مهّدت السبيل لشعرائنا الذين أرادوا التنويه بما خاض النبي من المعارك ، وما اقتحم من الحروب ، وان اختلفت مناحيهم في وصف الهيجاء.

أما البوصيرى فقد تحدث عن الحرب بطريقة مجملة ولم يميز بعض الغزاوات عن بعض وهو يتكلم عن أخبار القتال ، فوصفه للحرب وصف فضفاض يصلح لبوساً لكل موصوف . وانظر كيف يقول

راعت قلوب العدا أنباء بعثته كنبأة أجفلت غفلاً من الغَنَم
ما زال يلقاهمو في كل معترك حتى حكوا بالقنا لحماً على وضَم
ودوا الفرار فكادوا يغبطون به أشلاء شالت مع العقبان والرخم
تمضي الليالي ولا يدرون عدتها ما لم تكن من ليالي الاشهر الحُرُم
كأنما الدين ضيف حل ساحتهم بكل قَرم الى لحم العدا قَرِم
يجر بحر خميس فوق سابحة يرمى بموج من الابطال ملتطم
من كل منتدب لله محتسب يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
حتى غدت ملة الاسلام وهي بهم من بعد غربتها موصولة الرحم

وانه ليحسن ان نسجل اعجابنا بقوله في وصف المجاهدين من اصحاب الرسول

هم الجبال فسَلْ عنهم مصادمهم ماذا رأى منهمو في كل مصطدَم
وَسلْ حُنيناوسل بدراً وسل أُحُداً فصول حتف لهم ادهى من الوخَم
المصْدِري البيضِ حُمراً بعدما وردت من العدا كل مُسْوَدٍّ من اللمم
والكاتبين بسمر الخط ما تركت أقلامهم حرف جسم غير منعجمِ
شاكي السلاح لهم سِيما تميّزُهم والورد يمتاز بالسيّما من السلَم

تهدي اليك رياح النصر نشرهمو فتحسب الزهر في الأكمام كل كمي

وقد يستضعف قوله

كأنهم في ظهور الخيل نبت ربي من شدة الحزم لا من شدة الحزُم

طارت قلوب العدا من بأسهم فرقاً فما تفرق بين البَهْم والبُهَم

أما البارودي — جعل الله له لسان صدق في الآخرين — فقد وصف الحرب وصفاً حياً صارخاً يبعث ميت العزم، ويثير مدفون الصيال، وما ظنك بجندي سفاح نشأ في أرض الفراعنة الذين هموا ببناء الصروح الشوامخ ليبلغوا أسباب السموات، وليحاربوا المقتدر القهار، وانه لضلال أجمل من الهدى، وغي أهدى من الرشاد!

ولننظر كيف يقول

قام النبي لنصر الحق معتزماً بجحفل لجموع الشرك مخترم

تبدو به البيض والقسطال منتشر كالشهب في الليل أو كالنار في الفحم

لمع السيوف وتصهال الخيول به كالبرق والرعد في مغدودق هزم

عرمرم ينسف الارض الفضاء اذا سرى بها ويدك الهضب من خيم

فيه الكماة التي ذلت لعزتها معاطس لم تذلل قبل بالخطم

من كل معتزم بالصبر محتزم للقرن ملتزم في البأس مهتزم

طالت بهم همم نالوا السماك بها عن قدرة وعلو النفس بالهمم

بيض أساورة غلب قساورة شكس لدى الحرب مطعامون في الأزم

طابت نفوسهم بالموت اذ علموا ان الحياة التي يبغون في العدم

ساسوا الجياد فظلت في أعنتها طوع البنانة في كر ومقتحم

تكاد تفقه لحن القول من أدب وتسبق الوحي والايماء من فهم

كأن أذنابها في الكرّ ألويةٌ | على سفين لأمر الريح مرتسم
من كل منجرد يهوى بصاحبه | بين المجاج هويّ الأجدل اللّحِم
والبيض ترجف في الأغماد من ظمأ | والسُّمر ترعد في الأيمان من قرَم
من كل مطَّردٍ لولا علائقهُ | لسابَق الموت نحو القِرن من ضرَم
كأنهُ أرقمٌ في رأسهِ حُمَةٌ | يستلُّ كيد الأعادي بابنة الرَّقم
فلم يزل سائراً حتى أناف على | أرباض مكّة بالفرسان والبُهَم
ولفّهم بخميس لو يُشدُّ على | أركان رضوى لأضحى مائل الدِّعَم
فأقبلوا يسألون الصفح حين رأوا | ان اللجاجة مدعاة الى الندم
ريعُوا فذلُّوا، ولو طاشوا لوقَّرهم | ضربٌ يُفرِّق منهم مجمع اللِّمَم

وهذه صورة شعرية قليلة الأمثال، وإنك لتعجب حين ترى البارودي يفتن في تصوير الحرب وهو يتحدث عن الغزوات غزوةً غزوة، وانظر كيف يقول مثلا في يوم بدر

يوم تبسَّم فيه الدين وانهملت | على الضلال عيون الشرك بالسَّجَم
أبلى عليٌّ به خير البلاء بما | حباه ذو العرش من بأس ومن همم
وجال حمزة بالصمصام يكسؤهم | كَسْأً يفرِّق منهم كل مزدحَم
وغادر الصحبُ والانصارُ جمعهمو | وليس فيه كميٌّ غير منهزم
تقسَّمتهم يد الهيجاء عادلةً | فالهام للبيض والأبدان للرَّخَم
كأنما البيض بالأيدي صوالجةٌ | يلعبن في ساحة الهيجاء بالقِمم
لم يبق منهم كميٌّ غير منجدلٍ | على الرَّغام وعضوٌ غير منحطِم
فما مضت ساعةٌ والحرب مُسْعَرَة | حتى غدا جمعهم نهباً لمقتسم
قد أمطرتهم سماء الحرب صائبة | بالمشرفيّة واللُّزَّان كالرُّجم

فأين ما كان من زهو ومن صلفٍ وأين ما كان من فخر ومن شمم
جاءوا ولاشر وَسمْ في معاطسهم فأُرغموا والردى في هذه السِّيَم
من عارضَ الحق لم تسلم مقاتلهُ ومن تعرض للأخطار لم ينم

أما شوقى فقد وصف النبي في الحرب وصفاً رقيقاً لا يلائم ماتقضي به الحرب من غَلَبة الغضب وشمول العبُوس ، ولننظر كيف يقول

البدر دونك في حسن وفى شرفٍ والبحر دونك في خير وفي كرم
شُمُّ الجبال اذا طاولتها انخفضت والانجم الزهر ما واسمْتها تسم
والليث دونك بأساً عند وثبته اذا مشيت الى شاكي السلاح كمِي
تهفو اليك وان أدميت حبتَّها في الحرب افئدة الابطال والبهم
محبة الله ألقاها وهيبته على ابن آمنةَ في كل مصطدَم
كأن وجهك تحت النقع بدر دجى يضيء ملتثما أو غير ملتثم
بدرٌ تطلع في بدر فغرّته كغرة النصر تجلو داجيَ الظلم

وهذا شعر جميل ، لكنه أرق من أن يوصف به ذوو البأس وهم يقارعون الهول في ميدان الجِلَاد . ويعجبني قوله في وصف الغُزَاة

مهما دعيت الى الهيجاء قمت لها ترمى بأُسد ويرمي الله بالرُّجُم
على لوائك منهم كل منتقم لله مستقتل في الله معتزم
مسبح للقاء الله مضطرمٍ شوقاً على سابح كالبرق مضطرم
لو صادف الدهر يبغي نقلة فرمى بعزمه في رحال الدهر لم يَرِم
بيضٌ مفاليل من فعل الحروب بهم من أسيُف الله لا الهندية الخُذُم
كم في التراب اذا فتشت عن رجل من مات بالعهد أو من مات بالقسَمِ
لولا مواهب في بعض الأنام لما تفاوت الناس في الأقدار والقيَمِ

(حكمة الجهاد)

لم يفصح البوصيري عن السر في مشروعية القتال ، وأشار اليها البارودي اشارة خفيفة حين قال :

ذاقوا الردى جُرَعاً فاستسلموا جزعاً　　للصلح والحرب مرقاةٌ الى السلمِ

أما شوقى فقد أبان عن حكمة الجهاد ، وأفصح عنها افصاحاً يرضي المنصف ويكبح جهل المعاند الكنود ، ولننظر كيف يقول

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا　　لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهلٌ وتضليل احلام وسفسطةٌ　　فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلمَ
لما أتى لك عفواً كل ذي حسب　　تكفل السيف بالجهال والعمَمَ
والشر ان تلقهُ بالخير ضقت بهِ　　ذرعاً وان تلقهُ بالشر ينحسم

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية ، فقد كانت دين سلام واخاء ، ولكنها لم تقم إلا بالسيف ، وفي هذا يقول

سَلِ المسيحية الغراء كم شربت　　بالصاب من شهوات الظالم الغَلِمِ
طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها　　في كل حين قتالاً ساطع الحدَم
لولا حماة لها هبُّوا لنصرتها　　بالسيف ماانتفعت بالرفق والرحم

ثم عاد الى تأكيد فضيلة الجهاد فقال

علّمتهم كل شيء يجهلون به　　حتى القتال وما فيه من الذمم
لولاه لم نرَ للدولات في زمن　　ما طال من عمد أو قرّ من دَعم
تلك الشواهد تترى كل آونة　　في الاعصر الغُر لا في الاعصر الدهمُ
بالامس مالت عروش واعتلت سرر　　لولا القذائف لم تثلم ولم تصم

— المدنية الاسلامية —

وقد انفرد شوقى بالافصاح عن جلال المدنية الاسلامية ، وتقديمها على مدنية المصريين واليونان والرومان ، وفي ذلك يقول

دع عنك روما وآتينا وما حوتا ... كل اليواقيت في بغداد والتوَمِ
وخل كسرى وإيوانا يدلّ بهِ ... هوي على أثر النيران والأُيُم
واترك رعمسيس ان الملك مظهره ... فى نهضة العدل لافي نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكرت ... دار السلام لها ألقت يد السلم
ماضارعتها بيانا عند ملتأم ... ولا حكتها قضاء عند مختصَم
ولا احتوت في طرازمن قياصرها ... على رشيد ومأمون ومعتصم
من الذين اذا سارت كتائبهم ... تصرّفوا بحدود الارض والتخم
ويجلسون الى علم ومعرفة ... فلا يُدَانون في عقل ولا فهَم
يطاطيء العلماء الهام ان نبسوا ... من هيبة العلم لامن هيبة الحكم

وقد مضى الشاعر في وصف خلفاء الاسلام ، وما كان لهم من الأثر في حياطة الدين ، ولا يعجبني من ذلك كله غير قوله

واترك رعمسيس ان الملك مظهره ... في نهضة العدل لافي نهضة الهرَم

فانه من فرائد الامثال .... ولنسجل بعد هذه الموازنة المفصلة ان البوصيري سما في المدائح النبوية سمُوّا لم يوفق الى مشاره في سائر شعره ، وهذا أثر لصدق العاطفة ، بخلاف صاحبيه فان شعرهما في هذا الباب دون مايعرف الناس لهما من الشعر البليغ ، وصدق شوقى حين قال

المادحون وأرباب الهوى تبعٌ ... لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم
مديحه فيك حب خالص وهوًى ... وصادق الحب يملي صادق الكلم

البحث الخامس والعشرون

أبو نواس وابن دراج

ولنوازن بين قصيدتين لشاعرين كان أحدهما شاعر زمانه في المشرق وهو أبو نواس، وكان ثانيهما شاعر زمانه في المغرب وهو ابن دراج: « سابق حلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محاسن أهل الاندلس أجمعين» كما قال أبو حيان

وكان الواجب أن نذكر شيئاً عن أبي نواس وعصره، ولكنا رأينا أن نحيل القارىء الى ما كتبه في ذلك أستاذنا الدكتور طه حسين في حديث الاربعاء، ونكتفي بما ذكره جامع الديوان من أن أبا نواس لما قدم على الخصيب في مصر صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح فيه، فلما فرغوا قال الخصيب: ألا تنشدنا أبا علي؟ فقال: أنشدك أيها الامير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يأفكون ؛ قال: هات اذاً. فانشده رائيته المشهورة

اجارة بيتينا أبوك غيور ومیسور ما يرجى لديك عسير

فاهتز لها الخصيب، وأمر له بجائزة سنية. وقد طار ذكر هذه القصيدة في جميع الامصار،، وعارضها كثير من الشعراء، منهم احمد بن دراج القسطلي الاندلسي — وسنبسط عنه القول ومنهم حسان بن نمير المعروف بعرقلة الدمشقي، فقد وازن قصيدة أبي نواس بقصيدة مدح بها صلاح الدين بن يوسف بن أيوب وقصده بها الى مصر كما فعل أبو

نواس حين توجه بقصيدته الى الخصيب وفيها يقول

عسى من ديار الظاعنين بشيرُ ومن جَوْر أيام الفراق مُجيرُ
لقد عيل صبري بعدهم وتكاثرت همومي ولكنَّ المحب صبور
وكم بين أكناف الثغور متيمٌ كئيب غزته أعينٌ وثغور
وكم ليلة بالماطرون قطعتها ويوم الى الميطور وهو مطير
سقى الله من سطرا ومقرا منازلا بها للندامى نظرةٌ وسرور
ولا زال ظل النيربين فانهُ طويلٌ ويوم المرء فيه قصير
ويا بَرَدى لا زال ماؤك بارداً وماء الحيا من ساحتيك نمير
أبى العيش إلا بين أكناف جلّق وقد لاح فيها أشمُسٌ وبدور
وكم بحمى جيرون سرب جآذر حبائلهن المال وهو نفور
ولكن سأحويه إذا سرت قاصداً الى بلد فيه الصلاح أمير

وعارضها محمود سامي البارودي بقصيدة جيدة نختار منها قوله

ألاَ فرعى الله الصبا ما أبرّهُ وحيًّا شباباً مرَّ وهو نضيرُ
اذ العيش أفواف تُرف ظلاله علينا وسلسال الوفاء نمير
واذ نحن فيما بين إخوان لذة على شيَم ما إن بهن نكير
تدار علينا الكأس بين ملاعب بها اللهو خِدن والشباب سمير
فألحاظنا بين النفوس رسائل وريحاننا بين الكؤوس سفير
عقدنا جناحَيْ ليلنا بنهارنا وطرنا مع اللذات حيث تطير
وقلنا لساقينا أدرها فانما بقاء الفتى بعد الشباب يسير
فطاف بها شمسية لهبيةً لها عند ألباب الرجال ثؤورُ
اذا ما شربناها أقمنا مكاننا وظلت بنا الأرض الفضاء تدور

ويعجبنا منها قوله في وصف الحمائم الساجعة

وكم ليلة أفنيت عمر ظلامها ... الى أن بدا للصبح فيه قتير
شغلت بها قلبي ومتعت ناظري ... ونعمت سمعي والبنان طهور
صنعت بها صُنْعَ الكريم بأهله ... وجيرته والغادرون كثيرُ
فما راعنا الا حفيف حمائم ... لها بين أطراف الغصون هدير
تجاوب أتراباً لها في خمائل ... لهن بها بعد الحنين صفير
نواعمٍ لا يعرفن بؤس معيشةٍ ... ولا دائرات الدهر كيف تدور
توسدَّ هامات لهن وسائداً ... من الريش فيه طائل وشكير
كأن على أعطافها من حبيكها ... عمائم لم تعقد لهن سيور
خوارج من أيكٍ دواخل غيره ... زهاهنّ ظلٌّ سابغٌ وغدير
اذا غازلتها الشمس رفتْ كأنما ... على صفحتيها سندس وحرير
فلما رأيت الصبح قد رف جيده ... ولم يبق من نسج الظلام ستور
خرجت أجر الذيل تيهاً وانما ... يتيه الفتى ان عفَّ وهو قدير

ومن الوفاء أن ننوه بهذه القطعة الجزلة التي وصف بها نفسه وهو يقول :

ولي شيمة تأبى الدنايا وعزمةٌ ... ترد لُهام الجيش وهو يمور
اذا سرت فالارض التي نحن فوقها ... مراد لمهري والمعاقل دور
فلا عجب ان لم يضُمَّنيَ منزل ... فليس لعقبان الهواء وكور
همامة نفس ليس ينفى ركابها ... رواح على طول المدى وبكور
معوَّدة أن لا تكف عنانها ... عن الجد إلا أن تتم أُمور
لها من وراء الغيب أذن سميعة ... وعين ترى ما لا يراه بصير

وفيت بما ضنّ الكرام فراسة   بأمري ومثلي بالوفاء جدير
وأصبحت محسود الجلال كأنني   على كل نفس في الزمان أمير
اذا صلت كف الدهر من غلوائهِ   واز قلت غصت بالقلوب صدور

وفي هذه المعارضات دليل على مبلغ ما ظفرت به قصيدة أبي نواس من تقدير الشعراء ، فلنضعها في الميزان لنعرف بالتحديد ما فيها من مواطن الحسن ومظان الابتذال

« أغراض القصيدة »

الغرض الاول لهذه القصيدة هو مدح الخصيب ، وقد استتبع هذا عند الشاعر ان يتحدث قليلا عن نفرة جارته منه ، وانصرافها عنه ، وأن يذكر ما دار بينه وبين زوجه من الحوار حين همّ بالرحيل ، وأن يصف كيف سار الشعراء الى مصر وكيف نسوا من أجل واليها جنات الشام ورياض العراق ، وقد فرق مدحه للخصيب بين أجزاء القصيدة ، فتكلم عن سؤدده وجوده وبصره بالعواقب وتنكيله بالمفسدين ، ثم عاد فتكلم عن هيبته وما أعد للسلم والحرب ، وما له من طيب العنصر وكرم الاخلاق ، ثم اختتم القصيدة بهذين البيتين

وإني جدير إذ بلغتك بالمنى   وأنت بما أملت فيك جديرُ
فان تُولني منك الجميل فأهلهُ   والا فاني عاذرٌ وشكور

ولنأخذ في نقد القصيدة وتحليلها ، فنذكر أولاً انه حاور جارته بقوله

أجارة بيتينا أبوك غيورُ   وميسور ما يرجى لديك عسير
وإن كنت لا خِلماً ولا أنت زوجةً   فلا برحت دوني عليك ستور

وليس في صدر البيت الاول أثر لحسن الأداء ، وعبارة « اجارة

بيتينا » ثقيلة على السمع ، وهي كذلك غير واضحة المدلول ، أو هي تحتاج على الاقل الى ان نذكر ان الشاعر قد يريد ببيتي جارته بيت السكن وبيت النسب ، وقد يريد غير ذلك ، ولقد أذكر — من باب الفكاهة — اني كنت اناقش الاستاذ محمد الههياوي مرة في قيمة المنفلوطي وفهمه للادب فقال : كيف وقد مات ولم يفهم قول أبي نواس « أجارة بيتينا ابوك غيور » لقد كان يكسر التاء من « بيتينا » ظناً منهُ أن هذا اسم مكان !!

وانك لتكاد تلمس التناقض حين تقرن البيت الاول بقوله :

وان كنت لا خلماً ولا أنت زوجةً فلا برحت دوني عليك ستورُ

فهو أولاً يشكو عسر ما يرجو من هذه الجارة، وذلك يوجب ان تكون مرجع هواه، ثم يصرح بانها ليست زوجة ولا صديقة ، فيضطرك الى أن تسأله: وإلام تقصد حين تقول « فلا برحت دوني عليك ستور » ثم يغلب عليه ضيق الصدر ، وقلق النفس ، فيقول

وجاورت قوماً لا تزاوُرَ بينهم ولا وصل إلا ان يكون نشورُ
فما أنا بالمشغوف ضربة لازبٍ ولا كل سلطان عليّ قدير

وهو بهذا يتململ من أسر فؤاده وحبس أمانيه ، في تلك البقعة التي لم يقر لقلبه فيها قرار ، ولم تنعم عينه فيها بغير لألاء النجوم ، حين تأنس العيون بالعيون ، وتسكن القلوب الى القلوب . . ! ثم أخذ يحدثنا عن علمه بحركات الأهواء ، وخطرات النفوس ، فقال

وإني لطرف العين بالعين زاجرٌ فقد كدت لا يخفى عليّ ضمير

والزجر هنا ليس معناه الردع ، وانما هو من زجر الطير ، وأصله أن يرمي الرجل الطائر بحصاة أو يصيح به، فان ولاّه في طيرانه ميامنة

تفاءل به ، وان ولاّهُ مياسره تطاير منه ، ويريد أنه يقرأ ما في الصدر بملاحظة العيز ، وهذا البيت تأكيد لما قرره قبل من عنف جارته به ، وقسوتها عليه ، وان لم تصرح بالقطيعة ، ولم تعلن الصدود . . . ولم يقف أبو نواس عند هذا الحد في وصف نفسه بصدق الفراسة ، بل شبه نظرته بنظرة العقاب في سكون الريح وقد طوت القوت ليلتين عن فرخها الأزغب فقال :

كما نظرت والريح ساكنة لها   عُقابٌ بأرساغ اليدين نَدُورُ
طوت ليلتين القوت عن ذي ضرورة   أزيغب لم ينبت عليه شكيرُ
فأوفت على علياء حين بدا لها   من الشمس قرن والضريب يمورُ
تقلّبُ طرفاً في حجاجَيْ مغارة   من الرأس لم يدخل عليه سرور

وهذه اللفتة من أبي نواس فيها خروج على فطرته ، اذ هي تقليد صريح لاسلوب الأعراب ، ويظهر أن أبا نواس كان يعني في المواقف الرسمية بمراعاة الأساليب القديمة ، ابتغاء مرضاة الرواة واللغويين ، كما كان ينقاد لفطرته كل الانقياد ، وهو يتحدث عن الصهباء ، ويشيد بذكر الندامى والسقاة والمغنين ، من كل رخيم الصوت ، أو أصبح الوجه ، أو عذب الحديث ، وهو الذي يقول

قد أسحب الزق يأباني وأكرههُ   حتى له في أديم الأرض أخدود
لا أرحل الراح إلا أن يكون لها   حاد بمنتحل الأشعار غرّيد
فاستنطق العود قد طال السكوت به   لن ينطق اللهو حتى ينطق العود

ولنذكر بعد هذا أن أبا نواس انتقل من الحديث عن نفرة جارته وصدق فراسته ، الى الحديث عن حوار زوجه فقال :

تقول التي من بيتها خف مركبي　　عزيزٌ علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلَّب　　بلى إن أسبابَ الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادرٌ　　جرت فجرى من جريهن عبير
ذريني أُكثّر حاسديك برحلةٍ　　إلى بلد فيه الخصيب أمير

وهذه القطعة من الشعر المختار ، ويرجع جمالها الى ما فيها من وضوح الفكرةِ وسلاسة التعبير ، وانظر الصدق في قوله

أما دون مصر للغنى متطلب　　بلى إن أسباب الغنى لكثير

ولكن الشعراء في ذلك العهد لم يطب لهم من أسباب الغنى غير مدح الملوك والأمراء ، وكان هذا باباً لحصر العبقرية في ناحية واحدة هي خلق المحامد ، والمناقب ، لكل من جُنّ له الدهر فظفر بأثارة من الملك أو زاد بسطة في المال. وقوله

ذريني أكثر حاسديك برحلة　　إلى بلد فيه الخصيب أمير

من الابيات المختارة، والتعبير عن وفرة المال بكثرة الحساد من الكنايات المستملحة ، وقد قال له الخصيب حين انشد هذا البيت : اذاً يكثر حسادها ،وتبلغ أملها، وأمر له بألف دينار ، ثم قال في مدح الخصيب

اذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا　　فأي فتى بعد الخصيب تزور
فما جازه جودٌ ولا حلّ دونهُ　　ولكن يصير الجود حيث يصير

وليس لهذين البيتين قيمة أدبية ، ومن السهل أن يزعم الشاعر أن ممدوحه خير الناس على الإطلاق، وأن الجود لا يجوزه ولا يحل دونه ،

وانما يصير حيث يصير ، إلى ما هنالك من وثبات الخبال ، وقد نال منه الضعف والاسفاف حين قال

فلم ترَ عيني سؤدداً مثل سؤدد ... يحل أبو نصر به ويسير

ولكنهُ وفق كل التوفيق حين قال

فتى يشترى حسن الثناء بماله ... ويعلم ان الدائرات تدور

فانهُ يصف الخصيب بالسعي لنيل السمعة الحسنة والصيت البعيد، ويصفه مع هذا بضبط النفس ، والحذر من عاديات النوائب ،وجائرات الخطوب ، ولا تطيب الدنيا لملك أو أمير الا اذا خطا في حكمه وملكه خطوات الحذِر الهيوب ، الذي يتوقع في كل لحظة ان يتنكر له الدهر ، وان تثور من حوله الاقدار... ثم أخذ يصف بطشه بالمفسدين ،وتنكيله بالعابثين بأمن الناس فقال

وأطرق حياتُ البلاد لحية ... خصيبية التصميم حين تسور

سموت لأهل الجور في حال أمنهم ... فأضحوا وكل في الوثاق أسير

إذا قام غنته على الساق حليةٌ ... لها خَطوه عند القيام قصير

وفي هذه الابيات اشارة الى ان مصر في ذلك العهد كانت تقاسي شيئاً من الاضطراب ، وكانت لذلك طُعمةً لاستبداد الحكام وسخرية الشعراء ، وأي سُخر آلم للنفس ، وأوجع للقلب ، من قول أبي نواس في أحد فتيان مصر وهو يرسف في الصفاد

اذا قام غنته على الساق حليةٌ ... لها خَطوه عند القيام قصير

وقد أحسن أبو نواس في وصف الخصيب بنصح الجيب حين قال

فمن يك أمسى جاهلاً بمقالتي ... فان أمير المؤمنين خبير

وما زلت توليه النصيحة يافعاً ... الى أن بدا في العارضين قتير
اذا غاله أمر فاما كفيتهُ ... وإما عليهِ بالكفاء تشير

وهذا من أجمل مايوصف به الرجل المخلص للحق حين يظفر باسرار الملوك ، وفى هذه القصيدة قطعة أخرها الشاعر وكانت أولى بالتقديم ، وهي وصف رحلة الشعراء الى الخصيب ، ونحن نسرد هذه القطعة تتميما للموضوع ، ونصرح بانها رديئة في العبارة وفي السياق ، قال :

رحلن بنا من عقرقوف وقد بدا ... من الصبح مفتوق الاديم شهير
فما نجدت بالماء حتى رأيتها ... مع الشمس في عينى أباغ تغور
وغمّرن من ماء النقيب بشربة ... وقد حان من ديك الصباح زمير
ووافين اشراقاً كنائسَ تَدْمُرُ ... وهن الى رُعن المدخَن صُور
يؤمن أهل الغُوطتين كأنما ... لها عند اهل الغوطتين ثُؤور
وقاسين ليلا دون بيسان لم يكد ... سنا صبحه للناظرين ينير
واصبحن بالجولان يرضخن صخرها ... ولم يبق من اجراحهن شطور
واصبحن قد فوزن من نهر فطرس ... وهن عن البيت المقدس زُور
طوالب بالركبان غزة هاشم ... وفي الفَرما من حاجهن شقور

واستأنف مدح الخصيب فقال

ولما أتت فسطاط مصر أجارها ... على ركبها أن لا تزال مجير
من القوم بسّام كأن جبينهُ ... سنا الفجر يسرى ضوءه وينير
زهابالخصيب السيف والرمح في الوغى ... وفي السلم يزهو منبر وسرير
جوادٌ إذا الايدي كففن عن الندى ... ومن دون عورات النساء غيور
له سلف في الأعجمين كأنهم ... اذا استؤذنوا يوم السلام بدور

وسنعود الى تحليل هـذه القطعة الاخيرة حين نوازن بينها وبين ما يماثلها في قصيدة ابن دراج

البحث السادس والعشرون

نفحة من الادب الاندلسي

نقدنا فى البحث الماضي قصيدة أبي نواس في مدح الخصيب، ورأينا مبلغه من الصدق حين ظنها كعصا موسى تلقف ما يأفكون ، ولم يبق الا ان نوازن بينها وبين قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره بمعارضة أبي نواس ، ولكنا رأينا ان نقف وقفة قصيرة عند رغبة المنصور بن أبي عامر فى أن يظهر شاعره على شاعر الرشيد . فقد كانت هناك منافسة شديدة بين رجال المشرق ورجال المغرب فى الادب والفلسفة والتشريع ، وكان لاهل الاندلس كلف شديد بالظهور على أهل الشرق ، وكان لابن دراج هذا ولع عجيب بسبق من نبغ من الشعراء في مصر والشام والعراق، وسنرى كيف بذ أبا نواس وبرعه حين نضع قصيدته في الميزان ، وكان من أثر ذلك التنافس أن عُقدت المفاضلات بين الكتاب والشعراء والمؤلفين : فازداد قادة الفكر قوة الى قوة ونشاطا الى نشاط ، وتقدم النقد تقدماً ظهرت ثمرته في ما كان يعني به العرب اذ ذاك من العلوم والفنون

وهذه رساله أبى الوليد الشقندي ــ التي وضعها فى تفضيل بر الاندلس على بر العدوة ، والتي اثبتها المقّري طيب الله ثراه في نفح الطيب ــ تدل على رغبة الاندلسيين في الظهور على من عداهم من العالمين ، واني لذاكر

ما جاء فيها عن الشعر والشعراء، لأضع بيد القارىء على اثر هو في جملته ثمرة لما كان من التنافس بين قرطبة وبغداد ؛ ولأنشر له صفحة من صحف النقد والمفاضلة تتمثل فيها عبقرية العرب في ذلك الفردوس المفقود.[1]

قال الشقندي بعد كلام طويل :

وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله

وليلٍ بسد النهر أنساً قطعتهُ   بذات سوار مثل منعطَف النهر
نضت بردها عن غصن بان منعم   فياحسن ما انشقّ الكمام عن الزهر

وقوله في أبيه

سميدعٌ يهَب الآلاف مبتدئاً   وبعد ذلك يلفى وهو يعتذرُ
له يد كل جبار يقبلها   لولا نداها لقلنا انها الحجر

ومثل ابنه الرضى في قوله

مرُّوا بنا أُصُلاً من غير ميعاد   فاوقدوا نار قلبي أيّ إيقاد
لاغرو ان زاد في وجدي مرورهمو   فرؤية الماء تذكي غلة الصادى

(١) جاء في نفح الطيب ص ٧٧٨ مانصه « قال ابن سعيد اخبرني والدي قال : كنت يوماً في مجلس صاحب سبتة ابي يحي بن ابي زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن فجرى بين ابي الوليد الشقندي وبين ابي يحي بن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البرين. فقال الشقندي لولا الاندلس لم يذكر بر العدوة ولا سارت عنه فضيلة ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم . فقال الامير ابو يحي اتريد ان تقول كون اهل برنا عرباً واهل بركم بربر ، فقال : حاش لله ! فقال الامير والله ما اردت غير هذا، فظهر في وجهه انه اراد ذلك ، فقال ابن المعلم : اتقول هذا وما الملك والفضل الا من بر العدوة ؟ فقال الامير : الرأي عندي ان يعمل كل منكما رسالة في تفضيل بره ، فالكلام هنا يطول ويمر ضياعاً ، وأرجو اذا اخليتما له فكركما يصدر منكما مايحسن تخليده . ففعلا »

وهل لكم ملك ألّف في فنون الادب كتاباً في نحو مئة مجلدة مثل المظفر بن الافطس ملك بطليوس ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همة الادب

وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد من مثل ، وأحبّ الى الاسماع من حبيب وصل ، التي منها

أثمرت رمحك من رؤوس ملوكهم لما رأيت الغصن يُعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء كماتهم لما رأيت الحسن يلبس احمرا

ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يُقل — مع طولها — أرق منها في التشبيب ، وهي التي يقول فيها(١)

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا والسعد قدغض من اجفان واشينا
سران في خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبون في بديهته بين يدي المعتمد بن عباد واصابته الغرض حين استحسن المعتمد قول المتنبي

اذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها معيي المطي ورازمه

فارتجل :

لئن جاد شعر ابن الحسين فانما تجيد العطايا واللها تفتح اللها
تنبأ عُجباً بالقريض ولو درى بانك تروي شعره لتألها

وهل لكم مثل شاعر الاندلس ابن دراج الذي قال فيه الثعالبي : هو بالصقع الاندلسي كالمتنبي بصقع الشام ، الذي ان مدح الملوك قال مثل قوله :

(١) ارجع الى هذه القصيدة في كتاب « مدامع العشاق »

ألم تعلمي ان الثواء هو التوى[1] وان بيوت العاجزين قبور
وأن خطيرات المهالك ضُمَّنٌ لراكبها ان الجزاء خطير
تخوّفني طول السفار وإنه بتقبيل كف العامريّ جدير
مجير الهدى والدين من كل ملحد وليس عليه للضلال مجير[2]

وان ذكر الغربة عن الاوطان ،ومكابدة نوائب الزمان ، قال :

قالت وقد مزج الفراق مدامعاً بمدامع وترائبـاً بترائب
أتفرُّقٌ حتى بمنزل غربةٍ كم نحن للأيام نهبة ناهبِ
ولئن جنيت عليك ترحة راحل فانا الزعيم لها بفرحة آيب
هل أبصرت عيناك بدراً طالعاً في الافق الا من هلال غارب

وان شبّه قال :

لمعاقل من سوسن قد شيدت أيدي الربيع بناءها فوق القُضُبْ
شِرفاتها من فضة وحُماتها حول الاميرلهم سيوف من ذهب

وهل من شعرائكم من تعرض لذكر العفة : فاستنبط ما يسحر به السحر ، ويطيب به الزهر . وهو أبو عمرو بن فرج في قوله

وطائعة الوصال عففت عنها وما الشيطان فيها بالمطاعِ

---

(١) التوى . الهلاك

(٢) اختار الشقندي قطعة كبيرة من قصيدة ابن دراج ، ولكننا اكتفينا بذكر هذه الابيات لاننا سنعود الى القصيدة مرة ثانية . وقد قال الشقندي في التعقيب على ما اختاره :

« وانا اقسم بما حوته هذه الابيات ، من غرائب الآيات ، لو سمع هذا المدح سيد بني حمدان لسلا به عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر ، ورأى ان هذه الطريقة اولى بمدح الملوك من كل ما تفنن فيه كل ناظم وناثر »

بدت في الليل سافرةً فباتت ... دياجي الليل سافرة القِناعِ
وما من لحظة إلا وفيها ... الى فِتَن القلوب لها دواعي
فملّكت النهى حُجّاب شوقي ... لأجرىَ بالعفاف على طباعي
وبت بها مبيت السَّقب يظما ... فيمنعه العكام من الرضاع [٣]
كذاك الروض ما فيه لمثلي ... سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات ... فأتخذ الرياض من المراعي

وهل بلغ أحد من مشبهي شعرائكم أن يقول مثل قول أبي جعفر اللماي

عارضٌ أقبل في جنح الدجى ... يتهادى كتهادي ذي الوَجَى
بدّدت ريح الصبا لؤلؤهُ ... فانبرى يوقد عنه سرجا

ومثل قول أبي حفص بن برد

وكأن الليل حين لوَى ... ذاهباً والصبح قد لاحا
كلة سوداء أحرقها ... عامدٌ أسرج مصباحا

وهل منكم من وصف ما تحدثه الخمرة، من الحمرة على الوجنة، بمثل قول الشريف الطليق

أصبحت شمساً وفُوهُ مغرباً ... ويد الساقي المحيّي مشرقا
واذا ما غَرَبت في فمه ... تركت في الخد منهُ شفَقا

بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان، ويفخر على كل انسان

وهل منكم من عمد الى قول امرىء القيس

سموت اليها بعد ما نام أهلها ... سُمُوَّ حباب الماء حالاً على حالِ

(٣) السقب: ولد الناقة، والعكام ما يعكم به

فاختلسه اختلاس النسيم لنفحة الازهار ، واستلبه بلطف استلاب الشمس لرضاب طلّ الأسحار ، فلطفه تلطيفاً يمتزج بالارواح ، ويغني في الارتياح ، عن شرب الراح ، وهو ابن شهيد في قوله

ولما تملأ من سكره ... ونام ونامت عيون الحرس
دنوت اليه على رقبة ... دنوّ رفيق درى ما التمس
أدب اليه دبيب الكرى ... وأسمو اليه سموّ النفس
أقبّل منه بياض الطلى ... وأرشف منه سواد اللعس
فبت به ليلتي ناعماً ... الى ان تبسّم ثغر الغلس

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه،فعارض الصهيل بالنهاق ، وقابل العذب بالزعاق ، فقال ويا ليته سكت

ونفّضت عني العين اقبلت مشية الـ ... ـحباب وركني خيفة القوم أزور

وأنا أقسم لو زار جمل محبوبة له لكان ألطف في الزيارة من هذا الأزور الركن، المنفض للعيون ، لكنه إن أساء هنا فقد أحسن في قوله

قالت لقد أعييتنا حجةً ... فأتِ اذا ما هجع الساهر
واسقط علينا كسقوط الندى ... ليلةَ لا ناهٍ ولا زاجرُ

ولله در محمد بن سفر أحد شعرائنا المتأخرين عصراً،المتقدمين قدراً، حيث نقل السعي الى محبوبته ، فقال — ويا ليته لم يزل يقول مثل هذا فبمثله ينبغي أن يتكلم ، ومثله يليق أن يدون :—

وواعدتها والشمس تجنح للنوى ... بزورتها شمساً وبدر الدجى يسري
فجاءت كما يمشي سنا الصبح في الدجى ... وطوراً كما مرّ النسيم على النهر
فعطّرت الآفاق حولي فأشعرت ... بمقدمها والعرف يشعر بالزهر

فتابعت بالتقبيل آثار سعيها   كما يتقصّى قارئ أحرف السطر
فبت بها والليل قد نام والهوى   تنبه بين الغصن والحقف والبدر
أعانقها طوراً وألثم تارة   الى أن دعتنا للنوى راية الفجر
ففضّتْ عقوداً للتعانق بيننا   فيا ليلة القدر اتركي ساعة النفر

وهل منكم من قيد بالاحسان فأطلق لسانهُ بالشكر فقال — وهو ابن اللبانة —

بنفسي وأهلي جيرةٌ ما استعنتهم   على الدهر إلا وانثنيت مُعَانا
أراشوا جناحي ثم بلّوه بالندى   فلم أستطع من أرضهم طيرانا

ومن يقول وقد قطع عنه ممدوحه ما كان يعتاده من الاحسان فقابل ذلك بقطع مدحه له فبلغه أنه عتبه على ذلك وهو ابن وضاح :

هل كنت الا طائراً بفنائكم   في دوح مجدكم أقوم وأقعدُ
إن تسلبوني ريشكم وتقلّصوا   عني ظلالكمُ فكيف أغرِّدُ

وهل منكم شاعرٌ رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الثغر بالاقاح وتشبيه الزهر بالنجوم ، وتشبيه الخدود بالشقائق ، فتلطف لذلك في أن يأتي بهِ في منزع يصيّر خلقه في الأسماع جديداً ، وكليله في الأفكار جديداً ، فأغرب أحسن اغراب ، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب ، وهو ابن الزقاق اذ قال :

وأغيدٍ طاف بالكؤوس ضحًى   وحثها والصباح قد وَضَحَا
والروض أهدى لنا شقائقهُ   وآسه العنبريُّ قد نفحا
قلنا وأين الاقاح قال لنا   أودعته ثغر من سقى القدحا
فظل ساقي المدام يجحد ما   قال فلما تبسم افتضحا

وقال :

أديراها على الروض المندّى | وحكم الصبح في الظلماء ماضي
وكأس الراح تنظر عن حَبَابٍ | ينوب لنا عن الحدق المِرَاض
وما غرّبت نجوم الافق لكن | نُقِلن من السماء الى الرياض

وقال :

ورياض من الشقائق أضحت | يتهادى بها نسيم الصباح
زرتها والغمام يجلد منها | زهرات تروق لون الراح
قلت ما ذنبها ؟ فقال مجيباً | سرقت حمرة الخدود الملاح

فانظر كيف زاحم بهذا الاحتيال المخترعين ، وكيف سابق بهذا اللفظ المبتدعين

وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه ، وما يتعلق بذلك ، فانتهى الى غاية السباق ، ونضح كل من طمع بعده في اللحاق ، وهو: أبو اسحاق ابن خفاجة القائل

وعشيٍّ أنس أضجعتني نشوةٌ | فيها يُمهِّد مضجعي ويُدمِّثُ
خلعت عليّ بها الاراكة ظلها | والغصن يصغى والحمام يحدث
والشمس تجنح للغروب مريضةً | والرعد يرقي والغمامة تنفثُ

والقائل

لله نهر سال في بطحاء | أشهي وروداً من لَمَى الحسناء
متعطّف مثل السوار كأنه | والزهر يكنفه مجرّ سماء
قد رق حتى ظُنّ قرصاً مفرغاً | من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها | هدب تحف بمقلة زرقاء

ولطالما عاطيت فيه مدامة صفراء تخضب أيديَ الندماء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الاصيل على لجين الماء

والقائل:

حثّ المدامة والنسيم عليلُ والظل خفاق الرواق ظليلُ
والروض مهتز المعاطف نعمة نشوان تعطفه الصبا فيميل
ريان فضضه الندى ثم انجلى عنه فذهّب صفحتيه أصيل

والقائل:

أذن الغمام بديمة وعقار فامزج لجيناً منهما بنضار
واربع على حكم الربيع بأجرع هزج الندامى مفصح الاطيار
متقسم الالحاظ بين محاسن من رِدف رابية وخصر قرار
نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا درر الندى ودراهم الأنوار
وهفت بتغريد هنالك ايكةٌ خفاقة بمهب ريح عرار
هزت له أعطافها ولربما خلعت عليه ملاءة النُّوار

والقائل:

سقياً لها من بطاح خزٍّ ودوح نهر بها مُطلٍ
اذ لا ترى غير وجه شمس أطل فيه عذار طلِ

والقائل:

نهر كما سال اللمى سلسال وصباً بليلٌ ذيلها مِكسالُ
ومهبُّ نفحة روضة مطلولة في جانبيها للنسيم مجالُ
غازلتها والأقحوانة مبسمٌ والآس صدغ والبنفسج خال

والقائل:

وساق كحيل اللحظ في شأو حسنه جماحٌ وبالصبر الجميل حِرانُ
ترى للصبا ناراً بخديه لم يثر لها من سوادَى عارضيه دخان
سقاها وقد لاح الهلال عشية كما اعوجَّ في درع الكمي سنان
عُقاراً نماها الكرم فهي كريمة ولم تزن بابن المزن فهي حَصان
وقد جال من جون الغمامة أدهم له البرق سوط والسنان عنان
وضمخ درع الشمس نحر حديقة عليه من الطل السقيط جمان
ونمت بأسرار الرياض خميلة لها النور ثغر والنسيم لسان

والقائل :

وأشقر تضرم منه الوغى بشعلة من شُعل الباس
من جلنار ناضر لونهُ وأذنه من ورق الآس
تطلع للغرة في شقرة حبابة تضحك في كاس

وهل منكم من يقول منادماً لنديمه ، وقد باكر روضاً بمحبوب وكأس ، فألفاه قد غطّى محاسنه ضباب، فخاف أن يكسل نديمه عن الوصول اذا رأى ذلك ، وهو الحسن بن بسام :

ألا بادر فما ثانٍ سوى ما عهدت الكأس والبدر التمام
ولا تكسل برؤيته ضباباً تغص به الحديقة والمدامُ
فان الروض ملتثمٌ الى أنْ توافيه فينحط اللثامُ

وهل منكم من تغزل فى غلام حائك بمثل قول الرصافي

قالوا وقد أكثروا فى حبه عذلى لو لم تهم بمُذال القدر مبتذلِ
فقلت لو كان أمري فى الصبابة لي لاخترت ذاك ولكن ليس ذلك لى
علقته حَببيّ الثغر عاطره حلو اللمى ساحر الاجفان والمقل

غزيِّل لم تزل فى الغزل جائلةً بنانه جولان الفكر فى الغزل
جذلان تلعب بالمحواك أنمله على السدى لعب الايام بالاجل
ضمّاً بكفيه أو فحصا بأخمصه تخبُّط الظبي فى أشراك محتبل

ومثل قوله فى تغلّب مسكة الظلام على خلوق الأصيل

وعشيٍّ رائق منظرهُ قدقطعناه على صرف الشمول
وكأن الشمس فى اثنائهِ ألصقت بالارض خداً للنزول
والصّبا ترفع أذيال الربى ومحيا الجو كالنهر الصقيل
حبذا منزلنا مغتبقا حيث لا يطرقنا غير الهديل

وهل منكم من وصف غلاماً جميل الصورة راقصاً بمثل قول ابن خروف

ومنوّع الحركات يلعب بالنُّهى لبس المحاسن عند خلع لباسهِ
متأوّداً كالغصن وَسط رياضه متلاعباً كالظبي عند كِناسهِ
بالعقل يلعب مدبراً أو مقبلا كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضمّ للقدمين منه رأسهُ كالسيف ضم ذبابه لرياسهِ

وهل منكم من وصف خالا باحسن من قول النشار

ألوّامى على كلفِى بحِبي متى من حبه أرجو سراحا
وبين الخد والشفتين خال كزنجيٍّ أتى روضاً صباحاً
تحيّر في جناه فليس يدري أيجنى الورد أم يجنى الاقاحا

وهل منكم الذي اهتدى الى معنى في لثم وردة الخد، ورشف رضاب الثغر، لم يهتد اليه أحد غيره، وهو أبو الحسن بن سلام المالقي في قوله

لما ظفرت بليلة من وصلهِ والصب غير الوصل لا يشفيهِ

أنضجت وردة خده بتنفسي   وطفقت أرشف ماءها من فيه (١)

وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره ، وسواد شعره ، وهو الطليطلي

ما اشتفت مني الايام في وطني   حتى تضايق فيما عنّ من وطري

ولا قضت من سواد العين حاجتها   حتى تكر على ما طل في الشعر

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولادة الروانية (٢) ومثل زينب بنت زياد المؤدب التي تقول

ولما أبى الواشون الا فراقنا   وما لهم عندي وعندك من ثار

وشنوا على أسماعنا كل غارة   وقلّ حماتي عندذاك وأنصاري

غزوتهمو من مقلتيّ وأدمعي   ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

ثم قال الشقندي بعد كلام : وأنا أختم هذه القطع المتخيرة بقول أبي بكر ابن بقي ليكون الختام مسكا

عاطيته والليل يسحب ذيله   صهباء كالمسك الفتيق لناشق

وضممته ضم الكمي لسيفهِ   وذؤابتاه حمائل في عاتقي

حتى اذا مالت به سنة الكرى   زحزحته شيئاً وكان معانقي

باعدته عن أضلع تشتاقه   كيلا ينام على وساد خافق

وقول الفاضل أبي حفص بن عمر القرطبي

همو نظروا لواحظها فهاموا   وتشرب لب شاربها المدامُ

يخاف الناس مقلتها سواها   أيذعر قلب حامله الحسامُ

سما طرفي اليها وهو باك   وتحت الشمس ينسكب الغمامُ

---

(١) حذفنا هنا جملة من كلام الشقندي لم نر لها اهمية

(٢) انشد لها بيتين لم نر لهما قيمة

وأذكر قدها فأنوح وجداً   على الأغصان تنتدب الحمامُ
وأعقب بينها في الصدر غما   اذا غربت ذكاء أتى الظلام

وبقوله أيضاً

لها ردف تعلق في لطيف   وذاك الردف لى ولها ظلومُ
يعذبني اذا فكرت فيه   ويتعبها اذا همّت تقومُ

***

تلك أيها القارىء نفحة من الادب الاندلسي ، رأينا أن نمهد بها لدرس قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره المنصور ابن أبي عامر بمعارضة أبي نواس ، كما ذكر ابن خلكان، وإنا لنرجو ان يكون فيما اقتطفناه تذكرة لطلاب الأدب ، وتبصرة لعشاق البيان ، فقد مضت عهود على نهضة الشعر في مصر ولم نجد من الباحثين من قيّد ما ابتكره شعراؤنا في العصر الحديث من المعاني الجديدة ،وما ابتدعوه من الصور الطريفة مع حرصهم على ان يمثل الشعر اغراض الحياة ، وأطماع العقول ، وألوان النفوس، وأهواء القلوب

البحث السابع والعشرون

(حياة ابن دراج)

كان أبو عمر احمد بن دراج القسطلي المتوفي سنة ٤٢١ للهجرة من كبار الشعراء ، وكان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام، كما قال صاحب اليتيمة. وكان له ديوان شعر في جزأين، كما ذكر صاحب وفيات الأعيان، وكان يجيد النثر ، كما نص صاحب الذخيرة ، ولكن الزمان لم يترك لنا ما نعرف بهِ صدق ما قاله في وصفه مؤرخو الآداب ، فقد ضاع ديوان شعره ، وضاعت رسائله البليغة ، ولم يبق من آثار فضله الا بقايا ضئيلة لا تكفي في الابانة عن منزلته في عالم البيان

ولنذكر أولاً ما قاله المؤرخون في وصفهِ ، ثم ننتقل الى وصف نثره وشعره ، بقدر ما تسمح به الشواهد والأمثال

قال ابن بسام في الذخيرة « كان أبو عمر القسطلي في وقته لسان الجزيرة شاعراً وأولا حين عد معاصريهِ من شعرائها المشهورة، وآخر حامل لوائها، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها . . . . ، بهِ بديء ذكر الجميل وختم، حل اسمهُ من الاماني محل الأنس، وأحد من تضاءلت الاول عن جلالة قدره ، وكانت الشام والعراق خطر ذكره ، وقد أجرى الثعالبي طرفاً من أمره ، وأغرب بلُمع من شعره ، ثم قال « وانما ذكرتهُ أنا وان كان من شعراء ابن أبي عامر لأنه تراخت أيامه ، وأغضي عنه حمامه ، حتى أخرجته المحن ، وسالت به تلك الفتن»

والقارىء يرى في عبارة ابن بسام شيئاً من اللبس والغموض، وهذا يرجع الى سببين : أولهما أن كتاب الذخيرة مني بالمسخ والتحريف، ولا يزال الى الآن مخطوطاً يجده الباحث في دار الكتب المصرية ، وثانيهما أن ابن بسام يؤثر السجع، والسجع قيد يضطر الكاتب الى التعثر ،فتظهر في عباراته آثار الضعف والاضطراب

وقال أبو حيان « أبو عمر القسطلي سابق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محاسن أهل الاندلس أجمعين ،كان ممن طوحت بهم تلك الفتنة الشنعاء ،واضطرتهُ الى النجعة ، فاستقرأ ملوك الاندلس أجمعين ، يهز كلاً بمدحهِ ، ويستعينهُ على نكبتهِ ، وليس منهم من يصغى له ، ولا يحفظ ما أضيع من حقه ، وأرخص من عقله ، وهو يخبطهم بعقوله فيصمون عنهُ ، الى أن أناخ بساحة المنذر بن يحيى أمير سرقسطة ، فألقى عصاسيره عند ما بوّأه ، ورحب به وأوسع قراه ، ولم يزل عنده وعند ابنه بعده »

وقال ابن فضل الله ، كما ذكر صاحب معاهد التنصيص بعد ذكر قصيدة ابن دراج التي عارض بها أبا نواس :

« ومن وقف على هذه القصيدة وقصيدة أبي نواس عرف فضل قائلها على من تقدم ، وشهد له بأنهُ سبق وان تأخر، وجزم بأن الرجال معادن ، ولم يشك أن الخواطر موارد لا تنزح ، وأن الافكار مصابيح لا تطفأ ، وأن الافهام مراءٍ لا تتناهى صورها ، وأن العقول سحائب لاينفد مطرها ، وعلم أن المعاني غير متناهية ، والفضائل غير متواربة، وأن أم الليالي ولود ، وأن الفضل فى كل حين مشهود، وأن هذا الشاعر

في قصيدته هذه التي عارض بها أبا نواس ،لم يدع لهعارضاً يستمطر ،ولا عارضة تذكر ، وانهُ لحقيق أن ينشد

وإني وان كنت الأخير زمانهُ لآت بما لم تستطعهُ الاوائلُ

وكذلك كانوا يرون في ابن دراج شاعراً مفلقاً يبخل بمثله الزمان ، ولكن عدوان الحوادث على آثاره الادبية حال بيننا وبين التثبت من صدق ما حكم به المتقدمون

— شيء من نثره —

يغلب السجع في نثر ابن دراج ، ويجد فيه القاريء شيئاً من مستملح التشبيه ، ولنذكر القطعة الآتية على سبيل التمثيل :

«حاش لله أن أستشف المسيل قبل جُمومه ،وأستكره الدر قبل حُفوله أو أتعامى عن سراج المعذرة ، وأغفل عن أدنى الباهر في نَظِرَة الى ميسرة . . . ولكن

ما ذا تقول لأفراخ بذي مرَخ حُمر الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ
ما أوضح العذر لي لو أنهم عذروا وأجمل الصبر بي لو أنهم صبروا
لكنهم صغروا عن أزمة كبرت فما اعتذاريَ عمن عذره الصغَرّ

وقد قلبت لهم ظهر مجن الامور ، وميزت بين الميسور والمعسور ، فما وجدت أحسن بدءاً ، ولا أحمد عوداً ،مما أذن الله لعباده الذين أعمرهم أرضهُ ، وسخر لهم بحره وبره ، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه ، وحيث نتقلب فني كرمك ، وأين نأمن فني حرمك ، وحيث توحشنا دعوتك ، ولا تعدمنا نعمتك ، فمن ملكك الى ملكك ، ومن يمينك الى شمالك »

وفي كتاب الذخيرة عدة قطع على هذا الاسلوب، وإن كنت أرتاب بما في ذلك الكتاب من التحريف

— شيء من شعره —

نعود فنذكر أن الدهر ضنّ علينا بآثار هذا الشاعر المجيد ، فليرض القاريء بما نختاره من تلك القصائد التى أثبتها صاحب اليتيمة ، أحسن الله له الجزاء، وأنا لنستجيد قوله في لوعة الشوق

وحشيةَ اللفظ هل يودَي قتيلكمو ... دمي مضاعٌ وجاني ذاك عيناكِ
اني أراك بقتل النفس حاذقةً ... قولي فديتك من بالقتل أوصاكِ
ما لي وللبرق أستسقيه من ظمأ ... هيهات لا ريّ الا من ثناياكِ
لولا الضلوع لظل القلب نحوكمو ... َضمي بعيشك فوق القلب يمناكِ
أصابتنى لوعة الهجران ظالمةً ... رحماك من لوعة الهجران رحماكِ

ونستجيد قوله في وصف السفن تشق عُباب المحيط

اليك شحنّا الفلك تهوى كأنها ... وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربان
على لجج خُضْر اذا هبت الصبا ... ترامى بنا فيها ثبيرٌ وثهلانُ
وان سكنت عنا الرياح جرى بنا ... زفير الى ذكر الاحبة حنّانُ
يقُلن وموج البحر والهم والدجى ... تموج بنا فيها عيونٌ وآذان
ألا هل الى الدنيا معادٌ وهل لنا ... سوى البحر قبرٌ أو سوى الماء أكفان
وهبنا رأينا معلم الارض هل لنا ... من الارض مأوى أو من الانس عرفان
هوت أمهم ماذا هوت برجالهم ... الى نازح الآفاق سفُنٌ وأظعان
كواكب الا أن افلاك سيرها ... زمامٌ ورحلٌ او شراعٌ وسُكّانُ

وفي هذه القصيدة يقول في شكوى الزمان ، وتوديع الأحباب

وان بلاداً أخرجتني لعاطلٌ ... وان زماناً خان عهدي لخوّانُ
سلامٌ على الاخوان تسليم آيسٍ ... وسَقياً لدهر كان لي فيه اخوانُ
فلا مؤنسٌ الا شهيقٌ وزفرةٌ ... ولا مُسعد الا دموعٌ وأجفانُ
وما كان ذاك البين بين أحبةٍ ... ولكن قلوب فارقتهن ابدانُ

وما أوجَعَ ما يقول

فياعجباً للصبر منّا كاننا ... لهم غير مَنْ كناوهم غير مَنْ كانوا
مضى عيشهم بعدي وعيشيَ بعدهم ... كأنيَ قد خنت الوفاءَ وقد خانوا

ومن مختار القصيد قوله

لك الله بالنصر العزيز كفيلُ ... أجدٌّ مقامٌ أم أجدٌّ رحيلُ
هو الفتح أما يومه فمعجّلٌ ... اليك واما صنعه فجزيل
وآيات نصر ما تزال ولم تزل ... بهنّ عمايات الضلال تزُول
سيوفٌ تنير الحق أني انتضيتها ... وخيل يجول النصر حيث تجولُ
ألا في سبيل الله غزوك من غوى ... وضل به في الناكثين سبيلُ
لئن صدئت ألباب قوم بمكرهم ... فسيف الهدى في راحتيك صقيل
وان يَحْيَ فيهم مكر جالوت جدهم ... فأحجار داودٍ لديك مُثُولُ
خفيفٌ على ظهر الجواد اذاعدا ... ولكن على صدر الكمي ثقيلُ
وجرداء لم تبخل يداها بغاية ... ولا كرُّها نحو الطعان بخيلُ
لها من خوافي لقوة الجو أربعٌ ... وكشحان من ظبي الفلا وتليل
وبيض تركن الشرك في كل منتأى ... فُلولاً وما أزرى بهنّ فُلولُ
تمور دماء الكفر في شفراتها ... ويرجع عنها الطرف وهو كليل
وأسمر ظمآن الكعوب كأنما ... بهن الى شرب الدماء غليل

اذا ما هوى للطعن ايقنت انهُ بصرف الردى نحو النفوس رسول

وفيها يقول

كتائب عزَّ النصرُ في جنباتها وكل عزيز يمتهُ ذليل
يسير بها في البر والبحر قائدٌ يسيرٌ عليه الخطب وهو جليلُ
اذا انشق ليل الحرب عن صبح وجهه فقد حان من يوم الضلال افولُ

وله قصيدة عينية بديعة نوهت بها الذخيرة ، ولكنها لم تسلم من التحريف ، نختار منها قوله

فما تجاوزت قَرن الليل معتسفاً إلا وقرن رخيم الدَّل بارعهُ
تحيتي منهُ تقبيل ومعتنق يشدّني غلهُ فيه وجامعهُ
لم أخلع الدرع إلا حين شققهُ عن صفح صدري َما تحوي مدارعه
ولا توقيت سهماً من لواحظه يذيب سيفي وفي قلبي مواقعهُ
غصن تجرع أنداء الغمام فما يطوق الدهر إلا وهو جازعهُ
يميس سكراً وسكر الدل عاطفهُ وتارة وانتهاء الوشي لاذعهُ
فبت تحت رواق الليل ثانيه والشوق ثالثنا والوصل رابعهُ
والسحر يسحر من لفظ ينازعني والمسك يعبق من كأس انازعهُ
فياظلام نجوم الليل اذ حرمت بدر السماء وفي حجري مضاجعهُ
ويا حنين ظباء القفر اذ فقدت غزالهنّ وفي روى مراتعه

— رائية ابن دراج —

واشهر قصائد ابن دراج رائيته في مدح المنصور بن أبي عامر التي عارض بها رائية ابي نواس في مدح الخصيب ، وقد ضن الدهر علينا ايضاً بهذه القصيدة ، فلم تبق منها إلا قطع مبعثرة هنا وهناك ، وقد راجعت

كل ما وصلت اليه من تاريخ الاندلس، وسألت كل من اعرف انه شُغِل بتاريخ الادب في تلك البلاد ، ثم لم اظفر بمطلع هـذه القصيدة ، وانما يبدأون بقوله

ألم تعلمي ان الثواء هو التّوى   وان بيوت العاجزين قبور

ومن البعيد ان يكون هذا البيت هو المطلع ، إذ يبعد ان لا يضع الشاعر مقدمة لهذا الحِوار

ولنأخذ فى الموازنة فنذكر ان قول ابي نواس

تقول التي من بيتها خف مركبي   عزيزٌ علينا ان نراك تسيرُ
اما دون مصر للغني متطلب   بلى ان اسباب الغنى لكثير
فقلت لهـا واستعجلتها بوادرٌ   جرت فجرى من جريهن عبير
دعيني اكثّر حاسديك برحلة   الى بلد فيه الخصيب امير

هذه القطعة دون قول ابن دراج

ألم تعلمي ان الثواء هو التّوى   وان بيوت العاجزين قبور
وان خطيرات المهالك ضُمَّنٌ   لراكبها ان الجزاء خطيرُ
تخوّفني طـول السّفار وإنه   لتقبيل كف العامريّ سفير
ذريني أرد ماء المفاوز آجناً   الى حيث ماء المكرمات نميرُ

وقد بلغ ابن دراج ذروة البلاغة، وبذّ ابا نواس وَبَرعَه ، بقوله فى توديع زوجه ووليده

ولمّا تدانَتْ للوَداع وقد هفا   بصبري منها انّةٌ وزفيرُ
تُناشدني عهد المودة والهوى   وفي المهد مبغوم النداء صغيرُ
عَيِيٌّ بمرجوع الخطاب ولحظهُ   بموقع أهواء النفوس خبير

تبوّأ ممنوع القلوب ومُهّدتْ   لهُ أذرعٌ محفوفةٌ ونحورُ
عصيت شفيع النفس فيه وقادني   رواحٌ لتدآب السُّرى وبُكور
وطار جناح البين بي وهفت بها   جوانح من ذُعر الفراق تطير
لئن ودعت مني غيوراً فانني   على عزمتي من شجوها لغيور

ولا لوم على ابي نواس فى أنْ خلت قصيدته من مثل هذا الموقف الحزين ، إذ لم يترك ببغداد زوجاً ينازعه اليهـا الوفاء ، ولا طفلا تعطفه اليه نوازع الشوق ، ولواعج الحنين

واحب ان لا يفوت القارىء ترجيع هذا البيت

تناشدني عهد المودة والهوى   وفى المهد مبغوم النداء صغير

وكلمة « مبغوم النداء » كلمة مختارة بارعة المدلول ، وقوله

عَيِيٌّ بمرجوع الخطاب ولحظه   بموقع اهواء النفوس خبير

بيت نادر المثال ، وقوله

تبوّأ ممنوع القلوب ومُهّدتْ   له أذرعٌ محفوفةٌ ونحور

من أرق ما صوّر به الحنان ، وما اوجع مايقول

عصيت شفيع النفس فيه وقادني   رواحٌ لتدآب السُّرى وبكورُ
وطار جناح البين بي وهفت بها   جوانح من ذعر الفراق تطير

وانظر تصوير الحزم بقوله

لئن ودعت مني غيوراً فانني   على عزمتي من شجوها لغيور

وقول أبي نواس

ولما أتت فسطاط مصر أجارها   على ركبها ان لا تزال مجيرُ
من القوم بسّامٌ كأن جبينه   سنا الفجر يسري ضوءه وينير

زها بالخصيب السيف والرمح في الوغى　　وفي السلم يزهو منبر وسرير
جوادٌ اذا الايدي كففن عن الندى　　ومن دون عورات النساء غيور
لهُ سلف في الأعجمين كأنهم　　اذا استؤذنوا يوم السلام بدور

في هذه القطعة سلاسة وجلاء ، وهي أروع من قول ابن دراج

تلاقت عليه من تميم ويعرب　　شموس تلالا في العُلَى وبدور
من الحميريين الذين أكفهم　　سحائب تهمى بالندى وبحور
همو صدّقوا بالوحي حين أتاهمو　　وما الناس الا عابدٌ وكفور
مناقب يعيا الوصف عن كنه قدرها　　ويرجع عنها الوهم وهو حسير
ألا كل مدح عن نداك مقصرٌ　　وكل رجاء في سواك غرور

ونحن حين نقابل هذه القطعة بكلمة أبي نواس نرى التكلف ظاهراً في أبيات ابن دراج ، وليتأمل القارىء قوله

مناقب يعيا الوصف عن كنه قدرها　　ويرجع عنها الوهم وهو حسير

فهو ظاهر الغُلُوّ ، واضح التكلف ، أما قوله

همو صدقوا بالوحي حين أتاهمو　　وما الناس الا عابد وكفور

فهو بيت ضعيف

وقد وصف أبو نواس رحلته الى مصر وصفاً لا قيمة له ، أما ابن دراج فقد أجاد الوصف حين قال

ولو شاهدتني والهواجر تلتظي　　عليّ ورقراق السراب يمورُ
أسلط حر الهاجرات اذا سطا　　على حُر وجهي والأصيل هجيرُ
وأستنشق النكباء وهي لوافحٌ　　واستمطىء الرمضاء وهي تفور
والموت في عين الجبان تلونٌ　　وللذعر في سمع الجريء صفيرُ

ولو شاهدتني والسُّرى جل عزمتي ... وجَرْسي لِجنّان الفلاة سمـيرُ
وأعتسف الموماة في غَسَق الدُّجى ... وللأُسد في غِيل الغياض زئيرُ
أمـيرٌ على غول التنائف ماله ... إذا ريع إلا المشرفيُّ وزيرُ
وقـد خيَّلت طرق المجرة أنهـا ... على مَفرَق الليـل البهيم قتيرُ
ودارت نجوم القطب حتى كأنها ... كؤوس طلًى والى بهن مديرُ
لقد أيقنت ان المنى طوع همتي ... واني بعطف العامريّ جـديرُ

وهذا شعرٌ جزلٌ رصين ، ومن المحزن أن السياق يدلنا على ان هذه القطعة الوصفية ضاع منها شيءٌ كثير

***

وقد انفرد ابن دراج بالاجادة في وصف هيبة اللقاء حين قال

ولمـا تراءوا للسـلام ورُفّعت ... عن الشمس في أفق الشروق ستورُ
وقد قام من زرق الأسنة دونهُ ... صفوف ومن بيض السيوف سُطور
رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزازها ... وآيات صنع الله كيف تنيرُ
وكيف استوى بالبر والبحر مجلسٌ ... وقام بعبء الراسـيات سرير
يقولون والأوجال تخرس ألسناً ... وحارت عيونٌ منهمو وصُدُورُ
لقد حاط اعلام الهدي بك حائطٌ ... وقدَّر فيك المـكرمات قديرُ

فهرس

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة


البدائع


حب ابن أبي ربيعة وشعره


الأخلاق عند الغزالي


أثر الشعر في ربط الشعوب


مدامع العشاق


Bibliotheca Alexandrina
0507384